

عَمِيدُ السُّكْرِ

د. رُشْدِي فَكَار

المفكر الإسلامى العالمى

فى : حوار متواصل

حول

مشاكل العصر

الناشر
مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

جميع الحقوق محفوظة

بيئات المختار الاسلامي
١٤٥ طريق الهادي الزراعي - محطة المطبة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا اِنْ نَسِينَا اَوْ اٰخَطَاْنَا »

صدق الله العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

في يوم من أيام شهر ابريل عام ١٩٧٧ كان لقائى الأول مع المفكر المصرى المولد وانشأة . والمغربى المهجر - الأستاذ الدكتور رشدى فكار ، وكان اللقاء لقاء عمل ، وقد كلفنى « الأهرام » بإجراء حوار معه ..

وأعترف مقدماً بأن معلومانى عن الرجل لم تكن تتعدى بضعة سطور نشرت عنه - ولا أدرى الآن فى أية مجلة أو دورية أو صحيفة - تشير إلى ترشيحه رسمياً لجائزة « نوبل » العالمية فى الآداب .. كأول مفكر عربى يحظى بهذا التقدير العلمى الدولى .

وأذكر أنه قد ثارت مناقشات فى المحافل الأدبية تدور حول سؤال يقول : كيف يحرم أقطاب أفذاذ من أدباء مصر مثل : العقاد وطه حسين ونجيب محفوظ وغيرهم ، وغيرهم ، من جائزة نوبل ، ثم يرشح لها أستاذ مصرى مغترب .. لا يكاد يسمع عنه أحد فى المحيط الثقافى المصرى ، فضلا عن العربى ؟ !

وبطبيعة الحال ، فإن للسؤال منطقته ، بل ووجاهته .. ولكن للمرشح للجائزة « الدكتور رشدى فكار » أيضا عذره ، فإن جل مؤلفاته بالفرنسية أساسا أو بالإنجليزية ، ولا تكاد تصل إلى أسماع مثقفينا .. وإن كانت دور النشر المصرية والعربية قد أصدرت عدة كتب بالعربية له مؤخرا تلقى بالضوء على ثقافته الموسوعية ..

من أجل ذلك كان من واجبي قبل أن أغوص فى عقل الرجل لأستخرج منه ما يفيد حوارا تنشره صفحة التحقيقات بالأهرام أن أعيد تقلاب صفحات

حياة الرجل الذي أدهشني بداية أن أعلم أنه من قرية مجهولة نائية في أقصى صعيد مصر الطيب ، تحتضن آثارا فرعونية غابرة تروى أمجاد ماضٍ سحيق .. هي قرية الكرنك . إحدى قرى محافظة قنا .. وقد لمست في الرجل آثار حياته بالمهجر كأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس بالرباط « بالمغرب » على لسانه الذي اكتسى بلكنة مغربية محببة مشوبة بمصطلحات علمية عربية مستحدثة لا عهد لمثقف مصري بها .. ولقد وقتت عندها في البداية متحيرا لا في فهمها ، ولكن في كيفية طرحها على قارىء الأهرام .. هل أضعها كما هي (والعهدة عليه) أم أقوم بتحويلها وتفسيرها وإعادة صياغتها وترجمتها ؟ ..

ولقد اخترت في النهاية أن أرويها على لسانه كما هي .. فكم من الألفاظ والتعبيرات الشائعة على لساننا اليوم وفي بطون كتبنا وأعمدة صحفنا كانت غريبة ومستهجنة ، ثم مالبت أن شاعت وانتشرت واحتلت مكانها في قاموسنا اللغوي المعاصر .. وبعد مضي ساعة من أول حديث مع الدكتور فكأر أدركت أن للرجل مذاق خاص في فكره ، ورؤى متغيرة جديدة ومبتكرة تختلف وتتباين مع كثير من الأفكار التي تلوك معانيها ألسنة مفكرينا ومثقفينا . وكان واضحا أنه قد نهل من منابع كثيرة في الغرب اختلطت مع ثقافته الأزهرية الأولى ، ومع نشأته الإسلامية في قرية الكرنك لتخرج مزيجا حيويا دافعا من ثقافة الغرب والشرق .. وقد طرح الدكتور فكأر نفسه أمامي (رغم اعترافه بأنه قد اغترف طوال ٣٠ عاما من عمره من علوم « الكفار » على حد تعبيره ..) كمفكر إسلامي .. ولا أقول مفكر ديني ، أو فقيه إسلامي !!

ومن خلال حواراتي المتكررة بعد ذلك ولمدة ثماني سنوات لم آتيني في الرجل وقوفه عند التفقه التقليدي في أمور الشريعة وعلوم الإسلام ، وإنما استيعابه لجوهرها كمفكر إسلامي لأنه يتبنى في ميادين مواجهاته الساخنة مع حضارة الغرب الفكرية التي تشرّبها هو حتى (الثمالة) وجهة نظر الحضارة الإسلامية التي يبشر بزوغ فجرها على الكون بأسره مخترق متناقضات الأزمنة والأمكنة ، ومتجاوزاً ظلمات الواقع العربي الإسلامي الراهن التي توحى للنّاظر بأنها تلف كل ما يحيط به من إنسان وفكر وحضارة وسياسة .

فالدكتور رشدى فكار كعالم اجتماع أحد قلائل فى عالمنا المعاصر ممن تعمقوا حتى الجذور فى أصول الماركسية ، ولكنه وبسلاح الخبرة والعلم – لا الشعارات والسياسة – يحاصر بنياها طارحا الهديل وهو عدالة الإسلام ..

والدكتور رشدى فكار الذى عبر رحلة طويلة شاقة مع سان سيمون ، وفوريه ، وبرودون ، وسبنسر ، وماركس ، وسارتر ، وهيجل ، وغيرهم وغيرهم ، يوضح عقم تفكيرهم المادى ، وكيف انتهى إلى مجرد فقاعات تلمع ثم تتسبب ، وكيف أن كل الملحدين قد آل بهم الأمر إلى الإيمان بالله صراحة أو إنهما ، أو على الأقل العجز فى مواجهة باب الإلحاد المسدود ! ..

والدكتور رشدى فكار الذى عاش معظم سنوات عمره بين جنبات المدينة الغربية الأوروبية كأستاذ زائر لكثير من الجامعات الأوروبية وكمشارك فى دراسات وأبحاث متعددة فى مراكز البحث الاجتماعى العلمية فى سويسرا وفرنسا لا تبهره أضواء الحضارة الأوروبية ، ويتنبأ باستيطان أزماها ، ويرشح للقمه فى القرن القادم بين ما يرشح كتطلعات الأمة الإسلامية إذا تغلبت على متناقضاتها ، وتجاوزت تخلفها ، واستمرت انبعاثات صحوتها .. أو الأمة الصينية التى تشرب بعنتها بمليار و ٢٠٠ ألف من البشر وبتاريخ حضارى عميق الجذور ، وقدرة رؤية على استيعاب فنون التكنولوجيا الصناعية .

والدكتور رشدى فكار لا يرى خلاصا لتخلف المسلمين والعرب ولتطاحناتهم الدامية إلا بالإسلام .

كما أنه لا يرى مستقبلا للأمة الإسلامية إلا « بالتمدرس » – إعادة الصياغة العقلية – أى بالتربية المدرسية انواعية الرشيدة ، ثم بأن يشارك علماء الأمة فى مقاليد الأمور ويتصدروا ليواجهوا تحدى العقلية الأوروبية والأمريكية الجبارة على المستوى الكونى ، أو على الأقل يجاوزها بوعى وقدره ..

ومنذ أن نشر الأهرام حوارى الأول معه من ثمانى سنوات تفتحت شهية القراء لمزيد من الأحاديث معه .

وقد فوجئت بصحف عربية متعددة في المغرب والشرق تنشر النص الكامل لأحاديثي مع الدكتور فكار ، وعرف المذيعون بالإذاعتين المسموعة والمرئية طريقهم إلى الدكتور فكار إبان زيارته السنوية لمصر ..

.. ولم يعد الدكتور فكار غريباً على العقل المصري والسريبي .. وأزعم أن لى سهما في هذا المضمار ! .

.. وفي خلال لقاء مع الدكتور فكار منذ سنة مضت فاتحته بسؤال :

لماذا لا تفكر في جمع كل الأحاديث التي أجريناها في كتاب ؟

وحقيقة الأمر أن اتخاذ القرار النهائي كان في حاجة إلى تفكير ..

إنني برغم مزاويتي لمهنة القلم منذ ٢٥ عاماً مضت لم أفكر مطلقاً في تأليف كتاب .. ربما لتشعب مجالات الكتابة التي أمارسها دون أن أقف عند تخصص بعينه ، وربما لضيق وقت الصحفى الذى يضيق في ملاحقة الأخبار ، وعمل التحقيقات الصحفية ، ومتابعة العمل اليومي داخل الصحيفة ..

ولكن ثمة سبب آخر كامن في النفس ويدور حول فكرة تختمر في الذهن ، لا أدري أصواب هي ، أم خطأ ؟ .. فالكتاب في اعتقادي هو نظرية مبتكرة جديدة ، أو فكر غير مسبوق ، أو هو شيء أقرب ما يكون إلى الاختراع والاكتشاف .. فكم من كتب غيرت وجه التاريخ ، وكم من كتب غيرت حياة البشر ! .

هكذا كانت تبدو صورة الكتاب في رأسي . ولكنني حينما شرعت في إعداد هذا الكتاب أعترف بأنني لم أتعامل معه بصفته كتاباً بالمعنى المتصود في نظري لصفة الكتاب ؛ ولكنه حوار صحفى متواصل ومتصل مع مفكر إسلامي مصري عربي عالمي .. أى أنه عمل صحفى بحت ، وإن كان منشوراً بين دفتي كتاب !

ومعظم الأحاديث المنشورة بهذا الكتاب سبق نشرها بجريدة الأهرام ، وبعضها منها نشر بمجلة القدس وجريدة النور الإسلامية ..

ولكن هذه الأحاديث المنشورة كانت كأنها الجزء « الطافي » من الجبل على سطح البحر ، لضيق المجال الصحفي عن نشر مجريات الأحاديث بأكملها أما الجزء « الغاطس » من هذه الحوارات فقد كانت مودعة بأرشييفي الخاص ، لذلك فقد لجأت إلى الأشرطة والملفات التي تحتوى على كل كلمات الدكتور فكار التي جاءت رداً على مئات من أسئلتى .. لأعيد صياغة ما نشر مع ما اختزن .. ليكون الكتاب وثيقة كاملة لفكر الرجل خلال حواراتى معه طوال ثماني سنوات .

.. ويبقى سؤال محير .. يستنفر الدافع الأول لتسليط الضوء على الدكتور فكار وهو : إقرار ترشيحه كأول مفكر عربي لجائزة نوبل .. وقد طرحت على الدكتور فكار منذ أول لقاء معه عام ١٩٧٧ سؤالا مشابها يتضمن نفس المعنى وكانت هذه هى إجابته بالنص :

لقد أقر الترشيح في أكتوبر سنة ١٩٧٦ وسوف أتقدم للتحكيم في السنوات الثلاث القادمة ، على أساس من إنتاجي المتكامل .. خاصة بعد صدور موسوعتى في علم الإنسان في أربعة أجزاء ، والتي حاولت فيها أن أعيد النظر في مضامين علم الإنسان على مستوى يتجاوز المضامين الغربية وهنا سألت الدكتور فكار :

ولكن هناك من يشكك في ترشيحات جائزة نوبل ، خاصة بالنسبة للشخصيات العربية .. وأجاب قائلاً :

أولاً : يجب أن يقابل الحصول على الجائزة أو عدم الحصول عليها بروح رياضية ..

ثانياً : إنه من الخطأ أن تصور أن الجائزة تمنح على ضوء مواقف شخصية ، كما أن القدرة على الخلق والإبداع الفكرى أو الفنى أو الفلسفى أو الأدبى لا تكفى وحدها للحصول على الجائزة ..

إن ثمة ظروف أخرى كثيراً ما تلعب دوراً في الحصول على الجائزة

كمدى التفاوت بين مستويات المرشحين ، وكوجود عنصر يصبح بقدرته الخلاقة نقطة الارتكاز للأكاديمية السويدية . وكذلك فإن البيئة الفكرية العالمية قد تؤهل تياراً معيناً للجائزة على حساب تيار آخر ! .

هكذا كان رد الدكتور فكار حرفياً على سؤالي المطروح حول مصير إقرار ترشيحه لجائزة « نوبل » .. مع إرجاء التحكيم لوقت لاحق مستقبلاً ..

وفي اعتقادي أن الفكر الإسلامي المتخصص في أزمة الحضارة الغربية المادية ومدارسها لا ينبغي أن ينتظر مكافأة له من أكاديميتها العلمية .. ومع هذا نرجى الحكم النهائي على ذلك في انتظار ما يؤول إليه إرجاء التحكيم والذكرى لمن يرجون وجه الله تعالى .. والعاقبة للمتقين ..

القاهرة في سبتمبر ١٩٨٥

خميس البكرى

* * *

(١)

دكتور رشدى فكار . . رحلة حياة

فى أعماق صعيد مصر .. فى قرية الكرنك بمحافظة قنا كان الميلاد .. هو سليل أسرة تنتمى إلى أصل عربى . إلى قبائل الهوارة التى نزحت من شبه الجزيرة العربية ، وانتشرت فى بعض مواقع بصعيد مصر ، وفى شمال إفريقيا ..

فى سننى طفولته المبكرة .. ثمت حادثة لا يفتأ يذكرها عند الحديث عن المنبت والنشأة .. واجهته وهو فى السادسة من عمره ، فقد مرض بالدفتريا ، وتفاقم المرض باختناق شديد فى الحلقوم ، وارتفعت حرارة الحمى وطال به المرض ، ثم راح فى غيبوبة أشبه بسكرات الموت .. وكان أن أعلن والده - عمدة القرية - نبأ موته ! ..

هرع أهل القرية .. قرية الكرنك لمواساة الأب الحزين والأم الشكلى .. جاءت النسوة متشحات بالسواد يولولن وينشدن مواويل الموت كعادة نساء صعيد مصر .. وجاء الرجال ، وعلى وجوههم ارتسمت علامات حزن صامت وقور لتقديم العزاء للوالد .. وتمت إجراءات الغسل للجنة الصغيرة المسجاة ثم إجراءات الكفن ..

وقعد « فقيه » القرية يرتل آى القرآن الكريم قبل أن تتم إجراءات الدفن ، وبالمصادفة البحتة لمست أصابع الشيخ الفقيه جسد الطفل الميت فقطع ترتيله ، وهمس فى أذن أحد رجال الأسرة : شىء عجيب .. إن جسد الغلام ساخن ، والموت له برودة معلومة ! ..

وتصل هذه الكلمات إلى الأب .. فينكر ذلك .. إن الولد قطع النفس تماما منذ ساعات ، وانتشر نبأ موته فى كل أرجاء المنطقة ، وها هو البيت

ملء بالمعزين والمعزيت ، والجثة غسلت وكفنت فكيف يكون الجسد ساخنا .. وهو ميت ! .. وكيف يعلن على الناس نبأ عودة الروح بعد أن أعلن خبر الوفاة ؟ .

ويتسرب النبا إلى الأم الثكلنى الحزينة فتتعلق بقشة الأمل وهى غارفة فى بحر المأساة وتهول إلى جثة ولدها تتحسها . وإلى وجهه تقبله ونحتضنه فى صدرها بعنف ، وتضرع إلى الله وبكى بحرقة شديدة ، وفجأة تتحرك رموش عيني الطفل وتتردد أنفاس خافته من أنه . مع زفرة أنين خافته واهنة ، فتنفض الأم من الدهون وتطلق زغرودة مدوية لينقلب الماتم إلى فرح ، وتوزع أكواب الشربات . وتمر الأيام ليبراً الغلام تماماً بعد أن تنفخ آثار الدفترى الخائفة ، وليملأ جنبات القرية لعباً ومرحاً وشقاوة .. ويقسم الأب أن يهبه الله .. للأزهر الشريف ..

« جملة اعتراضية على لسان د. رشدى فكار تعترض رحلة حياته .. فهو يتوقف ليستخلص ظاهرة ودرسا » ..

اما الظاهرة .. فهى الشهامة الصعيدية العربية التى نأبى أن نعلن نبأ عودة الحياة إلى جثة الطفل انيت . لأن من العار عودة الرجال المعزين إلى بيوتهم قبل ان يسيروا فى الجنازة ويوروا الجثة التراب ! .. إن هذه الشهامة المتزجة بالقسوة والخشونة . تكسر حدتها وتهذبها تماماً .. عناصر أخرى ، أبرزها العنصر النسائى .. حرارة عاطفة المرأة .. الأم التى تنسب بالحياة .. حياة الأبناء التى تصنعها قيمة أعلى من كل القيم ..

واما الدرس : فيلخصه د. فكار بقوله : إننى أدعو بالألا يدفن ميت إلا بعد التأكد طيباً .. تأكيداً فعلياً بالكشف والتحصن . لا مجرد الممارسات الإجرائية الروتينية — فقد لوحظ فى إحدى ضواحي باريس .. عندما أرادوا إزالة إحدى المقابر من أيام الحرب العالمية الثانية ؛ أن أعداداً كثيرة من المقبورين فى الصناديق كانوا فى أوضاع تدل على أنهم كانوا أحياء أثناء الدفن ، وكانوا يحاولون عبثاً فتح الصناديق . والخروج إلى الحياة لولا اختناقهم داخلها ! .

.. تنتهى الجملة الاعتراضية .. ويعود د. رشدى فكار ليسرد أهم

منعطفات سيرة حياته .. ويقف عند حادثة أخرى لا تقل هولاً - صادفته وهو في عمر السابعة عشر .. فقد جمح به حصان فوقع على الأرض ، وارتطم جسده بشدة بإحدى الصخور فلزم الفراش ، ثم تطورت الأمور ، وأصيب بحمى التيفوس . ولم تفلح كل وسائل العلاج « الريفية » وراح في غيبوبة ، كما حدث في طقولته ، وكما كانت النجاة من قبل على يد شيخ هو فقيه القرية الذي جاء ليرتل القرآن الكريم . فقد جاءت هذه المرة على يد شيخ من أولياء الله الصالحين من العالم الآخر ، فقد رحل عن عالمنا منذ مئات السنين ، وقبره يعتبر أحد معالم ومزارات القرية . وتعلوه قبة .. وهذا الولي قطب من الأقطاب المعروفين بالصعيد واسمه « سيدى أبو عيزق » غاب الفتى عن الوعي وارتفعت حرارة الحمى ارتفاعاً شديداً ، وراح في سبات عميق ، فرأى فيما يرى النائم ، أنه أمام هذا الولي الذي رآه يزرع الأرض بالماء والخضرة ، ثم جذبته إليه ، فتردد وجلاً . ثم تشجع وذهب إليه يقترب منه ، وهنا اكتسى وجه سيدى أبو عيزق بابتسامة مريحة مشرقة ، وبدأ يكلم الفتى .. قال له : لقد فديناك .. ثم تشتم بالدعاء له ..

وكان أن أفاق من غيبوبته .. وروى الفتى رؤياه لأبيه !

« وعنا أيضاً يقف د . فكار ليطرح جملة اعتراضية أخرى قبل أن يمضى مع قطار العمر » ..

يقول : استجمعت كل شريط ذكريات باكورة العمر الشاقة المتواصلة الماضية وذلك في عام ١٩٧٣ أثناء المنافسة على مقعد أكاديمية العلوم الفرنسية .. كعضو مرشح مشارك « لعلوم ما وراء البحار » .. وقد حذرني بعض الأساتذة المساندين لى بأن الأصوات التى تساعدنى جد محدودة ، بينما منافسى تأكد فعلا من فوزه نظراً للأغلبية الساحقة من مسانديه ، وهنا حاولت محاولة أخيرة ، ومع من ؟ .. مع المساند الأكبر لمنافسى ، طلبت مقابلته ، ودار الحديث الذى يدير شريط مسيرة حياتى كلها .. وقلت له : لقد جئت إليك وأنا أعلم أنك وأنت عضو فى المجمع من كبار المساندين لمنافسى .. يا سيدى : إن منافسى هذا يبلغ من العمر ٦٩ عاماً ، ولقد ولد قطعاً فى أرقى مستشفيات أوروبا ، ولم ير طوال حياته إلا كل ألوان الحياة الاجتماعية

والاقتصادية المشجعة له ، أما أنا فقد وددت على الرمال ، وحتى يوم مولدى لم يُسجّل بالضبط ، ثم لم أر عبّر حياتى إلاّ كل السوائق ، ومع هذا فقد وصلت إليكم فى سن الأربعين ، فهناك إذن ٢٩ عاما توضع فى الحساب مع عوامل الإعاقة والتشجيع لى - ٢٩ عاما من الفوارق بينى وبين منافسى ، مع عوامل تشجيعه هو ، وإعاقتى أنا ..

وكانت النتيجة .. بعد هذه المداينة مذهلة لى ، ففى الغد حينما حان وقت القرار والحكم ، أصبح هذا الأستاذ الأكاديمى الكبير أكبر مساند لى ، .. ورجحت كفتى ودخلت إلى المنفذ وانتخبت بالإجماع وبالتزكية ..

وعودة إلى مسيرة الحياة .. لقد فهل رشدى فكار من مناهل الدين فى الأزهر ، ورغم ذلك إنتهى به المطاف إلى أن يكون أحد القلائل فى فهم أصول الماركسية .. كيف حدثت هذه النقلة ؛ وكيف اعتبر مفكرا إسلامياً رغمها ؟

يقول د. فكار فى كتابه « الماركسية والدين » : .. إن كان التخصص فى الماركسية كلفنا من العمر زهرته أعواما طويلا قاربت ربع القرن ، فالدين قد احتضننا فى طفولتنا وفتوننا . لنكون من رجاله ، فعرفنا مجاورة الأزهر الشريف ، وممراته وحصره ، وأروقتة ، وفقهائه ، وحفظنا القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم كأي طفل فى قرية مجهولة من قرى أمتنا العربية والإسلامية ، وعاصرنا أوراق الكتب الصفراء ، ومراجعتها تحت ظلال أضواء المنافذ الضيقة التى لا تسمح لدخول شعاع الشمس إلا بمقدار ، وجسدنا ملتصق بالأرض رمزا للصبر ، والإصرار .. فلسنا بغرباء على الدين ، ولا بمتطفلين على الماركسية التى عرفناها من جذورها الفكرية .. أما الدين فقد تقبلناه من منابعه بنظرة الإيمان قبل أن نواجهه بصرامة العقل الوضعى وعطاء الفلسفة الحديثة والمعاصرة النشطة .

« ولحديثه عن الماركسية والدين مقام آخر فى هذا الكتاب .. بعيداً عن سرد سيرته الذاتية التى نحن نمضى مع رحلتها الآن » ..

يقول د. فكار وهو يستعرض منعطفات حياته :

.. أثناء وجودى بباريس فى باكورة ارتباطى بها ، اتبانى ما ينتاب الشباب المهور بالحضارة الغربية الأوروبية .. نوع من التعلق بهذه الحضارة ، وخصوصاً الفرنسية منها إلى درجة أننى اعتقدت أن مكاني الحقيقي هو فرنسا ، وأننى ولدت لأعيش فى باريس ! ..

.. وبالفعل وجدت صعوبة كبيرة وحقيقية فى كيفية أن أتخلص من الارتباط بباريس .. لأن باريس هذه ليست باريسى أنا ولكنها باريس الآخرين .. !

ومسا زاد فى الأمر أننى مع الوقت استطعت إلى حد ما أن أندمج فى الحياة الفرنسية الاجتماعية والثقافية ؛ بل والحياة اليومية للفرنسى ، فلم أعد أشعر بأى اغتراب .

وفى مايو ١٩٥٦ حصلت من جامعة باريس على درجة الدكتوراه فى الفكر الاجتماعى الغربى وأثره فى الثقافة « الشرق أوسطية » ..

وفكرت أن أرحل عن باريس .. ذهبت إلى مدينة جنيف بسويسرا للحصول على درجة « دكتوراه دولة » أخرى .

وهنا حدثت واقعة لا أنساها أروها لشباب الأمة .. فرغم حصولى من باريس على ثلاث درجات دبلومات عليا ، ودرجة دكتوراه جامعية ، وظلت أحاضر فى السوربون لمدة عام ، جاءنى خطاب من مجلس الجامعة ، ومجلس الكلية ، مفاده أنه مع احترامهم للشهادات الفرنسية وعلى رأسها الدكتوراه فنظراً لأننى أطالب بالحصول على درجة دكتوراه الدولة مع الأستاذية والتأهيل من جامعة جنيف ، فإنهم يطلبون منى أن أحترم قانون الجامعة الذى ينص على أنه لا تمنح درجة « دكتوراه الدولة » مع الأستاذية إلا لمن يحصل على ليسانس من جامعة جنيف نفسها .

وبالطبع وقعت فى حيرة شديدة ودهشة أشد ، ولكن لم يفهرنى هذا الخطاب . فإن كان لى ما أعتز به حقيقة فهو الاعتزاز بالتواضع ، والافتداء

بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم من المهد إلى المهد » .. وما ورد في الأثر « اطلبوا العلم ولو في الصين » .

وفعلا قبلت ، وكان غريبا أن اجلس مع طلابي لأؤدى امتحانات المعادلة .. ولكننى لم أجد أن حالتى فريدة من نوعها ، بل وجدت حالات كثيرة مثلى ، لعلماء ، وكان أحدهم أستاذاً يشغل مقعدا في كلية الطب وجاء ليمتحن في معادلة الليسانس لأنه يريد أن يتعقد في تخصص آخر ويحصل فيه على درجة دكتوراه .. وقد كان .. وحصلت على درجتين للدكتوراه ودرجة أستاذية ، وثلاث دبلومات عليا ودرجتين لليسانس ..

ولقد دار بخلدى أثناء بعثة الحصول على كل هذه الدرجات لعلمية قيم ومبادئ ، ومثل رضعتي في وطنى مصر ، وما نبيل المطالب بالتسنى ، ولكن تؤخذ الدنيا غلابا » .. و « من غلب العلاء سهر الليالى » .. و « إذا كانت الأماني كبارا تعبت في حملها الأجساد » .

« امتحان آخر في الإرادة .. يروى حكايته د . رشدى فكار .. يرويها للشباب خاصة » ..

في فترة من الفترات طلب منى في جامعة السوربون أن أؤدى اختباراً في مادة تكميلية في قسم الدراسات العملية عن الأدب الفرنسى .. وكان من الممكن أن أسلك طريقا سهلا بقراءة ثلاثة مراجع بالإضافة إلى بعض النصوص ، ثم مواجهة لجنة الامتحان الشفهى — ولكنى قررت أن أدخل تحديا صعباً بأن أحفظ أجزاء كاملة من قاموس رويير اللغوى ، وأشكر الأزهر الشرف الذى يربى في طلابه ملكة الاستيعاب الكامل بالحفظ عن ظهر قلب ، بحفظ القرآن الكريم ..

وكان أن حفظت الجزء الأكبر من القاموس اللغوى الفرنسى ، وتقابلت مع لجنة المتحنيين ، وكان يرأسها أحد كبار مفكرى فرنسا آنذاك .. فقال لى :

.. هل لك أن تقول لنا شيئا عن الشاعر كورنيه ؟

.. قلت له : يا سيدى أنا لا أقول الشعر الميت ولكنى أقول الشعر
ذا الإيقاع ..

قال : قل ما تريد ..

فأنشدت أبياتا من شعر كورنيه بنوع من التجويد .

« إنى صغير .. هذا حق ، ولكن لا تقاس قدرة الإنسان بعدد أعوام
العمر » ..

قال : ندخل إلى فقه اللغة الفرنسية ..

فواجهته بالتحدى .. قلت له مجازفا : افتح قاموس رويير ، واختر أى
كلمة ، وأنا أقوم بتحديد مضمونها كما وردت بالقاموس تماما .. وسرد
معانيها لمتعددة ومستخرجاتها ..

.. فابتسم وقال : أخشى عليك من المجازفة ! .. فقلت له : لن أخيب
ظنك فريء يا سيدى .. ولكن كان بداخلى وساوس .. فربما وقع اختياره على
صفحة لم أحفظها .. ولكن كنت متأكداً أن الله لا يضيع أجر من أحسن
عملا .. فقد حفظت أغلب صفحات القاموس وعددها ستمائة صفحة ، ولذلك
فلن يخيب الله رجائى ..

وفتح המתحن لحسن الحظ صفحة من الصفحات التى حفظتها عن ظهر
قلب ، فأسمعت ما طيب خاطره تماماً ! .

* * *

(٢)

المؤلفات . . المنهج والغاية

مؤلفات د. رشدى فكار من كتب ودراسات تربو على ال ١٤٠ بين مؤلف وبحث ودراسة .. وقد ذكرت في بداية الكتاب أبرزها .. والقارىء العربى يجهل معظمها ، لأنها مكتوبة إما باللغة الفرنسية أساساً أو بالإنجليزية .. لذلك كان لابد من وقفة متأنية معه ليوضح الظروف والمنهج والغاية والأفكار التى تدور عموماً فى فلکها ، كجرعة سريعة ، قبل أن يحين أوان ترجمتها إلى اللغة العربية ..

بداية يقول د. فكار معكلاً غزارة مؤلفاته وتنوعها :

لابد لى من أن أترف بأن ظروف معيشتى الصعبة فى أوروبا جعلت من دراساتى ومؤلفاتى التى نشرتها مختلف مراكز البحث العلمى والمجلات العالمية المتخصصة كانت هى مصدر عيشى الشريف . وكان العمل فيها شافاً ومضنياً ، وكان لا يمر العام إلا وتشر لى أربع أو خمس دراسات فى مواقع متفرقة من العالم ، وإن كان لى نصيب من الشهرة فإن السبب يرجع إلى هذه الدراسات التى شملت حتى الفكر الاجتماعى الإيطالى والروسى ، ولى دراسة عن روسيا والظروف الاجتماعية التى هيات لثورتها . ودراسات عن اسكندنافيا أهلتنى لأن أكون عضواً فى جمعية استرمبرج التى تضم نخبة من المفكرين هناك ، وربما كان لذلك علاقة بالتعرف على من خلال دراساتى للجمع الإسكندنافى مقر جائزة نوبل والاحتكام فيها ، ولى دراسات عن الفكر الألمانى واليسار الهيجلى وعلاقته بالفكر الفرنسى ودراسات عن أمريكا اللاتينية ، وحركة الأرجنتين الشابية ، وانعكاسات الفكر الوضعى بالمكسيك ، ودراسات عن ارتداد الفكر الاشتراكى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ودراسة عن تجربة الأيكورى هناك لـ « كايه » وهى أول تجربة

شيوعية فشلت في الولايات المتحدة ، ودراسات عن ميغاويل والفكر
الوطني في أسبانيا ، ودراسات عن أثر الفكر التقدمي في الشرق ،
وانعكاسات المدرسة السانساينونية في الخلافة العثمانية ، وفي مصر
والجزائر والمغرب .. وبحوث في الاستمولوجيا والإطار المفاهيمي للمعرفة ،
وانتقلت جولانتي المنهجية من علوم وضعية ، إلى إطار ديني إلى فلسفة
إسلامية ، إلى سوسولوجيا اجتماعية ، إلى سيكلوجيا وسيطة ، وأول كتاب
صدر لي باللغة الفرنسية ظهر عام ١٩٥٥ في باريس عن دار النشر العالمية
أوريان ميزونيف ويعالج نظرية القلق والفرج بعد الشدة لدى مفكرى
الإسلام ، وكان هدفي فعلا أن أستمر في الدراسات السيكلوجية كعالم
نفسى ، ولكنى عدلت بعد أن أشبعت تطلعاتي المتواضعة في التعامل مع الظاهرة
النفسية ، وما تجسده من أهمية بالغة في فهم أبعاد الإنسان .

وعن المؤلفات الإسلامية .. خير كتاب أعتر به الكتاب الذى نشر في عدة
طبقات في باريس وهو كتاب « تأملات في الإسلام » وكان له والحمد لله
أثر في إسلام بعض الشخصيات المرموقة في الدول الإفريقية الناطقة
بالفرنسية ، وأعتر بهذا ، والكتاب عبارة عن تأملات فكرية عقلانية مبسطة
للغاية لطرح الإسلام من منطلق لماذا لم يعرف كما يجب في الغرب ؟ ثم تحديد
موقف الغرب من الإسلام عبر مسيرة التحدى التاريخى ، ولقد حاولت أن
أحدد كل العناصر الإنسانية في الإسلام لأطرح في النهاية نتيجة : هى أن
الإسلام هو الدين الذى لا يمكن التحفظ عليه ، لأنه لا يمكن أن يعنى
فيه .. وأن الإسلام هو الفكر الروحى القادر على أن يتعامل مع فكر مادى
في إطار من الإقناع بدون مجازفات عفوية .. أى يمكن لمفكر مؤمن ملتزم
بالمناهج المعاصرة الوضعية الصارمة أن يكون أكثر علمية وحجية من مفكر
مادى وضعى غير مؤمن قد يؤثر تعاطفه في مواقفه الفكرية على نتائجه ،
وبرهنت في هذا الكتاب على أن ليس ثمة عقيدة شاملة وعقيدة لا اعتراض
عليها ، وعقيدة عقلانية يمكن أن يؤمن بها إنسان مؤمن سوى الإسلام .

وأوضحت أن احترامى للعلم ، لا يعنى أن أعطيه الحق في أن
يفتى ويعطى مشروعية للدين ، لأن الدين أسمى من العلم ، ولا يمكن أن

ينزل إلى مستوى المضاربات المعملية والمخبرية لأنها مضاربات تتغير بتغير الأزمنة ، وبالتالي الصحيح وإن كن ولا بد هو أن يفتى العلم صلاحيته باسم الدين . لا أن يفتى في صلاحية الدين باسم العلم . بمعنى أن القضية معاكسة تماما . والدين له الحق في أن يتدخل ليقول للعلم : أنت علم بناء ومنفذ وصالح للإنسانية . وبذلك أعطي الحق أن تتجاز القرون القادمة .. أو يقول الدين للعلم : أيها العلم أنت علم التدمير ، وعلم التلوث والغديعة واستغلال الشعوب . لذلك فلتقف عند حدك . ولن أعطيك جواز المرور للمستقبل .

ولى دراسة عن الإسلام بين ادعيائه ودعائه .. يطرح ما يدور حول هذه المفاهيم ، وفي الواقع أن من يقرأ كل مؤلفاتي سواء الثقافية أو الاجتماعية أو السيكولوجية . أو حتى دراساتي عن الأثروبولوجية الاجتماعية عن زواهر السحر والتخاطر والتنويم .. احول أن أربط بين التحليل العنسي ومدى تعامله مع قدرة الإسلام العقلانية الدامغة .. ينبغي ما أمكن الانزول الإسلام أبداً عن ساحة المواجهة الفكرية ، ولكن بأسلوب فيه نوع من البساطة والاستيعاب . والإفصاح . بأكثر من أسلوب المشنج والمغلاة والافتعال .

من مؤلفاتي التي اعتر بها : معجم موسوعي عالمي في مجلدين من أربعة أجزاء ثمانية صفحة بالفرنسية والإنجليزية والعربية صدر لي في باريس منذ عامين عن دار النشر العالمية جنتر وهو عن السوسولوجيا والسيكولوجيا ، والأثروبولوجيا الاجتماعية ، وقد استغرق إعداد هذا المعجم الموسوعي سنوات من عمري ، وقد حاولت فيه أن أصحح إشكالية كبرى في علم الإنسان : فقد تناولت تخصصات أساسية في علم الإنسان لتحديد اغواره وبيئته وتراثه ، وهي « السوسولوجيا والأثروبولوجيا والسيكولوجيا » وهي المحاور الرئيسية التي يركز عليها الإنسان في معرفته ..

وما نلاحظه الآن في الساحة الفكرية العالمية مضاربة على المضامين . ويصعب على مجموعة بحث أن تتفق مع أخرى على مضمون ، وكل يكف وجهه نظره مع ما يتبعه من وراء المضمون . وبالتالي لو استشر هذا المسلسل فربما نصل في النهاية إلى اهتزاز لمضامين علم الإنسان .. لذلك لا بد من أن

تكون هناك أرضية مضامين واضحة ، وقد طرحت أرضية هذه المضامين على أساس أن أحدد كل مضمون من مضامين علم الإنسان في بيئته التي نشأ فيها وتطور ، ثم أواجهه بالبيئة الإسلامية ، لأن لي هدفاً مبدئياً من هذا المعجم ، وهو محاولة تحديد المضامين بالنسبة للمفكر العربي الإسلامي .. بمعنى أن أحدد المضمون عموماً في أرضيته ومعاناته وهمومه التاريخية . ثم أحاول أن أواجهه بالمضمون المعادل له في حضارتنا العربية الإسلامية ، ثم أحاول أن أقوم بعملية تخريج لمضمون مشترك يجمع بين أصالة الوجدان والانتماء لأرضيتي والتعامل مع مناهج وعطاء العصر أو الحضارة السائدة في الكون الآن ، وهي حضارة أوروبا .. والمحاولة كما يبدو شاقة جداً ولكنني اجتزتها بحمد الله وفضله ، وأعتقد أنني من الزاوية الإسلامية خرجت بنتيجة وهي أن كثيراً من المضامين الأوروبية التي أفرزتها الحضارة الغربية وهي الخاصة بعلم الإنسان من الأفضل أن تظل دائماً في مكانها ومن الصعب تصديرها ، لأنها جاءت نتيجة لهماوم معينة من الصعب أن تعمم على بقية البشر ، فمن غير المتصور أن تفرض المضامين الأوروبية على الآخرين نفس الهماوم ليصلوا إلى نفس الإفرازات ، وبالتالي تدخل إلى نفس المضامين .. فهذه عملية توليف حضارى ومسوخ لا أساس لها ..

.. فمثلاً بالنسبة للدين ، لو احتكنا إلى معجم المضامين الغربية سنجد أن الدين في مفهوم الأوروبي عبارة عن مضمون نشأ مع الأديرة ، ثم مر في عصور وسيطة مظلمة ميتافيزيقية غاصت به في ضباب التجريد واللاملموس ثم سقط على الأرض في العصر الحديث .. لم يستطع أن يقاوم العقلانية الغربية ، واستغنى عنه الأوروبي بفلسفة الإنسان ، بمعنى أن الدين مجرد مرحلة تاريخية عبرت .. ووجه من ناحية بالعلمانية ومن ناحية أخرى بالقوميات ، أو بالفلسفة الوضعية بمدارسها المتعددة من : وجودية ، وماركسية ، وتطورية .. المدارس التي تبحث من خلال فلسفة الإنسان ، لا من خلال فلسفة تعاليم السماء ..

هذه هي تجربة الدين لدى الغرب .. وقالوا إن الدين من خلال النسق

الكنسى ظل ألف عام يفتى في كل شيء ، وآن الأوان لأن يفتى عقل الإنسان .. وهذه هي مضامينهم ، لأن تلك كانت همومهم ..

فماذا عن مضاميننا نحن تجاه الدين ؟

ولو أردنا أن نحدد نحن مضمون الدين نجد العكس تماما هو الصحيح .. فبينما كان الدين بالنسبة لهم خلال تسلط الكنيسة عبارة عن ألف عام من الظلمات ، فإنها تساوى بالنسبة لنا ألف عام من الأنوار ..

فكيف أعمى عيناى بمضامين العير المخالفة المعاكسة ؟ ..

إن البعض وللأسف يقوم بعملية مسخ بطبع صورة طبق الأصل من فكر الغرب ، فيما أن الغرب تنكر للدين واعتبره مجرد وثيقة تاريخية ، ومرحلة من مراحل الزمن جاءت من التيار الليبرالى أو أيديولوجية استلاية تمارسها البنية الفوقية (الماركسية) ..

إن هذه قضيتهم ، وهذه همومهم التاريخية ، أما نحن فيشهد تاريخنا أننا حينما تنكرنا للدين ، عشنا فترات أصبحنا فيها شيعا وطوائف ، وبدأ بعضنا يضرب بعضا ، أما حينما كانت راية الدين مرتفعة كانت العلوم ، وكانت الفنون ، وكان العمران الإسلامى .. فكيف تنكر لكل هذا ، ونحدد للدين دورا كما حدده الغرب .. هذا مضمون الدين لديهم ، وهذا مضمون الدين لدينا فكيف نعطي مضمونا مشتركا حضاريا .. كان هذا مقصدى في معجمى الموسوعى فى علم الإنسان .. كان على أن أستبعد الخصائص السلبية ، وأرتكز على الخصائص الإيجابية ، وبما أننى أطرح المضمون من منطلق التعامل الإسلامى ، فإننى أعطى أولوية مطلقة للدين من خلال رؤيتى ، ومع ذلك فأنا لا أنكر أبدا أن لهم رأيا آخر يعينهم ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم يحتكرون ويفرضون ، ونحن لا نفرض من جانبنا كذلك .. ذلك لأن عظمة الإسلام أملت علينا مبدأ الحوار وقدراته ، ومن ثم قبول الرأى الآخر .

(٣)

الدين والأيدولوجية الماركسية والعلمانية الغربية . .

في طفولته وصباه ، وفتوته وشبابه .. كان الأزهر الشريف ومنابعه الإسلامية الصافية هي المنهل الذي نهل منه رشدي فكار ، وفي أوروبا أنفق ربع قرن من عمره في دراسة أصول الماركسية والفلسفات الوضعية على اختلاف ألوانها ، وأخضع عقله نصرامة المنهج العلمي في تجرد كامل إلا الرغبة في إكتشاف الحقيقة .. فتوصل إلى عملاقة الإسلام ، وقومية كل أفكار البشر الوضعية .. رغم انبهاره بالحضارة الأوروبية العلمية التي وطئت تراب القمر ، ولمست الكواكب الشمسية ، وحينما أعلن إعجابه بحضارة الغرب العلمية ، راقب عن كثب محاولة الغرب أن يصدر للعالم مقولة : أن علومهم الاجتماعية والفلسفية - أي علوم الإنسان - قد تفوقت أيضاً كما تفوقت علومهم العلمية التجريبية ، وبذلك قاموا بتصدير مضامين قيمهم الاجتماعية والثقافية والفلسفية إلى العالم .. فتخطت البشرية ورزحت في شراقة هموم ليست همومها ، وقيم ليست قيمها .. وهنا كشف د. فكار هذا الالتباس الفكري الناظر من الغرب ، وتابعه بهدف تعرية هذا التغميض المبيت ..

● كيف تواجهت هذه التوليفة الفكرية المتناقضة : الدين . . الماركسية . . العلمانية في راس د. فكار ، وكيف أعلى راية الإسلام في الساحة الفكرية العالمية ، ولم ينجرّف مع بحر غسيل العقول الذي أطاح بعقول أدارت مقاليد الفكر في بلادنا ووجهتها بعيدا عن الإسلام في فلك العلمانية الأوروبية ؟ . .

يقول د. رشدي فكار : كثيرون يتساءلون .. كيف تتعشق في الماركسية ، ولا ترتد عن الدين ؟ ، وأقول : لو أن الارتداد تم على مستوانا ، وتمكن ماركس وما حوله من إطار فلسفي نشط من أن يقنعا

بالتخلي عن الدين لما تراجعنا عن إعلان ذلك ، ولكننا اكتشفنا أن الارتداد تم عند ماركس نفسه ، وعلى لسانه ، فبعد الرفض عاد بالدين إلى الحوار .. وعليه فالأمانة العلمية تدفعنا بكل موضوعية إلى إعلان ارتداد ماركس ، وهذا ما دفعنا إلى وضع الدراسة المعروفة عن « الارتداد الماركسي » .. وعندما يتناول مفكر إسلامي عربي واع مثل د. فكار فكر كارل ماركس فهو يتناوله كشريحة خرجت إلى العالم بنظرية اجتماعية وسياسية خطيرة لها مسارات معينة منها الرفض للدين ، لا رفضاً فلسفياً ، ولكن رفضاً سياسياً لدوره في بنيات المجتمع .. حث وصفه ماركس بأنه دور سلبي وقف إلى جانب المستغل ، وكما يضعه في الصدارة بين الأيديولوجيات « الاستلاية » المشكلة للبنية الفوقية للمجتمع التي تمارسها طبقة معينة كمخدر تبريري .. طارحا بهذا قضية موقف الماركسية الأولى من الدين .. وهو الشيء الذي طبقته بحذافيره تلك الدول التي تمركت .. فروسيا الاستالينية طردت الرهبان والقساوسة ، وهدمت الكنائس ، وأباح ستالين التقيض الآخر من الدين ، وهو الإلحاد في التدريس .. وخلال الحرب الألمانية الروسية واجه ستالين مشكلة مصيرية غاية في الأهمية ، وهي : أى جزء للروسي الذي يقف في الحرب إذا كان لا يحساب ، ولا ثواب ، ولا عقاب ؟ وأي ثواب لروسي يتاجر بروسيته ؟ ومن يدافع عن ماذا ، وعن من ؟ .

.. وإزاء هذا التخاذل الخطير تراجع ستالين فرفع الاضطهاد عن رجال الدين ، وأغلق المعركة مع الدين . وردد العبارة التي تقول : إن مسألة الدين غير مطروحة في الأيديولوجية الماركسية .. وبرغم ذلك فإن الماركسية المعاصرة مازالت ترفض الدين ، وذلك برغم ارتداد كارل ماركس عن الإلحاد .. وهنا تكمن خطورة ما يطرحه د. فكار في الساحة الفكرية العربية ، ويمكن في أن ارتداد ماركس يهدم البنيان الوهمي المسمى بالماركسية ، ويخلص إلى حقيقة أساسية ، وهي أن الفكر العربي لكي يكون في خدمة الإنسان العربي يجب أن يعيد ما لديه على مستويات ثلاثة :

المستوى الأول : مدى معرفته بأصالة تراثه ، وعظائه الإسلامي ، ولا يكتفى بتكرار رؤوس الموضوعات .

والمستوى الثانى : البعد عن المجازفة بالشعارات المذهبية التى هى مجرد أنماط للزينة ، وتعبئة كلامية .

والمستوى الثالث : معرفة الواقع العربى المعاصر كما هو أولا - لا كما يجب أن يكون ، هكذا يعبر د. فكار عن فكره فى كتابه : الماركسية والدين .. وعندما يتحدث د. فكار عن أزمة الحضارة .. يرى أن هذه الحضارة حضارة الأشياء ، الإنسان فيها حيوان تجارب للحضارات كما فى المجلد الخامس من نظرية « السان سيمونية والمراهنة الصناعية » . والذى يحمل عنوان : « الصناعة وأزمة الحضارة » .

ولكن ما هو البديل حتى لا يظل إنسان كوكب الأرض حيوان تجارب للحضارات ؟ .

إن البديل كما يتصوره د. فكار يستمد مقومات حياته من الدين ، من تعاليم السماء بل ويذهب إلى أبعد من هذا ، إذ يرى أن الإنسان العربى بعد حرب رمضان (١٩٧٣) أمامه فرصة تاريخية لكى يكون له نصيب فى وراثة الحضارة ، ويؤكد هذا بعض علماء العالم الذين التقى بهم د. فكار وتحذثوا إليه عن معركة نصر رمضان التى يرى هو فيها أنها معجزة حضارية بعد بناء الأهرامات لأن الإنسان المصرى والعربى غير المتقدم فى كل شىء قد تفوق على نفسه وهزم أعظم قوة عسكرية منتمية لحضارة أوروبا ..

كما أن الإنسان العربى حقق المعجزة وليس السلاح . كما يرى أن الإنسان العربى إنسان استهلاكى تسيره المصانع . وما تنتجه من مواد كمالية ، فى حين أن الإنسان العربى عصير حضارى متدفق بصفة دائمة وتناج أمة هى مزيج من المادة والروح ..

وعندما يتساءل ما هو موقف الأمة العربية والاسلامية من تركة الحضارة ، يجيب بأن هذه الأمة يجب أن تشكل قوة كبرى ضاربة تؤهلها للمساهمة فى وراثة الحضارة ، وهى مطالبة بتجاوز تناقضاتها النوعية ، وصراعاتها ، وذلك بتجاوزة القوالب السياسية والانطلاق من زاوية واحدة ، هى راية الله ...

وهو عندما يصل إلى هذه النقطة يتساءل : ولم لا ؟؟ ألسنا خير أمة
أُخرجت للناس ؟ .. وشراعه الفكرى الذى يتحدى به وسط أنواء
الأيدولوجيات هو أول كتاب تفتحت عيناه عليه وهو القرآن الكريم ،
وهو الزاد الوحيد الباقى الأصيل الخالد أبدا .

والعلمانية الغربية التى تعشش فى رؤوس قمم فكرية فى عالمنا العربى
والإسلامى .. ما هى ؟ وكيف نواجهها ؟ .

يقول د. فكار : إن العلمانية لو طرحناها بموضوعية نجد أنها جاءت
من الغرب كردود أفعال لما حدث هناك .. ومن هذه الزاوية كانت معطاة ،
ولا يمكن أن ينكر أحد أنها كانت معطاة بالنسبة للمجتمعات الغربية ،
وما صاحبها ، لأنه من الصعب التمييز ووضع فوارق بين العلمانية وحركات
القومية الأوروبية الحديثة ، فهناك مسلسل تاريخى واع تم فى الغرب ، ونتائجه
ما نراه الآن من تقدم علمى ، ومن تطبيقات صناعية وتكنولوجية ، وهذا
ما يؤكد أن النتيجة كانت إلى حد ما إيجابية ..

أما أن تأتى إلى القول بأن هذه العلمانية التى وصلت وحققت هذه
النتائج فى الغرب وأسبغت عليه ثوبا براقا ، وبذلك علينا أن نرتديه هنا .
نقول : لا .. كل يفصل ثوبه وفقا لمقاسه ، وهنا تأتى المشكلة وهى : هل
المجتمعات الإسلامية فى حاجة فعلا إلى تصحيح علمانى ، أم أن العلمانية
بمعنى الوعى بحقيقة المجتمع الدنيوى لازمت الأمة الإسلامية منذ الخطوات
الأولى ؟

فى راي د. فكار : أن العلمانية التى نبحت عنها فى القرن العشرين هى
أساسا مصاحبة لتطور المجتمع الإسلامى منذ البداية ..

إن الإسلام لم يَخْلُق لنا مجتمعا مزدوجا .. لم يخلق لنا مدنية فى السماء
ومدنية فى الأرض ، مدنية الله ، ومدنية الإنسان ، وإنما خلق لنا مجتمعا
دنيويا .. هذا المجتمع الدنيوى ما هو إلا طريق إلى مجتمع أخروى ، وأن
المجتمع الدنيوى مرتبط بالمجتمع الأخروى ، فهذا الربط العضوى بين

العلماني ، أي حصر الدين وحصاره عن السيادة على الأمور الدينية ، وبين الأخرى ، وبين ما هو مجرد ، وما هو غيبي ، جعل الحضور الدنيوي في الإسلام من أول دعواته ، فهو ليس بجديد عليه ، فلا أعتقد أننا في حاجة إلى علمانية ، بينما أن المجتمع الإسلامي لم يترك أي أمر من أمور الدنيا ، ولم يعط للدين أي إطار احتكاري ، بل جعل كل مسلم مسئول عن وزره وكل مسلم له ما كسب وعليه ما اكتسب .

فهناك تحول للمسئولية ، ومبدأ إدانة دائم ، ولا يمكن أن يلتقى به خارج إطار المجتمع ، ثم يلغى لكي يتحرك المجتمع ، فهو موجود في المجتمع ..
.. من هذه الزاوية أعتقد أن قضية العلمانية بالمفهوم الغربي غير مطروحة للمرة في المجتمع الإسلامي .. إن المجتمع الإسلامي ليس في حاجة إلى تلقي الدروس من الآخرين ، خصوصا وأنه له باع طويل في هذا الموضوع .

● **وعن موقف الإنسان المسلم المعاصر من الحاضر والمستقبل يقول د. فكار :** الإنسان في الثمانينات من القرن العشرين لم يعد يكتفى الآن بأن ينظر إلى الأرض التي يتحرك فوقها ، ولم يعد يكتفى بأن يتطلع إلى السماء والفضاء تطلع المسائل ، وإنما بدأ فعلا يتحرك في الفضاء محاولا أن يفهم ما يحيط به ، وأن يكتشف ولو نسبيا سر هذا الكون ..

تساؤلات لم تطرح على ابن القرن التاسع عشر ، أو ما مضى من القرون ، فمن المعروف أن هذا الكون بعد فترة النبوة الخالدة ، وهي التي حاولت أن تعطى انطلاقا من حوار مع السماء بمفاهيم عامة وأصيلة تعطى لهذا الإنسان طمأنينة وشعورا بأنه ليس باليتيم في هذا الكون وأن هناك قوة رحيمة ، قوة عظوفة ، قوة رحمانية تحاول دائما أن ترعاه ، وبالتالي لم يعد الإنسان خصوصا الإنسان المؤمن يهاب الكون ، لأنه يعلم أن هذا الكون رغم ما فيه من خضم ، ورغم هذا الجبروت الهائل ، فهناك الإله الذي يقبض على هذا الكون ، ويضمن مسيرة التعادل والعدل فيه ..

انتهت فترة النبوة ، والفلاسفة بدورهم طرحوا تساؤلات ما هي إلا امتداد لما حول وحى النبوة ، وهي اقتناعات كبرى ضمنت لهذا الإنسان

تعادلا نفسيا حتى فترة قريبة . حتى عصرنا هذا نجد أن التعادل بغض النظر عن كل الأخطار والمواقف الأخرى . التعادل النفسى مرجعه الحق فى النهاية أن الإنسان مهما كانت إرادته ، ومهما كانت عزيمته ومواجهته . هناك قوة واعية وكاملة وقادرة هى التى تحرك هذا الكون ..

جاء عصر الفضاء ، وبدأ الإنسان يتجاوز فضول التطلع والنامل . ولم يعد يكتفى . وإنما يقول : ولماذا ، وماذا وراء هذا الفضاء ، وما هى القدرات الكامنة والخفية التى تحرك هذا الكون ؟؟ .. إنه الاستكشاف والفضول والتعرف على ما يسكن أن نسيه بالثقوب المظلمة فى المعرفة الغيبية . أو ما يطلق عليه : نظرية الجهالة .. لم يعد الإنسان يتق عند هذا الحد ، وإنما لابد أن يرى ويعايش ويلس كل ما يحيط به .. وبالتالي بدأت تجربة العلم تدخل إلى الميدان .. وهنا جاء تساؤل كبير : هل ذلك لكى يكمل ما جاء به الوحي بالنسبة للرسول والأنبياء ، وما تفلسف حوله وتسطق الحكماء ، أم أنه يشق طريقا آخر يختلف تماما ؟؟ .

طريقاً بديلاً معترضا ومتجرداً على كل ما قدم فى تاريخ البشرية ؟؟

تساؤلات تطرح الآن فى القرن العشرين . ونحن نعيش فى مخاضات واختيارات ، بل ربما مجازفات قد تقوده فى النهاية إلى إشراق وإلى ثقة كاملة فى عطاء الإنسان ، ولكن فى حضور الله ورعايته ، وربما كما يتخوف البعض قد تقود المجازفة إلى خطأ فى الحسابت يؤدى إلى كارثة لهذا الكون .. بمعنى شهية الفكر ، وشهية التجريب ، وشهية المضاربة الهائلة على مسيرة الكون .. بدأت تأخذ مكانة الصدارة لدى فريق من الباحثين فى إطار العلم ..

وفى تصور د. فكار أن وحي الأنبياء . وحكمة السلافة وتجارب العلماء كل متكامل ، وإنما الوسائل مختلفة : فإذا كانت وسيلة النبى والرسول الخالدة هى الشفافية والتسامى والتعالى عن البحث فى الجزئيات ، وطرح حلول شسولية عن طريق الوحي للكون لإنقاذ خلق الله وتوجيههم إلى الطريق السليم المستقيم ، حتى لا يكونوا من الضالين ، فإن الفيلسوف بحكمته

حاول أن يتكامل ، خصوصاً في نطاق الفلسفة الخلافة والأصيلة بتأملات في هذا الكون ليؤكد من ناحية ، أن الإنسان لا يتسامى بفضل ولا بتحديه ، وإنما يتسامى بترفعه ، وبقدر ما يترفع الإنسان ، ويتخلى عن حيوانيته ، ويعطى لإطاره المشاعري أولوية على إطاره الغرائزي ، ويسمو بمصالحة لكي تستأنس ، وتتحول إلى مبادئ أخلاقية كبرى ، ولكي تندمج في معنويات تجعل كل إنسان حريص على الإنسان الآخر ، يعتبر هذا كله ترجمة بطريقة الفيلسوف لمسيرة النبي في مرحلة تالية أو موازية أو سابقة ..

والعلم بدوره .. العلم المعطاء لاستمرار مسيرة الإنسان - المفروض أن يتكامل مع رسالة النبي وحكمة الفيلسوف - فلا يحاول أن يدمر البشرية باسم إصلاحها ، وحمايتها .. تحميها من من .. أمن ذاتها ؟ !

هنا المشكلة .. إننا نجد أن العلم قسمان : علم يحاول التخفيف من آلام الإنسان لا بطريقة الفيلسوف وإنما بطريقة التجريب كالعلوم الطبية والمفيدة للإنسان ، ونجد أن هناك فريقاً آخر من العلماء ، لا نقول : الضالين ولكن المخطئين : يستغل باسم الفضول العلى وباسم القدرات العملاقة في الفكر الإنساني هذه الناحية ليضارب على الجانب المدمر في العلم ، وهذا ما أكدته اللقاء الدولي لمجموعة الحاصلين على جوائز « نوبل » بباريس أخيراً والاعتقاد السائد أن في هذا إعادة صياغة في مسيرة الكون .. وغاب عن هؤلاء أن القوانين العلمية في الطبيعة أكثر انضباطاً مما يتصورون ، لقد أكدت الكثير من التجارب التي تجرى أن قوانين الطبيعة رغم بساطتها في منتهى الدقة ..

مثال على ذلك .. ما نراه الآن في حركة عمران في العالم .. العالم يتحرك الآن .. عمران .. عمران .. عمران . وإذا الطبيعة تقول لهم : تلوث .. تلوث .. تلوث !

العالم يقول : استشفاء ومداواة للجسد ، والعلم باسم التجارة الصيدلية لا باسم العلم الصيدلي يقول : أدوية .. أدوية .. أدوية .. لكل مرض مئات الأدوية ، والطبيعة تقول لهم : سموم .. سموم .. سموم :

ناتى لقانون آخر : الطبيعة بكل قوانينها الحكيمة الرحيمة البسيطة
التي ترتبط بقانون الله الأمثل تقول : أبها الإنسان كن واضحا في قيمك ..
كن واضحا في مبادئك الأخلاقية .. لا تحاول أن تزايد كثيراً .. خفف من
النفاق والغش والزيف .. فإذا به يقول : التكتيك والاستراتيجية ؛
ويبتكر تعريفات وتعبيرات لكي يخرج على القوانين الطبيعة الخالدة التي
صنعها الخالق جل جلاله ، وإذا به يكتشف أنه هو راح ضحية لعشه ومكره
ودهائه ! .

* * *

(٤)

أزمة الحضارة الغربية . . القرن العشرون قرن بلا قلب

● د. رشدى فكار اللصيق والمتابع بكليته لما يجرى على الساحة الفكرية الأوروبية . . هل يحدد لنا ما يشغل الغرب اليوم فكريا ؟

أمور كثيرة تشغل الغرب الآن .. هناك مثلا أزمة الفكر المادى .. وهى تلاحظ بوضوح فى الفترة الأخيرة .. لا أقول ذلك طعنا أو قدحا فى أصالة هذا الفكر .. إن كل فكر فى تصورى يعبر عن اتجاه إنسانى معين ، لكن ذلك لا يمنعنى من القول بأن الفكر المادى يعانى أزمته الحقيقية الآن كمحصلة لتعدد التيارات داخله ، وسقوط الموقف الأحادى ، وأعنى بالموقف الأحادى الموقف الواحد الذى إذا طرح قال الجميع : آمين ..

إن هناك الآن تعددا واختيارات فى إطار الفكر المادى والوضعى بصفة عامة .. كذلك فإن أزمة الفيلسوف « التوسير » تلقى بظلالها على الفكر المادى .. إن التوسير يعتبر فيلسوفاً رائداً من فلاسفة الفكر المادى الماركسى فى الغرب كما يعتبر أيديولوجيا من كبار المنظرين ، وهو بالإضافة إلى ذلك صاحب مؤلفات فى التراث الماركسى دفاعاً عن ماركس ، ومادية التاريخ .. هذا الفيلسوف المادى قتل زوجته خنقاً ، مما أثار علامات استفهام كثيرة وكبيرة ..

وتفسير ذلك فى تصورى يتلخص فيما يلى :

إن المفكر — عندما تغلو به السن ، ويصل إلى قمة التجريب والاستيعاب كثيراً ما يجد ويدرك أن التساؤلات التى طرحها فى شبابه بشيء من المجازفة والجرأة والجرأت قد بقيت بلا إجابة !

إن افتقار هذه الإجابات تضع المفكر أمام باب مسدود !

هنا يتعرض المفكر لتأزم نفسى شديد قد يدفعه إلى الجريمة !
وهنا أيضاً ، وفي مثل هذه الحالة يختلف موقف ومصير المفكر المادى
عن موقف ومصير المفكر الروحى ..

إن المفكر المادى يواجه مصيره بذاته مما يقوده كما قلت إلى التأزم
النفسى .

أما المفكر الروحى الذى يقترب من الأفول والغروب فلا يدفعه افتقار
الإجابة على تساؤلات طرحها من قبل إلى أية أزمت نفسية ، ذلك أن قناعاته
الروحية التى تربط مصير هذه الدنيا بمصير أسمى وأخلد تخلق داخله تعادلا
ضمنياً .. إن المواجهة لديه غير مطروحة ..

هناك مجهود بذل ، هناك اجتهاد فكرى تم .. هناك محاولات اجريت
قد تكون صائبة وقد تكون خاطئة ، ولكن ليست هى البداية أو النهاية !

وفى الغرب الآن ثمة اهتمامات واضحة بالدراسات الإنسانية ، وبطرح
القلق السائد فى المجتمع البشرى ، وبطرح ما يسمى بأزمة ضمير القرن
العشرين . إنهم يسمون القرن العشرين فى أوروبا قرناً بلا قلب ، قرناً
بلا عاطفة ، قرناً بلا اتماء ، ذلك أن من الصعب أن تكون الصناعة
والتكنولوجيا اتماءات !

إن ثمة اتفاقاً فى الغرب الأوروبى على أن أحدا لا ينكر ما للحضرة
والتقدم والتكنولوجيا والصناعة من قدرة على الخلق والإبداع . ولكن
التساؤل الكبير الذى يطرح على الساحة الأوروبية الآن هو : أين الإنسان
من هذا كله ؟ .. إن كل ذلك يتم على حساب الإنسان ! الإنسان هو
الضائع .. الإنسان هو الغائب .. العلم يتقدم .. التكنولوجيا تتقدم : كل
شئ ينطلق ويقطع ، والإنسان يدفع لثمن . ويعيش فى الموجة الحائرة ،
أين الإنسان مما أبدع ومما اخترع ومما ابتكر !

لقد تأثرت بتلك التيارات الفكرية الدراسات الإنسانية فى أوروبا فبدأت
الفلسفة تخفف من حدة التطلعات التأملية ، والإشراق التجريدى لتتنزل إلى

مستوى الممارسة والاحتراف زوجدت الفلسفة البراكسية أو النشيطة : أى
الفلسفة التى تحاول أن تربط بالملسوس أو الواقع . وأصبحت الإضارات
الفلسفية المعاصرة محصلة طبيعية لاستمرار الغيبان والعبث والإنسان
دى البعد الواحد وكل الإضارات الفلسفية المعاصرة من سارت إلى كاهى إلى
ماركوس تعبر عن الإنسان والصريق المسدود ..

لكن الماركسية فلسفة أوروبية أيضا فهل وصلت إلى نفس الطريق
المسدود أم ظلت على بريقتها القديم ؟

احب أن أفرق - يقول د. فكار - بين الماركسية الفكرانية والماركسية
النظومية ..

هناك ماركسية تحاول ان تتبلور حول الفكر ، وأخرى تتبلور حول
النظام .. الماركسية كنظام تهم السياسيين لأنها تدخل في اطار التكتيك
والاستراتيجية ، والأخذ والعطاء .. أما الماركسية كفلسفة ، كمجرد اطار فكرى
يحاول ان يطرح الحل للأمثل فتعانى الآن بالفعل أزمة شروح باعتراف الماركسيين
انفسهم ! ..

جارودى مثلا يرى أن الحل الوحيد للأزمة هو تجاوز الأزمة بطرح
الحوار مع الفكر الميتافيزيقى والروحي .. لقد مد جارودى يده للكنيسة
ليحاول أن يرى فقط الوفاق بين الماركسية والكنيسة . ولم تأت التجربة
بنتيجة فى الغرب !

كذلك فإن تخطى الأحزاب الشيوعية فى إيطاليا وأسبانيا عن أساسيات
الماركسية كديكتاتورية البروليتاريا والصراع الطبقي يوضح أن هناك
أزمة شروح تعانى منها الماركسية كفلسفة أو إطار فكرى .. إن هناك اتجاهها
قويا إلى تعدد الماركسية بدلا من أحادية الفكر الماركسى كما كان أيام
ستالين .. إن ما يعمق مفهوم الأزمة التى تعانى منها الماركسية الآن كفكر
أن التكنولوجيا والتصنيع ومتطلبات الحياة اليومية على المستوى
الاستهلاكي والتضخم الكونى وأزمة الطاقة كل ذلك حول الموقف
الأيديولوجى من موقف إنطلاقى إلى موقف تبريرى !

كان الأيديولوجى فى الماضى يشرع ويفكر ويقنع بتفكيره . وعلى ضوء

ذلك الفكر كان المجتمع يحدد مسيرته - أما الآن فإن المجتمع هو الذى يتخذ قراره بنفسه ثم دور الأيديولوجى ليبرر هذا القرار .

إن المجتمعات الصناعية تعاني فعلا ، وليس من الخطأ أن نجسد الأزمة فى الفكر ، ولنعترف بأنها تستل حضارة غربية ، بأنها حضارة علم ، هى حضارة تكنولوجية ، حضارة الأشياء .

وسائل تطبيق التقنيات فى الصناعة تعتمد على توزيع العمل وتقسيمه ، وعطاء الإنسان الغربى ما هو إلا انعكاس للبناء الفكرى المتمثل فى نظريات القرن التاسع عشر ، وهو بذلك لا يفعل سوى أنه يجتر ذاته ، والاندفاع الهائلة لحضارة اليوم الغربية .. حضارة التكنولوجيا التى تقدم الأشياء على حساب الإنسان ، إنما تأخذ مجراها على حساب نالوث القيم وهى القيم المعنوية الأثيكية السامية ، ثم القيم الطبائعية السلوكية . أى أن الإنسان فى إطار أصالته لديه المعالم الروحية وهى كات إطار أصالة خلال قرون طويلة من تاريخ الإنسانية ، وضمت للإنسان تعادلا وتوازنا بشكل ما بين غرائزه وعواطفه ومصالحه ، ثم مع التحفظ على هذا الإطار القيمى الروحى الذى كثيراً ما اعتمدت عليه القيم المعنوية فى حد ذاتها ، أى قيم تأصيل إنسانية الإنسان ، القيم المعنوية : المثل . الشرف . الكرامة . العزة . الأصالة . النخوة . الفروسية ، وبدورها انعكست فى الإحار الثالث للقيم ، وهى القيم الضابعية السلوكية ، بمعنى المعاملة اليومية ..

فغية هذا التالوث إلى حد ما انعكس على تفريغ الإنسان من محتواه المميز لينزل به إلى مجرد آلة تبحث عن الإشباع والرفاهية والرخاء المتحكم ، فيما يسمى حالياً ، وتعبير اليوم : المجتمعات الاستهلاكية . أى مجتمعات الإشباع للحجيات الإنسانية ، وهذا بدوره انعكس على البنيت الأسرية ، ولم يعد هناك معيار يحتكم إليه فى العلاقة بين تبادل الإشباع والمصلحة وأصبح الإنسان تقاس قيمته بما يمتلك من وسائل الإشباع ، لا بما يملك من مبادئ وقيم .. وهذا نوع معين من الإندفاع الحضارى الذى تم فى غية الإنسان ، مع أن منطلق الإندفاع فى القرن التاسع عشر لما نراه اليوم مع جذوره السابقة الحياة من مطلع العصر الحديث كان يهدف إلى الإنسان : بل

بالعكس ، من المعروف أن فلسفة الإنسان حينما طرحت في العصر الحديث حاولت أن تنطلق مما يمكن أن نسميه بفلسفة الأرض في مواجهة حوار السماء ، ولكن « تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن » .

الذي حدث أن هذا الإنسان الذي أعلن في نهاية العصور الوسيطة أن مسيرته التجريدية عبر التأمل في السماء قادته إلى اليأس ، هكذا اعتقد ، فإذا به حينما فلسف الأرض قاده هذا إلى التدمير - « جاء يكحلها عماها » - بدلا من أن يعطى بصيصا من النور أعطى الظلمات .

إنني أرى أن الفلسفة المعاصرة من وجودية إلى تطورية إلى ماركسية إلى بنيوية وظيفية تحاول أن تطرح الإنسان من خلال الإنسان ، إلا أن النتائج التي أعطتها مجتمعات القرن العشرين لا تجسد فقط أزمة هذا الإنسان الباحث عن ذاتيته ، وإنما يشعر في كل سيره وفي كل مراحلها أنه أمام بعد واحد ، ولا أقول طريق مسدود ، ولعل « هيدجرت » رائد فلاسفة القرن ال ٢٠ الذي مات منذ سنوات قريبة خير من جسد هذا الطريق المسدود في نظريته التي تحمل عنوان الطريق الذي لا يؤدي إلى أى مكان ، ولقد كان « هيدجرت » نزيها وصارما في نفس الوقت في تحديده لغاية الطريق ..



● حضارة الغرب وحضارة الأمم الفتية :

إن الدول المتقدمة متقدمة فقط في الوسائل ، بينما جوهر التقدم هو عطاء الطبيعة ، وعطاء الإنسان ، والدول الفتية تتميز بهذين العطاءين .. ففيها موادها الأولية ، وكثافتها الديمجرافية « السكانية » وشبابها .. نعم لديها طبيعة معطاءة ، وإنسان يتحمل المشاق ، ويتطلع إلى مدارج الطموح ، وأبناء الدول الفتية أكثر قدرة من أبناء الدول المتقدمة لامتناس التكنولوجيا ، وأكثر قدرة وصبرا على ممارسة البحث العلمى لأنهم يشعرون بالنقص ، وبالتالي يصرون على التفوق ، وإثبات الذات ، إن الأب المصرى حينما تسأله عن آماله بالنسبة لأولاده تجده يتمنى لهم أن يكون كل منهم دكتوراً أو مستشاراً أو مهندساً أو وزيراً ..

المجتمعات الفنية لديها جوهر التقدم . بينما المجتمعات المتقدمة تحيا على حساب الآخرين ، على حساب الدول المتخلفة . وتستلب من شعوبها عطاء الطبيعة وعطاء الإنسان على حد سواء ، تستولى على العقول المهاجرة . والأيدى الماهرة ؛ تأخذ منها المحتوى وتصدر إليها الحاجة والضرورة والعري . تأخذ المادة الأولية باسم التصنيع وتصدرها لها ليدفع المستهلك .. عملية في غاية الدهاء . وكما يقول المثل : « رمثني بدائها وانسلت » ، ماذا لا نقوم نحن بذلك ؟ لأن من يسلك وسائل التقدم يمتلك الحيلة ، أو المنهج ؛ يمتلك التنسيق بين عطاء العقل والأرض .. هذا هو دأب الدول المتقدمة التي تسلمها الحضارة الغربية . وأنا لا أعزل بين النظام الليبرالي والماركسي . كلاهما غرب متسلط ؛ إن « ماكس فيبر » فيلسوف الليبرالية . وكارل ماركس مؤسس الماركسية كلاهما خرج من تحت عباءة ألمانية واحدة ؛ وهما يشلان حضارة غربية واحدة ..

أما الرجل الثالث المجهول فهو الصيني ، ومن الصعب على أي عالم مستقبلي النزعة أن يغفل عما ستؤول إليه قوى الدول الفنية ومن بينهم الصين . وإنني أعتقد أن الأمتين المرشحتين لصنع حضارة القرن الـ ٢١ . وهما قوى الغد : هما الصين والأمة الإسلامية . والقوى الكبرى ندرك ذلك . وتعمل على استنزاف هذه القوى الفنية بكل سبيل ..

وأمتنا بإمكانها أن تتبوا مكان لصدارة في القرن الـ ٢١ إذا استماعت أن تتجاوز متناقضاتها ؛ وتحفظ بأكبر قدر ممكن من عطاء الطبيعة ؛ وهي تناقضات تعتمل داخل جسد فائر . وإذا وضعت في حسابها أن اشكاليات اليوم عبور إلى الغد . وانها مستهدفة من القوى الكبرى بهذه الإشكالات لكي تتوعك يسكنها أن تدرك الحقائق وتعتبر .. إنني أدعو إلى الاحتفاظ بالقوى ، وتجاوز المتناقضات لتدخل الأمة العربية إلى القرن الواحد والعشرين . وتحلل مع الصين مكان الصدارة .

ومن الإشكالات المفروضة على الإنسان العربي بهدف أن يتوعك عقليا وفكرياً ومادياً ؛ ولا يفكر في غده . ، لإشكال الإسرائيلي ؛ الذي يهدف إلى

ان يياس الإنسان العربى من قدرته الذاتية ويهدف إلى إعافة عبقريته ..
يكفى أن تطرح قضية ثلاثة ملايين إسرائيلى أمام ١٢٠ مليون عربى ليصدم
العقل العربى برغم أن الحقيقة تقول بأن الـ ٣ ملايين هؤلاء من ورائهم
يقف الكون بأسره بشقيه الماركسى والليبرالى . وكان من المفروض أن نواجه
هذه الإشكالة بوعى وفراسة وقدرة على إعطائها الحيز الموضوعى ، وفى تصورى
أن الأمة العربية ، أمة معاناة - تاريخها كله يشهد بذلك من خلال غزوات
سليبية ، ومغولية .. الخ . وبالتالي فهى محصلة لهذا النوع من الإشكالات
المفروضة ، وأنا مطمئن إلى أن الأمة ستتجاوزها ولكن شريطة أن لا تتم عملية
تعويم داخل الرؤية العربية . وإننى لا أخشى عليها من خارجها ، ولكن من
ذات الإنسان العربى .. عليه أن يحدد رؤيته قبل أن يتعامل مع الآخرين .
بل ومع نفسه ، نعم هناك صراعات عربية متعددة ، ولكن الواجب يقتضى
تجاوزها ..

* * *

(٥)

الإسلام . . ودورة الحضارة العالمية

● كيف تجاوز الإسلام اطار الدورة الاجتماعية السلافية القبلية ، ودخل في آن واحد نطاق الدورة الثقافية بتراث الإسلام الخالد المتمثل في القرآن العظيم ، والسيرة النبوية الخالدة ، والدورة الحضارية بعد اعتناق شعوب الأرض لترات الإسلام الذي لم يعد حكرا على الجزيرة العربية ، بل أصبح السراج الذي يهدى البشرية بأسرها ؟

الإجابة يقدمها د. فكار خلال حديثه إلى أطباء مصر في دار الحكمة حيث مقر نقابتهم المهنية في يونيو ١٩٨٥ ..

الإسلام أحدث تطوراً جذرياً عميقاً في حياة عرب شبه الجزيرة العربية .. فإلى جانب العطاء الإلهي الخالد حسد بداية الدورة الثقافية .. بمعنى أن مجموعة العشائر والقبائل التي كانت تتعامل لتدافع عن معقل القبيلة والعتيرة - تجاوزت هذا الانتماء ، والالتزام إلى التزام أسمى مجسداً في مثل عليا وقيم .. وبذلك أصبح للعرب دورة ثقافية .. ولا يمكن لدارس في فلسفة التاريخ أن يتصور دورة ثقافية لهم في غيبة الإسلام .. وهذه الدورة الثقافية للعرب ، أصبحت دورة حضارية ذات إشعاع ثقافي ، وأصبحت ثقافة سائدة ، بعد أن تجاوزت معقلها الأساسي ونبنتها شعوب أخرى خارج حدود أرض العرب ، ومفهوم الثقافة إذا ما اتسع ليصبح مستأنسا لخدمة المثل العليا والقيم الخالدة ، والعقيدة السامية ففي هذه الحالة كما هو بالنسبة للإسلام تصبح دورة حضارية ذات إتماء مزدوج .. جانب روحي .. وجانب مادي ..

ويمكن أن نقول إن حروب الردة جسدت بالنسبة للعرب وللمسلمين موقف الاختيار .

إما الارتداد بالدورة الثقافية لتفتت من جديد في شكل دورات
سلالية ، وإما أن تندفع في شكل دورة حضارية .. وهكذا لا يمكن لدورة
أن تتجاوز مرحلة إلى أخرى إلا عبر المنحنى أو المتعرج ومن خلال الأزمة
إما أن تندفع أو تتراجع ..

بفضل الله تعالى حروب الردة انبثق منها الدفع إلى الدورة الحضارية ،
وكان امتداد الإسلام عبر مختلف القارات .. والإسلام هو الذي مد الأرض
ومد اللغة ومد التاريخ .. هذه الامتدادات الثلاثة تمت بفضل الإسلام ..

الدورة الحضارية الإسلامية غطت مساحة عريضة سكانيا ، وطويلة زمانيا
لأنها غطت ما يقرب من ألف عام كحضارة سائدة .. حضارة تسامت بالإنسان
.. لم تندحر بالإنسان ، وإنما تسامت به ، وغزت بكل فعالية وانطلاق كل
امتدادات الحضارات الإنسانية ..

وكانت ثمة دورات حضارية قبل الإسلام لا يمكن إنكارها .. كانت
هناك الحضارة الإغريقية واللاتينية ، أو حضارة العقلنة والمنطق ، وكانت
هناك الحضارة الفارسية ، وسادت الحضارة العربية الإسلامية وأعقبها
الحضارة الغربية ، التي لا يمكن أن تؤخذ على أنها طفرة إعجازية تابعة من
ابتكار وإعجاز ، فهي نتاج مسار يبدو طويلا لتاريخ الإنسانية أسهمت في
إفلاحها الحضارة الشرقية القديمة والحضارة الإغريقية اللاتينية ثم الحضارة
العربية الإسلامية ..

**والسؤال الذي يطرح الآن لدى المتخصصين هو : لو أن الحضارة العربية
الإسلامية لم يكن لها وجود ، هل يكون هناك هذه الحضارة الغربية التي
نعيشها الآن ؟ ..**

لحسن الحظ .. الإجابة التي يتفق عليها الجميع باستثناء الرؤوس المنفصلة
والمتطرفة والمتعصبة ذات العصبية الفكرية أنه لولا الحضارة العربية
الإسلامية .. ما كانت الحضارة الغربية المعاصرة ، فهي التي استطاعت عن
طريق هذا التكامل الرائع والقناعات الفكرية المتعادلة أن تعطى كل ذي حق
حقه ، بينما يلاحظ أن الحضارة الإغريقية واللاتينية ، إن كانت قد أنارت
في إطار فقد أظلمت وعمت في إطار آخر ، وبالتالي ، فإن المأخذ الذي يؤخذ

على الأرضية الإغريقية اللاتينية للغرب أن هذه الأرضية مرت بسر مظلم . وهو العصور وسيطة القرون .. حيث كان من الصعب على إنسان أن يفكر .. مجرد أن يارس التفكير . كان محرماً عليه . وإذا كان لا مفر من ذلك عليه أن يبحث له عن وسيط ليفكر له . ونعني بذلك النسق التنسي العربي . بمعنى السيطرة الكاملة للفكر التجهيزي .. صودر الإنسان وغنم عقله حتى أتى القديس توماس الأكويني - وهو يعتبر أول مبشر بالحضارة الغربية عند نهاية العصور الوسطى ومنطق العصر الحديث .

وتأثر الحضارة الغربية الأوروبية بالحضارة العربية الإسلامية شيء مشهود له .. كما ذكرنا فمن المعروف أنه لولا لتأثر بتعاليم العلامة العربي « ابن رشد » ما كانت العقلنة الغربية . حيث إن العقلنة العربية الإسلامية تؤكد أن العقل لا ينفى الوحي ، وأن الوحي لا ينفى العقل ، لأن العقل في خدمة الوحي ، ومكلف من أجله .. هذه الوصفة المبسطة للغاية التي تشل إظاراً فلسفياً عند « ابن رشد » وجلت طريقاً إلى الفكر الكنسي . وتأثر به توماس الأكويني - كما تأثر به كل خصومه الكنيسة .. ولم يقتصر التأثير بفلسفة « ابن رشد » الإسلامية على من تحفظوا على الكنيسة من خصومها - بل وامتدت لتغذي الكنيسة ذاتها . ولتعقلتها فهي في الواقع خلقت تياراً منكملاً : فالكنيسة لم تكن بالنتيجه . وبدأت تتحرك مع توماس الأكويني ومن حوله لتحتكم إلى العفر في بعض المعاني ومن بدأوا يحفظون على الكنيسة قالوا إن هناك بجانب حضارة أندلسية إسلامية مؤمنة حضارة لها إله ، وحضارة لم تقم بإلغاء العقل .. وبدأ التساؤل لديهم يطرح نفسه في مطلع عصر النهضة الغربية . وللأسف كثير من النصوص العربية الإسلامية انتحلت لتصبح نصوصاً لاتينية . وحذف الاسم فقط .. حذف اسم المؤلف وانتحل بدلاً منه اسماً لاتينياً وهذه الأمور بدأ تصحيحها لحسن الحظ . الغرب نفسه بدأ يعيد النظر في هذا الغش والتلوث الثقافي التاريخي ليعطى لكل ذي حق حقه .

الحضارة العربية الإسلامية ، إذن لم تكن بأنها شغلت حيزاً طويلاً من الزمن وحيزاً عريضاً من المكان في بقعة الأرض من بحر الصين إلى جبال

البرانس . وإنما كانت أساساً لحضارة الغرب المعاصرة التي من الصعب أن تعزل الإسلام عنها ، فهناك علاقة عضوية بين الإسلام وبينها ، اللهم إلا إذا تنكر الإبن لأبيه .. عندئذ تصبح حضارة لقيطة .

والحضارة الغربية مرت بمرحل . ففي البداية بدت حضارة التحفظ والنقد الحذر للتسلط التجريبي ، ومصادرة الإنسان ، ثم بدأت تنمو في مراحل تالية لتصبح حضارة المدارس الفلسفية التي نعتى مجرد النقد بتردد ووجل إلى التحفظ على بعض المواقف التي كانت امتداداً لتصور الوسيطة الأوروبية ..

ثم آلت الحضارة الغربية إلى عصر الأنوار ، وهي الفترة التي تبلور فيها الإنسان الغربي ، وأعلن التمرد وأعلن المواجهة مع ماضيه ، وأعلن التعرية لما علق به من رواسب التعقيم والظلمة ، حتى وصل إلى المدارس الوضعية في القرن التاسع عشر ، حيث ترى فلسفة الإنسان من خلال تيارات المدرسة التصورية ، والماركسية ، والكويتية ، والساز سيونية . ثم تبلور علم الإنسان في أبعاده الثلاثة السيكولوجية ، والسوسولوجية ، والاثروبولوجية ، وهي في الواقع عطاء لتدعيم ثقة الإنسان بالإنسان ، وأطلق البعض في البداية فلسفة الأرض ، فبعد أن اجتاحت الغرب قضية الميتافيزيقا ، كان لابد من تحديد المضامين حتى لا يحدث الالتباس لأن البعض ، وللأسف يعسم هذه المضامين بحسن نية أو بتكوين وتأهيل محدود العطاء على بقية الاتجاهات الإنسانية في مختلف الحضارات بما في ذلك الأمة الإسلامية .. وهذا خطأ ، لأن هموم الغربي من الأفضل أن ترعى على مستوى الغرب ، ولا تعمم وتصبح صورة طبق الأصل بالنسبة للآخرين ، أي أن الغرب له همومه الموضوعية التي عايشها في مسيرته الحضارية ، وآلت هذه الهموم إلى تصفية حسابات خاصة به ، فصفي الحسابات مع ألف عام من الظلمات الوسيطة ، ومصادرة الإنسان بإعادة الثقة للإنسان العملاق الذي تجاوز أولاً مصادرته ، فتحرك وأعطى لنفسه حقوقاً ثم تجاوز هذه الحقوق النظرية ليعطى بدائل تؤكد ثباته على الأرض .. هكذا يقولون ويزعمون وبدأ الانتفاخ .. انتفخ الغربي وأعجب بانتصاراته ، فإذا به أيضاً يتجاوز في فترة لاحقة القدرات الفلسفية

بالتنظير العلمى أى أن الفلسفة وقد كانت هى الراية الكبرى ، إذا بها
تقرز لنا علوما لها طابع نشط ، تبرهن وتعطى حيثيات لقدرة الإنسان ..

وأتناء هذه المواجهات والاختبارات الرهيبية بدأ الإنسان الغربى الذى
كان مقهوراً يشعر أنه قادر ، وفتحت شهيته وبدأ يملئ إرادته ، وقد أوضحت
فى بعض دراسائى عدم العزل بين المد الاستعمارى . وبين نسوة انتصار
الغربى على ذاته ، وأصبح بالتالى قادراً على أن ينتصر فى كل المعارك ، حدث
ذلك فى القرن التاسع عشر ، وازدهرت هذه النظرية . وكاد الغرب أن يصل
إلى موقع الانبهار ، والشعور بأنه أنهى كل القضايا . ويبدو ذلك على لسان
أحد مؤسسى المدرسة الوضعية حينما قال : « حضارتنا بدأت ولن تنتهى أبداً »
بمعنى ورتنا حضارات الشعوب السابقة ونحن هنا لن نتحرك من مكاننا ،
سنسود بحضارتنا إلى الأبد لأنها حضارة الإنسان ..

وهذا لا أفول إنه نوع من الغرور المحسوب . ولكنه غرور المنتفخ
والمنتصر فى معركة ، واعتقد أنه بانتصاره فى معركة أنه انتصر فى كل المعارك
وتجاوز قزميته الأرضية ليخلق فيما لا يعنيه ، بمعنى أنه يحاول أن يتحدى
حوار السماء ..

والحضارة الغربية المعاصرة هى حالياً الحضارة السائدة التى لا تنافسها
حضارة أخرى فى القرن العشرين .. وهذه قضية المفروض أن تطرح
بدون انفعال أو حساس لا موضوعى . ودائماً هناك حضارة سائدة ،
وحضارات مغلفة أو هامشية .. وحينما نقول الحضارة الغربية السائدة ،
فإننا نقصدها بشقيها الليبرالى . والماركسى ، لأنه من الخطأ أن نعزل
الليبرالى عن الماركسى فى الانتماء الحضارى ، فالأم واحدة !

وهذه الحضارة بشقيها .. لها خصائص مميزة : توزيع العمل ، تعسيق
التخصص ، الارتكاز على المعرفة التكنولوجية ، التطبيق الصناعى ، الأسس
العلمية .

وفى القرن العشرين تزيث الحضارة الغربية بزى الحضارة التكنولوجية ،

وتركت الفلسفة مكان الصدارة للعلوم التطبيقية .. أى للتكنولوجيا التى تقود الآن موكب الحضارة ، وتستأنس العلم والصناعة ، وحتى الفلسفة أصبحت فى خدمتها .. تابعة لها ..

والتكنولوجيا كما هو معروف تعنى التطبيق للمعارف التقنية للصناعة ، وقد تحولت لتصبح رمزاً لهذه الحضارة .. حضارة الكمبيوتر .. حضارة التحليق فى الفضاء ..

رأينا أن الحضارة الغربية لها خصائص ، ولتساءل ما هدف هذه الحضارة .. ما هدف كل هذه العملة الرهيبة .. هنا نصل بالقضية إلى العلاقة بين العلم والحضارة ..

إن أغلب الحضارات كانت لها أهداف .. وكمجرد مثال ، فإن الحضارة الغربية الإسلامية كان لها هدف محدد وهو إنقاذ الإنسان ، وذلك حينما انخدت من الإسلام قدرة للارتكاز والإحالة .. أى تحيل إليه كحضارة .. وإنقاذ الإنسان يشمل كل أبعاده .. إنقاذه أولاً من غروره ومن سوء استخدامه لذاته ، وإنقاذه من تسلط الجانب المادى لغرائزه على الجانب النفسى ، وإنقاذه من سلوكه البشرى ، مع الآخرين من جاره القريب إلى أبعد الجيران ، وإنقاذه من الدنيا ومتاعها وغرورها .. فهو جاء إلى الدنيا برسالة الخير والبناء من أجل القيم العليا وإسعاد الإنسان ونفعه .. « واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (١) و « انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » (٢) ..

والكادح هو المجاهد الساعى إلى الخير .. وقال له الإسلام إن السعى فى الدنيا من أجل الدنيا فقط شر ، وقال له إنه حتى فى سعيه من أجل المثل العليا لا يحل له أن يصادر الإنسان ، وقال له أنت إنسان أولاً عليك أن تتمتع بكامل إنسانيتك فى هذه الدنيا . ولكن بشرط ألا يملكك الغرور وألا تدفعك النفس الأمارة بالسوء لطمس النفس المطمئنة والنفس الراضية الكامنة داخلك .. كن متعادلاً ، فأنت صاحب رسالة ، وصاحب غاية .

(٢) الانساق : ٦

(١) الرعد : ١٧

وبانتبح تعرضت لحاصرة عربييه الإسلاميه فى بعض المراحل لاهواء
ونزعات بشريه حادت خلالها عن الغايه . وكانت النتيجه أن أصابها التقلص ..
وإن من ينظر بسيار هادىء مسيره تاريخ هذه الحضارة العربيه الإسلاميه ،
يجدها حينما كانت وفيه لهدفها وغايتها كانت فى قمة الإشراق والعطاء . ولكنها
حينما أصبحت فى خدمة هذا أو ذاك وأصبحت فى خدمة اتساءات بشريه إذا
بها تنكمش وتتقلص . وفى لحظات الأزمات التاريخيه . كان يرتفع نساء
التشبث بالإسلام لإنقاذ العقيدة ..

وإسلاماه .. الإسلام دائماً بخير . ولكن استغل . وحاول البعض أن
يحتسى فيه . ليحقق ما له من مآرب فخر فى كلنا الحاليتين . خسر على مائدة
لندي والآخره .



● اما الحضارة الغريبه .. فما هى غايتها ؟

كثيراً ما اضرح هذا السؤال على قادة الفكر فى الغرب الذين يحصلون
رايه الدفاع عنها . وهو سؤال مصيرى . لتأثير الغرب وحضارته السائدة
على العالم بأسره .. كما قال هيدجر : « ظلام أوروبا هو ظلام الكون » :
إن حضارة الغرب بدلا من أن ترفه الإنسان أشقته .. لقد ترفهت الأشياء
.. السيارة ترفهت ، والتليفزيون ترفه وتجمل وتزين ، ويستقطب العالم بصوره
وألوانه ..

أما الإنسان فلا أعتقد أنه ترفه ، وإنما أصبح يعيش الهوموم الأساسية
له مضافاً إليها هموم من يكف ويسهر على ترفيه الأشياء . يعنى يضيف إليه
هم الطائرة وهم السيارة وهم التليفزيون .. وأصبح الإنسان ذو الهمين . بل
ذو الهوموم ؛ واتسعت الهوموم . وبدأت موجة ما يعرف حالياً بوباء المعاناذ
النفسية . واجتاح الوباء أصحاب الرفاهيه .. إن المرفه حل مشكلاته
الموضوعية ، وبدأ يفتعل المشاكل التى لا حلول لها ، لأنها أساساً مشاكل
مفتعلة ..

الحضارة الغريبه حضارة بلا قلب ، وبلا وجدان ، وبلا مشاعر . فهى

حضارة الإنسان في غيبة الإنسان ؛ بل وتتحرك على حساب الإنسان ؛ ونحن نلهث وراءها كمثل المنبت لا أرضاً قطع ؛ ولا ظهراً أبقى ..

الحضارة الغربية جاءت لتصفى الحسابات مع الميتافيزيقا . ومع التكنولوجيا ؛ وانطلقت من وضع الإنسان المادى وتطوره .. والإسلام لا بد وأن يعود ليوضح الأمور ولتعديل الموازين .. وهذا أمر مطروح فعلا على قمة الفكر الأوروبي .

إن رائد المدرسة الوضعية اوجست كونت انبرى ليدافع عن الإسلام ضد خصومه . وقال لهم صراحة : أنا لا أتفق معكم ، أتمت تهاجمون الإسلام الذى تجهلوناه ؛ وأتم غائبون عن المعرفة ..

وللأسف من يريد أن يعرف الإسلام فى أوروبا لا يجد إلا ما قام بترجمته رجال الكنيسة لحاجة فى نفس يعقوب ..

وهم يهدفون أساساً إلى تجريح الإسلام ، وهذا ما واجهه كونت فوجد صعوبة وذهب أيضاً ليتعامل مع المدرسة الاستشراقية فى تيجرى وواجه صعوبة ؛ ولكنه قال : الحضارة الإسلامية التى قدمت لنا هذا الإبداع الفنى والعمرانى - مشيراً إلى غرناطة وقصر الحمراء وإلى الفلاسفة المسلمين ، وعلى رأسهم ابن سينا وابن رشد - ، وقال : لا يمكن أن تكون هذه الحضارة الإسلامية حضارة تعقيم . بل هى حضارة أنوار ..

لقد علمت الإنسان أن يفكر . وأن يتفنن . وأن يشتغل فى العلوم ..

وقال كونت رائد المدرسة الوضعية : إن البشرية تبحث دائماً عن دين لأن الدين لا غنى عنه للإنسان .. وقال أستاذه « سان سيمون » : الدين ضرورة لبقاء الإنسان ، كضرورة العلم لمستقبله ، ويرى كونت أنه إن كان هناك دين يتمشى مع الحالة العلمية الموضوعية فهو الإسلام ، فحينما يسود العلم فسوف يبحث عن الإسلام .. وها هى العقول القادرة الآن فى الثمانينات تتساءل حول الإسلام . وسوف يتبلور هذا الأمر بصورة أكبر مع بداية القرن الواحد والعشرين مع شدة تأزم الإنسان الذى ارتقى

ولكنه تحول إلى إنسان ميكانيكى . أى الإنسان الذى ضعفت فيه المشاعر ،
ووهنت فيه الإبتسامة الطيبة ، وخبث لديه العواطف .. إنسان ميكانيكى
ينام بحبوب ويتقوى بحبوب ، ويهدأ بحبوب ، ويتسهم بحبوب ، ويحب
بحبوب ، وينتحر بحبوب .. ووصل الأمر بأحد فلاسفة الغرب ليقول إن
على الإنسان العملاق أن يستدعى الموت لا أن يذهب إليه ..

وعند هذا المنعطف الخطير الذى يهدد حضارة الغرب السائدة بالمأزق
والاندحار .. يقف الإسلام المنقذ للبشرية ، وفى يده الحلول .

* * *

(٦)

الإسلام . . وتحديات العصر

● الحقيقة التي يؤكد عليها د. فكار : أن الإسلام كعقيدة وفكر .. قضية مطروحة بإلحاح الآن على الساحة الأوروبية ، بل والكونية ، كبديل للأزمة الأخلاقية الطاحنة التي يتردى فيها الإنسان المعاصر ..

والقضية التي نحن بصدد مناقشتها مع مفكرنا الإسلامي هي : كيف نطرح الإسلام على العقل الغربي بأسلوب عصري ، بل وكيف يمكن أن نخطب به - كفكر - إنسان الربع الحالي ن القرن العشرين ؟ .

بداية : يوضح د. فكار أن الإسلام قضية مطروحة على الساحة الكونية ، ويقول : من الخطأ أن تتصور أن الإسلام يحل بدلا من العلم أو العكس ، أو أن العقل يتوقف ليتحرك الوجدان ، أو العكس أيضاً .

والحوار لا يبد وأن يتطرق إلى تحديات تواجهنا في إطار طرحنا لقضية الإسلام وهي : التحدي التاريخي أو الحضاري .. والتحدى العقلي أو التحدي العلمي .. وتحدي الواقع الملموس ، بمعنى واقع المجتمعات التي نعيش فيها ، وإلى أي حد تتجاوب العقيدة على مستوى الصلاحية مع حركة المجتمعات إلى التقدم ، وإلى مزيد من التطلع والرفاهية . فإغفال الواقع على حساب الماضي لا يقل خطأ عن إغفال الماضي على حساب الواقع ، كذلك إغفال العلم لصالح النص ، لا يقل عنه خطأ إغفال النص باسم العقل أو العلم .

ولنبداً أولاً بأول التحديات :

الإسلام في ميسس الحاجة الآن إلى أن يطرح واقعه التاريخي من خلال

الفعل التاريخي . لا من خلال فكر المؤرخين . ويجب ألا تنهيب من ذلك ..
لماذا ؟ .

ليست هناك المشكلة التي طرحت على الغرب بالنسبة لعقيدتهم . وهي
مشكلة وضع علامات استفهام على انصوص الأساسية لحركة العقيدة ،
وأعنى صياغة الكتب المقدسة .

أما بالنسبة للإسلام - فالحمد لله - وثقنتا المقدسة ليس فيها أى نوع من
هذا ، فهي مبرأة تماما من أى خلط أو شك .. وبالتالي ليست هناك أية
إشكالية .. وحركة التاريخ في أرضيتها الأولى منطلقة من أرض صلبة ، هي
صحة الوقائع الأساسية ، وسلامة الوثائق التي انطلقت عنها حركة المجتمع
التاريخي الذي نفذ هذه الوقائع ، وهذه الوثائق الأساسية التي تجسد
لنا جوهر العقيدة الإسلامية ، واعنى بذلت القرآن الكريم والسنة الصحيحة
المشرفة ، وكل ما اتفق عليه العلم وأقصد اجتهادات الأئمة بعكس ما حدث
في المجتمعات الغربية حينما وضعت علامات استفهام كبرى على حركة
الميتافيزيقا والفكر المجرد في العصور الوسيطة الأوروبية باسم المنهج العلمي ،
وباسم الفلسفة الحديثة أو فلسفة الإنسان . وهم من زاويتهم على حق لأن
لديهم ما يثير فعلا هذه التساؤلات . أما نحن فحركتنا ليست في حاجة إلى
هذا ، وبدلا من أن تتم كما حدث في لغرب تحت شعار الظلمات ، تمت تحت
شعار النور ..

هم ينطلقون من مبدأ الإدانة ، لأن العقيدة كلفتهم ربما أكثر من ألف
عام من القرون الوسيطة المظلمة أخذ العقل الأوروبي فيها عطلا ، كما يقولون
هم لا نحن ، وأخذ يلهو ببعض الميتافيزيقيات والمعتقدات التي لا ترتبط
بواقع ملموس بينما الحقيقة ترشدنا أن تجربتنا معاكسة ، كان فيها إحياء
للعقل ، وهكذا رأينا المعتزلة وإخوان الصفا ، وحتى حركات : كالقرامطة
والزنج ، والديلم ، ورأينا إشراقات لابن رشد ، ومدرسته بالأندلس
والغرب ، وابتداعات في العلوم والفنون ، إلى جانب حركة الفكر ، وبالتالي
من الصعب أن نقول : إن الإسلام استبعد التاريخ ، لأنه كان بالعكس من
ذلك يدعم مسيرته ، لذا سنجد أن الاحتكام إلى التاريخ سيؤكد لنا أنه

يست لدينا أية إشكالات ، ولا تهيب أبداً من أية مواجهة مع حركة التاريخ
التي تعطي أولوية للوقائع وللعمل التاريخي على حساب ما زيف من التاريخ ،
لأن تاريخنا ليس فيه زيف ..

ولكن كيف نفسر أزمات التاريخ الإسلامي ؟ ..

البعض يحاول أن يطرح مبدأ الإدانة على الإسلام ، ومازلنا حتى عصرنا
هذا حينما يتوعك المسلم كبشر دائماً ما يلقي التبعة على الإسلام ، وكأن
الإسلام وجد فقط ليجسد الأخطار ، بينما في الواقع إذا ما عمقنا النظر سنجد
في مسيرة الإسلام ومجتمعاته أن الأزمة كانت دائماً أزمة البشر ، والحلول
كانت دائماً حلول الإسلام .. البشر يتأزم : والإسلام يأتي ليعطي الحل
كدواء لها ، وما من مرة استبعد كدواء إلا وتوعدت الأزمة ..

إن عقلانية الحضارة التي انطلقت في عصر النهضة الأوروبية على أساس
من رفض الأزمة التاريخية المتراجعة ، وهي الأزمة الوسيطة ، واعتمدت
على الحركة العلمية متمثلة في التنهيج والملاحظة والتجريب ، وعلى قدرة
النظرة الشمولية شيء ليس ببعيد عنا ، فنحن مارسنا هذا في بعض المدارس
الإسلامية ، كإخوان الصفا والمعتزلة وابن رشد وظهرت المقولة : « العقل
يكمل الوحي » بمعنى أنه لا يمكن تصور أن الإله الذي أوحى وهو الذي
خلق العقل يتناقض مع ما خلق ، من هذه الزاوية نقول : إن التجربة العقلية
ليست غريبة عنا .

والآن في هذه الحقبة من القرن العشرين .. كيف يبدو احتكام المجتمعات
الإسلامية إلى العقل ؟ ..

ثمة نوع من التهيب بالنسبة للمدافعين عن الإسلام ، أو نوع من
التشفي والرغبة في القصاص والإدانة للمعارضين له ، وفي اعتقادي أن
القضية لو طرحت بنوع من المجازفة فلا فائدة في هذا ولا ذلك .

المفروض أن نظرها أولاً بموضوعية .. لماذا ؟ .. لأن هناك من يرى أن
قضية الدين - أي دين - قضية اعتقادية إيمانية ، وبالتالي لا داعي للمجازفات
العقلية فيها ، بمعنى أن تؤمن أو لا تؤمن ، تقبل أو ترفض ، وغاب عنه أن

القرآن الكريم أرشدنا إلى أن هداية الله مرتبطة دائماً بتبشير الإنسان ،
يعنى أن الإنسان لابد من جانبه أن يلتقى بالطريق ، وليس له من جانبه
المجازفة فى اختيارات الله ، إن اصطفا الله مبرر دائماً بصدق هذا الاصطفاء ،
يعنى لا يصطفى جزافاً ، والأنبياء خير دليل على هذا .. هم جميعاً مارسوا
المعاناة والمواجهة ، وأكدوا أن الله سبحانه وتعالى لم يخذع فى اصطفاهم
— حاشا لله — .. إنهم كانوا بحق أهلاً لهذه الرسالة ، وما علينا إلا أن نقف
أمام رسولنا الكريم صلوات الله وتسلیماته عليه . وما حدث له وهو عائد
من الطائف ، وما حدث له فى أزمته الكبرى .. كيف أنه برهن بسلوكه
الخالد أنه أهل لهذه الرسالة ..

من هذه الزاوية أقول إن قضية استبعاد العقل باسم التسليم لا يجوز ،
وفى تصورى أن قضية إغفال العقل فيها تجاهل ، بل إغفال لكثير من الآيات
القرآنية ، خصوصاً تلك التى تنتهى : بألا تعقلون ..

إن الإيمان والعقل يتكاملان ..

● وماذا ينتظر العالم من مسلمى بداية القرن الخامس عشر الهجرى ؟

إن البشرية الآن فى مسيس الحاجة إلى الأيديولوجية الإسلامية التى
تعكس حضارة الإنسان ، لأن حضارة الغرب المعاصرة هى حضارة الأشياء ،
حضارة الإنسان المتضائل إلى جانب ناطحات السحاب ، هذه الحضارة التى
تعانى الأرق ، تبحث عن النهار المبتسم ، ولكن سيطول بها الانتظار لأن
الابتسامة اختفت عن الوجوه ، وهم يحسدوننا عليها ، ويقولون للمسلم
المبتسم : إن هذه الابتسامة غابت عنا زمناً طويلاً .

ولكن كيف نقدم هذه الأيديولوجية الإسلامية كمنفذ لإنسان الغرب
المتهاك فى أساء نظرياته اللانسانية ؟ ..

لابد أن يتكامل الفكر الإسلامى فى أرضيته قبل طرحه على العالم ،
والقضية التى تواجهنا الآن هى مشكلة توحيد ما مزق ، ويا للأسف ، لأننا
على ما يبدو بصدد تمزيق ما وجد !

والحقيقة أنها عملية تمزيق مفتعلة تحدث بلا مبرر عقلي ، إن الفكر الإسلامي في حاجة قبل أن يطرح عطاءه ويواجه الآخرين إلى أن يتحاور ويتفاهم مع جزئياته ، وخصوصياته .. لماذا ؟ بكل صراحة لأن الغير كثيراً تشفى فينا .. فأنا كرجل مسلم حينما أنظر إلى الإسلام في الأزمنة المتعاقبة عليه ، لا أرى إلا إسلاماً واحداً ، ولكني حينما أقرأ للمستشرقين أجد نفسي أمام أنواع متعددة من الإسلام ، حتى أن البعض منهم كتب عن الإسلام الإيراني والتركي ، بل والعثماني ، والفاطمي ، والأندلسي ، بمعنى أنه بدأت عملية افتعال مسميات ، وعملية التعدد والتنوع في حيز واحد .

كيف حدث هذا ؟ .. لأن العصر الذي نعيش فيه مهد وشجع هؤلاء على أن يطرحوا البدائل الممزقة ، أما المؤرخ المنصف فقد يتكلم في مضمار حديثه عن الإسلام ، عن البيئات والأزمنة المختلفة ، ولكنه لا يتكلم عن الإسلام المتعدد ..

وقد شجع المستشرقين المغرضين على كتاباتهم ظهور القوميات الحديثة داخل الأمة الإسلامية ، ونشأة الدويلات ، فنظروا إلى مراحل التاريخ على أنها ليست مراحل متكاملة ، وإنما جزئيات متقطعة ، وكل جزئية في نظرهم تعني إسلاماً معيناً ..

كما شجع على ذلك ما نراه الآن بالنسبة للاتجاهات الإسلامية (المشخصة) أي التي تعتمد على الأشخاص بينما إذا كانت لدينا اتجاهات إسلامية فكرية ومدرسية ما أعطيت الفرصة لأنصار التعدد أن يعددوا !

وعن مكانة العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري يقول د. رشدي فكار : إن مائدة الكبار العمالقة لن تخلى من أمامها حضارة الغرب التكنولوجية المعاصرة ، إلا إذا حدثت هزات كونية لحرب هيدروجينية مثلاً ، ولكن وبناء على قدرة التطور في حد ذاته لن تكون الوحيدة سيدة المائدة لأنها ليست الوحيدة في الكون التي تستحوذ على كل عطاء التقدم ، فهناك دولا تمتلك الآن « رأس الرمح » وهي التكنولوجيا ، كاليابان التي دخلت معها ، والصين التي ستدخل معها ، وحينما نل نظر إلى

العالم الإسلامى نجد أنه وإن لم يمسك « رأس الرمح » وهى التكنولوجيا فهو يمتلك الطاقة ، ويمتلك العزاء البشرى والمادى ، وأعتقد أن هذه المائدة سيكون فى جزء منها نصيب للأمة الإسلامية ، وهى التى تفتقد التكنولوجيا والقوة المادية تزرخ بقوى البشر العضلية .

ستكون هناك ضوضاء كوية من هؤلاء لاقتسام جزء من المائدة إلى جوار العمالقة الجدد ..

والأمة الإسلامية بطاقتها وكرها وعضلاتها أتمنى لها أن تكون من العمالقة لا من أصحاب الضوضاء !

* * *

(٧)

علماء الغرب ينجذبون الى الاسلام

● علماء الغرب يسعون الى الاسلام ، وينجذبون اليه .. شاعر المانيا الشهير جوته لم تبهره فقط اضواء الاسلام ، ولكنه اعتنق الدين الحنيف ، واثبت الباحثون ذلك بعد تحليل مؤلفاته .. وهذا هو فيلسوف الشيوعية الأوروبية وعميد الشيوعيين الفرنسيين روجيه جارودي يشهر اسلامه ويسمى نفسه رجاء جارودي ، ويتزوج من فلسطينية مسلمة ، ويكرس قلمه وعقله للدعوة للاسلام .. وهذا موريس بوكاي الذي اعلن اسلامه بعد اجراء مقارناته بين الأديان .. وغيرهم ، وغيرهم كثيرين ..

تقودنى هذه الظاهرة الى سؤال اطرحه على الدكتور رشدى فكار :

بمناسبة الحديث عن علماء الغرب وطموحات العلم اللامحدودة ..

كيف يمكن أن تتحقق عالمية الاسلام ؟ .. واعقبت السؤال الكبير بعدة محاور تتفرع منه أو تقود اليه ..

١ - إن الطريق المسدود الذى سارت عبر دروبه العتيقة فلسفات الغرب والشرق .. ألهب العقول بحثا عن البديل السالك فى رحاب الحقيقة الكلية والهناء الذنوى والأخروى على حد سواء ..

٢ - إن الصحوة الإسلامية التى تنبعث الآن فى قلوب وعقول مليار من البشر المسلمين مستندة إلى ركائز فكرية وحضارية وروحية ترسبت عبر اربعة عشر قرنا .. تقلب مائدة الاستشراق الغربى الأسود ، ومخططات الغزو الفكرى والتبشير رأسا على عقب ، وتلفت الأنظار بشدة إلى أصالة الفكر الإسلامى وخلوده ، وعدم قابليته للانقراض .

٣ - إن اتجاه قمم الفكر الغربى للأخذ بسنهج الإسلام العلمى فى الطبيعة والكيمياء ، والطب والفلسفة فى مطالع النهضة الأوروبية له ما يقابله الآن فى عصرنا الراهن من اتجاه سريع الإيقاع لا لمجرد التأثير بالفكر الإسلامى ،

ولكنه يندفع بقوة نحو اعتناق العقيدة الإسلامية ذاتها وتمثل ذلك في إسلام عمالقة الفكر الأوروبي .. مما طرح على الساحة العالمية الفكرية الإسلامية كبديل منطقي لإفلاس الفلسفات لوضعية .

.. ولكن الظاهرة التي تحير الصديق قبل العدو - كيف تتحقق عالمية الإسلام في ظل تآزم المسلمين . الواضح الآن في استمرار تخلفهم الاقتصادي والاجتماعي وشقاقهم وتناحرهم لدى وصل إلى حد الاقتتال والتدمير والتمزق ..

.. كان هذا هو السؤال ومحاوره .. فماذا يقول الدكتور رشدي فكار ؟

بداية ، وبطريق وضع النتائج قبل المقدمات بدأ الحديث : في تصوري المتواضع أن العودة إلى الحق لا تكون إلا برسالة الحق ، ولن يعود الإنسان المعاصر أبداً عن طريق هذه الحبوب المخدرة التي يقدر لها فكر كسيح ، أو الحلول المؤقتة والتائمة على الغش والتحايل .. وارى ان الإسلام برغم تآزم حال المسلمين ، سيظل الرصيد لأنقاذ الكون بأسره لا لانقاذ قبيلة أو شعب أو فارة وحسب ، وسيكون الإسلام هو المنفذ من هذا المأزق لا عن طريق اختراع أجهزة جديدة ، صواريخ ، طائرات ، قنابل ، وإنسا عن طريق إعادة الإنسان المنسلب إلى صوابه ..

ودخولا في عمق الإجابة على السؤال المطروح .. كيف تتحقق عالمية الإسلام ، ينطلق الدكتور رشدي فكار في أرضيته كعالم إجتماع ونفس فيقول : إن عالمية الإسلام تتحقق من نظرية (ابستمولوجية نشوءية) تقود إلى أن السلوك قادر على تغيير التطور لا العكس ، بمعنى أن الأولوية للسلوك ، وأن كليهما يؤثر ويتأثر بالآخر . وإذا نظرنا إلى السلوك السائد في الحضارة المادية رأسمالية كانت أم ماركسية نجده متطبعاً بتطبع استهلاكى ، وبقدر ما نوغل السير في هذا التصور بقدر ما تقترب من الكارثة .. إذن نحن في حاجة إلى صدمة جذرية عن طريق سلوك آخر روحي لا مادي ولن يكون إلا البديل .. ولا أعتقد أن الإسلام سيتولى لبناء القرن الحادى والعشرين سأعطيكم طائرة أسرع وسيارة أفضل ، وقطارا أكثر

راحة ، ورفاهية ، وثلاجة أجبل وأكبر ، وطرفاً أنعم وأنظف .. لا . ولكن
سيقول لهم سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً وأكثر اعتدالاً ، وأكثر برأ وإحساناً
وعدالة للآخرين .. الإنسان الذي يرتبط بمبادئه ، ويهاب ويخشى خالقه ..

الإنسان الذي يخدم الإنسان ، ويعمل لإبعاد الإنسان لا الارتقاء
بناطحات السحاب والشوارع ، واستنزاف كل الخيرات في إطار التحايل
والمكر والدهاء ، والكيد بمعنى صياغة وبناء الإنسان ليبنى كل ما دمر ..
وإن الأزمة في اعتقادي ستقود العالم إلى الإسلام ..

إن حال المسلمين المتأزم لن يعوق دون الوصول للإسلام لأن الإسلام
لن يتجه إلى العالم الغربي والشرقي الغارق في المشكلات . ولكنهم هم
وبمحض اختيارهم سوف يتجهون إلى الإسلام كطوق نجاة لا منقذ سواء ،
لأن السؤال الذي يطرح نفسه بعد كل هذه الأزمات المستحكمة هو ماذا
نعمل ؟ وحتماً سوف يقرب الإنسان في الأوراق ، ولن تصل بهم هذه الأوراق
إلى نتيجة ، وأخيراً سيقولون : ولماذا لا تتصفح أوراق هذا الدين ..
الإسلام .. إن رواد الفكر وعمداء الفلسفة في القرن العشرين يلتقون في
في أن هناك مأزقاً حضارياً جاء نتيجة لأن إنسان هذا العصر ، وإنسان
الحيرة ، إنسان القلق ، إنسان الاكتئاب .. إنسان لا يشبع في استهلاكه
ويبحث دائماً عن الرفاهية وعن الرخاء .. إن ثمة اجماعاً على ذلك من هايدجر
وكبارس ، وسارتر ، وماركس ، على ذلك ، تلوث قيم وبيئة ، وفي العلاقات
الإنسانية ، والعلاقات الأسرية — إن الإنسان — إنسان الحيرة والتلذذ بأمور
بفتعلها ، وقد يصطنعها ، وقد أجاد هايدجر عميد فلاسفة القرن العشرين في
وصف حال هذا العصر حينما قال : « إنه عصر يبدو كقصر شامخ في منظر
كئيب . سادته يعانون من الأرق والملل والقلق . وخدامه يقاسون من المرض
والجهل والجوع .



(٨)

نهاية العمالقة

(سان سيمون .. أوجست كونت .. ماركس ..)

(سبنسر .. سارتر)

● سان سيمون .. أوجست كونت .. كارل ماركس .. هربرت سبنسر .. سارتر ..

كيف مضى قطار الشك بهؤلاء العمالقة من فلاسفة الفكر الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرون ، خلال رحلاتهم الذهنية المفسنية التي استنزفت سنوات الأعمار ، ورحيق العقول .. تمردوا فيها على الآله ، وامتدت أيديهم بمعاول مؤلفاتهم لهدم صروح الإيمان ورموزه الدينية ؟

كيف حاول هؤلاء العمالقة انتشاف القوانين التي تتحكم في الكون لمصرفة أسرارها ، وظنوا أنهم قادرون على فك طلاسمها .. ثم قادتهم حركة الالتفاف الهائلة ، التي صنعوها بأيديهم لى دائرة مفرغة .. عادوا مع دوراتها الى نقطة البدء ، حيث ينحنى جبروت العقل امام أسرار اللانهائية ، فاعترفوا جميعاً أما بعمجزهم عن التحدى والمواجهة ، أو بالايمان الضبابى المقنع أو الواضح بلا اقنعة ..

.. على هذه الأسئلة تقدم الإجابات فى دراسة للدكتور رشدى فكار ، وأعيد تلخيصها مراراً بالفرنسية بعنوان : « نهاية العمالقة » .. وهذا موجز لها ..

فى رحلة العمر الفكرية كان هناك تطلع إلى العمالقة كقدوة وكمثال بالنسبة لإنسان باحث عن الحقيقة ، ولا أدرى من أين أبدأ ، هل أبدأ من علامة استفهام بعد قراءتى لأفكار متعددة وفى اتجاهات متعددة لحضارة الغرب إنطلاقاً من الفكر الوجودى ، ولماركسى والتطورى ، إننى أطرح علامة الاستفهام إنطلاقاً من استفهام فرضى على نتيجة التراكم المعرفى بعد الاحتكاك

بحضارة الغرب الحديثة ، هذا الاحتكاك الذى تم بعقل كانت ركيزته التصميم الإيماني الفكرى لابن القرية الذى أتيح له أن يتعامل مع نوعية هذا الإيمان ويدعمه ببحوث عبر تراث المسلمين ، وذلك فى الفترة الأولى من العمر .. ثم جاء هذا الاحتكاك ليشكل نوعا من المواجهة المقنعة لما هو كامن فى الذاكرة ، وما هو مثار حول الإنسان .. كان الاستفهام .. وكان على أن أنهيه إما بالهروب من الإجابة أو من تليفق الإجابة ، أو من اندفاع .. كل هذا دار بالخلد ، ولكن كان القرار فى النهاية هو : لتتعالج مع العمالقة ، ولتأت البيوت من أبوابها .. لم تتعامل من منطلق الخطوط ، ومن منطلق التعرف الجذرى ، وإنما لكى يكون التعامل استيعابيا ، ومن البداية ، وكان هناك توقف مؤقت لأبحاث متعددة لأصفي الحسابات فى هذا القضية وبصفة نهائية ، وكانت نتيجة هذه المواجهة التى فرضت فى حينها دراسة حملت عنوان « نهاية العمالقة » هذه الدراسة كانت فى الواقع ، وكما يقول المثل العربى : « الشعرة التى قصمت ظهر البعير » .

● من هم هؤلاء العمالقة ، وكيف سارت الرحلة معهم ؟

سان سيمون - مواجهة مع العقيدة :

.. كان التعامل مع « سان سيمون » أحد فلاسفة القرن التاسع عشر ، الذى له اسهامات متعددة عن الأنسقة الصناعية وتعاليم الصناع ، وفلسفة القرن التاسع عشر والمسيحية الجديدة ، أما « سبنسر » فيتميز عن بقية العمالقة فى مواجهة العقيدة لأنه كان يتصدى لجوهرها ولظهورها وأصولها . وليس لمجرد معرفته كيف استمرت ؟

وسان سيمون كأحد امتدادات المعرفيين رأى الدين من منظور الاحتكاك الكنسى .. أى الكنيسة المحتكرة التى تتكلم باسم الله ، وهى بذلك من الصعب أن تمس لغية المصدر .. فهذا حينما تعامل « سان سيمون » مع الدين كانت الغاية الأساسية هى تحديد هذا الطور المهتز والمتداخل للدين ، خصوصا وأنه ارتكز على روح المواجهة ، لأن الثورة الصناعية ، والتقدم العلمى ، وإن طالتا أو كثرتا فسوف تطرحان قضية الإيمان بدين .. لأن التقدم العلمى ، وثورته الصناعية ليس بدين .

اتتهى هذا العساق إلى أن الهدف فى النهاية هو كيف يسكن للدين أن يعامل مع العلم . بسعنى أن هناك إلهاً يتمثل فى قوة الطبيعة ، وهذا ما وصل إليه « آينشتين » . فهو يقول بأن هناك إلهاً يدير الكون دون تدخل ، فهو يحجم دور الوسطاء ، وهذا الاتجاه الدينى هو رد فعل لنكر القرون الوسطى ..

و « سان سيمون » كان فى أعماقه « تيستى » النزعة بسعنى أنه لم يستبعد مطلقاً الدين وإله الطبيعة ؛ وإنما قال : إن على العلم الجديد أن يحدد العلاقة بين الدين وبين العلم ؛ باعتبار أن العلم ضرورة لمستقبل إنسان والدين ضرورة لمأضيه ، لذلك فهو أول من انحى فى النهاية بعد أن كان أول من هاجم فى شبابه النسق الكنسى لاستغلاله لمصادرة الإنسان .. عاد فى النهاية ليعلن أن الدين والعلم كلاهما ضرورى لسعادة الإنسان ، والمجتمع ، فكان أول عملاق انحى بهدوء إلى قدرة العقيدة وأصالتها فى الإنسان .

* * *

● أوجست كونت .. لماذا استمرارية الدين ؟

وجاء العملاق الثانى ، وهو « أوجست كونت » ، وكان كاتباً « لسان سيمون » ، ومنه تلقى الأفكار الكبرى ، وعلى يديه تتلمذ ، وهو بلاشك تلحق به المدرسة الوضعية الأم كعميد لها .. هو أيضاً حاول أن يطرح الدين كعملاق ، ولكنه طرح الدين كتطور واستمرارية .. أى لماذا اندين ، ولماذا يستمر ؟ .. هو يرى أن الإنسان فى الواقع لجأ إلى مضمون الدين ، أو إلى عليّة الدين أمام عجزه عن تعريف بعض الظواهر ، فحاول أن يلقى بالتعليل على المجهول ، فكان المجهول الأول هو الدين الوثنى ؛ بمعنى صنم العشيرة أو القبيلة .. فكان الدين فى بداية منطلقه عشائرى وقبلى ، ثم بعد هذا تطور مع الذكاء ليصل إلى العقيدة المتعددة أو الإشراف ، ومع النمو الديمجرافى (السكانى) والانتشار فى بقاع الأرض ، أخذ مفهوم دفن الموتى مغزاه ، فأصبح القبر مركز إحياء الاستقرار ، وهكذا جاء الاستقرار بدلا من التشتت وبدأ النمو ، فهو يرى أن الاستقرار جاء من تعدد الآلهة ، ومع الامتداد أصبح هناك أكثر من إله لأنه كما زعموا لا يمكن أن يجيء فى

كل مكان .. وأخذ هذا التعدد في تصنيف الكواكب والنجوم وفق مراتب متنوعة ، ردحا من الزمن حتى تطور ذكاء الإنسان إلى أن هناك إله الآلهة ، وقاد ذلك إلى الوجدانية ، بمعنى أن الإله كان في البداية فيتشى أى محلّى ، ثم أصبح وطنياً ، ثم أصبح عالمياً وبعد أن كان الإله ملموساً ، تجرد بعض الشيء فأصبح في النهاية مجرداً تماماً وغيبياً ، وقال : إن ثمة مغالاة ، كانت في غيبة الإله ، وأدت إلى الميتافيزيقا .. فما الميتافيزيقا إلا الدفعة الهائلة لفترة نبوة بلا أنبياء ، فبدأت القضية تصبح ميتافيزيقيات تماما ومغالاة فيها . ومع المغالاة كان التأزم فسقط الإنسان على الأرض ليجت عن ذلك .. إذن هذه هي مراحلها ، وحاول إذن أن يطرح الدين بهذا المفهوم الوضعي البحث دون البحث في تأملات أخرى ، ويدوره سقط ، وقد لوحظ كما هو معروف أنه تأزم في نهاية عمره لي طرح ديناً وضعياً للحالة الوضعية متمثلاً في الكائن الأعظم وهو الإنسانية ..

وإن هذا الإنسان الذي سقط على الأرض لا بد له من دين وضعي يتمشى مع قدراته العقلية والعلمية ، والصناعية ، وبدأ يقبل يسينا وشمالا وكان راءعاً أن يرشح في النهاية دين الإسلام كدين وضعي للحالة الوضعية ، وقال إنه لا يمكن لدين أن يتمشى مع الحالة الوضعية إلا الإسلام لأنه دين عار عن الحماقات ، يتميز ببساطته وعقلنته ، وبقدرته على إشباع رغبة البحث عن الإله ، ولكن هل نقول عن « أوجست كونت » بعد موقفه هذا إنه سقوط عملاق .. إنه صحوة واستنارة وهدى عملاق ..

* * *

● كارل ماركس .. مرتد عن الإلحاد :

كارل ماركس أيضاً من العمالقة الذين ارتدوا عن الإلحاد ، وتراجع نسبياً في عداوته وهو من البداية لم يتخذ نفس الطريق ، وإنما استطاع أن يوقف مسيرة الأديان في المجتمع ، ومن يلاحظ أن أيديولوجيته المادية ألفها تحت تأثير أوروبا .. طرح الدين بأكثر من أيديولوجية ، وركز عليه ، والواقع أنه وقف من الدين موقف تحية ، وقال : لا يعينيني جوهر الدين ، وإنما يعينيني

دوره في بنية المجتمع ، فهو يحاسب الدين على دوره الاجتماعي في الاستغلال وتحذير الكادحين بقولته الشائعة : « الدين مخدر الشعوب » ، قلب بلا قلب ، وروح بلا روح .

والمقصود من الدين الاستغلال الكهنوتي الطبقي لأوضاع وأحلام الكادحين ، وكارل ماركس في مراسلاته مع البابا ، ومع زعيم ثورة الفلاحين وضح موقفه المؤيد للدين المؤثر اجتماعياً ، ففى رسالته المشهورة للبابا قال : « أيها البابا المقدس ، إن الإله الذى أوحى إليك بالوقوف ضد العائلة المقدسة ، ومع الكادحين إنما هو إله يستحق التقدير » ..

وقوله : إننى ما كنت أبداً منكرًا للإله ، وإنما داعياً لتحرر الإنسان !

* * *

🕒 سبنسر .. اعتراف بالفشل :

« سبنسر » يتميز عن هؤلاء العمالقة جميعاً بأنه تعامل مع الدين من خلال جوهريته . وإنما تصدى له من جذوره وأصوله على حد زعمه . ثم جاءت أزمته الصحية ، وبعد أن جاء الطبيب وسعه يقول لأخته : لقد انتهى ، فقال لأخته بعد أن فتح عينيه : لقد سعت ما قال ، ولقد قررت ألا أموت ، وكان في سن السابعة والثلاثين تقريباً ، وفعلاً قدر له الله أن يقترب من الثانية والثمانين ويتجاوزها بقليل ، ومعروف أن « سبنسر » طرح أولاً السؤال : ما هو قانون الكون الأساسى ؟ .. ثم صمم على اكتشافه ، ولم يبق أى عمل وظيفى ، وأتفق على هذا الاكتشاف سنوات عمره الطويلة ، وحينما استدعته الملكة « فيكتوريا » لتكافئه على أبحاثه وتلحقه بوظيفة علمية مرموقة - رئيساً للجامعة - قال لها : جئت إليك أيتها الملكة لأشكرك ، وفي نفس الوقت لأقدم لك استقالتي عن المنصب الذى لم أتقلده ! ثم واصل تفرغه لوضع قانون الكون .. بمحاولته دمج الموضوعات السيكلوجية في البيولوجيا ..

هذا العملاق قال : إن الدين حدث نتيجة لظاهرة نفسية بحتة ،

فالذى أدى إلى الدين هو الخوف . الخوف من الأحياء أدى إلى السياسة ،
والخوف من الأموات أدى إلى الدين .

وبدأ يطرح تساؤلات فيما زعم انه اهتزازات نفسية ومخاوف
الشياطين وغيرهم ، وصمم بعد ابحاث مكثفة على انه بذلك
قد صفى القضية تماماً ، وأن العقل المتطور المنتمى لا يمكن أن
يتأثر بهذه المخاوف .. « سبنسر » كان متحاملاً على نفسه في أيامه الأخيرة ،
كان مصمماً على اكتشاف قانون الخوف .. ويقول د. رشدى فكار : وكان
على أن أتابع سبنسر حتى اللحظة الأخيرة وقد اكتشفت أنه دخل قبره واقفاً
.. لقد تعامل « سبنسر » مع الموت بنفس اللغة التي تعامل بها معه رجال
التصوف ، لقد نظر في الكون في أواخر أيامه ، وأعلن انبهاره به ، ولكنه
عجز عن معرفة الدنيا ، ولهذا أعلن أنه عجز عن اكتشاف قانون الكون ،
وأعلن أنه انهزم ، ودعا إلى التساكن بين العلم والدين في النهاية معلناً بذلك
هزيمته ضمناً ، ونهاية تحدى عملاق .

ويقول الدكتور رشدى فكار : إن هذا الموقف ، بلاشك أنسى لكل
عالم أن يتخذه .. لأنه من العسير على النفس بعد طول عناء أن تعترف بالعجز
والفشل ..



● وساتر عاد الى الدين :

وساتر في نهاية المطاف لم يختلف كثيراً عن موقف باقى العملاقة حينما
أعلن أن فلسفته الكبرى قادتته إلى هزيمة نكراء ، ومن هنا كان تقدير فرنسا
لهذا العملاق ، وقبل موته طلب من رفيقة حياته « سيون دى بوقوار » أن
تأني له بقس ، ورغم دهشتها الشديدة واستنكارها قالت له : سأت لك
بالكاردينال ، فرد عليها بقوله : لا . لا أريد كاردينالاً ، إنه غشاش للإله ،
وإنما أريد قسا متواضعاً من قرابة متواضعة مغسورة ، وجاء القس واعترف
له بهزيمته .

.. ويتساءل الدكتور رشدى فكار : لماذا هذا الإصرار السطحي لا العمقى
لواقف غير قائمة على أسس .. أننا نكتشف أن الفكر العملاق أجاب اما بقضية

الإيمان أو اجابة اخرى .. إن كل منكرى الكون كان لهم نصيب من الإيمان ، لهذا أضع دائماً الفاصل بين مجرد الإيمان ، وبين قناعة الإيمان .. فالإيمان من المستحيل أن ينكر عن أحد مادام في الكون ، ولم يكتشف غموضه وأسراره وإلا ما كان عاقلاً .. فلا بد للعاقل أن يفكر وأن يعقل ، ويدرك أن هناك إيمان .. ولكن الفئة الأخرى وقتت موقفاً صريحاً من الإيمان ، بمعنى أنه ليس مجرد فكرة وإنما هو كائن داخل الإنسان ، لأنه متخوف ، ولكن لأنه واع وحامل للأمانة ..

.. وما أجمل القرآن الكريم حينما يقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (١) ..

فالقرآن العظيم جعل مرحلة لمجادلة تكون بعد علم ، فجعل العلم لأن وسائله تدريجية ، وحينما يتعمق به اعلم يصل إلى الهدى .. الهدى الذى يكتشف بعده أنه إنسان مهتد ، وصلى إلى قمة القمم فى الحوار ، وبذلك يكون من أصحاب الكتاب المنير ..

.. وروعة التحدى لاعجازى الخالد فى القرآن الكريم تتجلى أيضا فى هذه الآية « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك سؤ الخسران المبين » (٢) ..

وكخلاصة لهذا الحوار مع العمالقة فإن هذا الإنسان عليه أن يتروى ، وبقدر ما يصل إلى قمة العلم ، فهو يؤمن « وقل رب زدنى علما » (٣) .. وأتساءل أيضا : كيف يفعلون عن هذه الآية الكريمة وهى واضحة الدلالة : « سأسرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » (٤) .. و « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم » (٥) .. (صدق الله العظيم) ..

* * *

(٢) الحج : ١١
(٤) الامراف : ١٤٦

(١) الحج : ٨
(٣) طه : ١١٤
(٥) النجم : ٢٩ ، ٣٠

(٩)

انسان ربع القرن العشرين الأخير وتطلعاته العلمية المثيرة

هل هناك حدود للعلم ، لا ينبغى عليه أن يتخطاها ؟
وهل يصل العلم بجموحه الى نقطة الاقتراب من الدين أم الى نقطة
اللاعودة ؟
كان هذا السؤال مثارا لتفجير عدة حوارات مع الدكتور رندى فكار -
نبداً بأولها :

المبحث الأول

المحاولة العلمية لاقتحام مجهول الموت

● فى منتصف الثمانينات من هذا العصر .. يطالعنا الإنسان المعجزذ ..
الإنسان الذى ضارب فى كل الموائد ، وخسر فى كل الموائد أيضاً ..

اليوم بلاشك ، ومنذ بداية ربع القرن الأخير .. بدأت تطلعات الإنسان
المفكر ، الإنسان الباحث .. الإنسان الذى يحاول أن يتحدى المستحيل .
تجبه به ليس فقط إلى أن يقف فى طموحاته عند حد ما يجرى فى الحياة ،
وإنما أيضاً ، بدأ يزعم أنه سيقتم الفرصة الأخيرة من المجهول ، وهى ماذا
بعد الموت ؟ ..

لا شك فى أن هذا الاتجاه .. مغامرة .. وهى مغامرة تكتسى بالطموح
إلى التعامل مع المستحيل ، كما تكتسى بالهروب إلى الأمام ، والخروج . خروج
الإنسان من الإنسان .. فالإنسان حالياً وهو يعانى من عدم قدرته على أن
يساير موكب الحياة يحاول أن يتجاوز الحياة ، فيبحث فيما بعد الحياة .

والآن ما هي نتائج هذه المحاولات الفكرية ، أو هذه التأملات التي تتسم بطابع التجريب ، وتحتمى بعلمية المخبر والمعمل ، لا بمجرد المضاربة الذهنية التجريدية ، الفلسفية .

في منتصف السبعينات تألفت مجموعة من الباحثين الأمريكيين في الطب العصبي ، وأيضاً في الفلسفة وأشرف على هذه المجموعة عالم كبير هو البروفيسور « ريمون موديه » ، وأستاذة قديرة هي الدكتورة « اليزابيث هوث » وأخرجوا كتاباً كان له دوى عالمي هو « الحياة بعد الحياة » ، وقد شجعهم النجاح العالمي في مواصلة دراساتهم ليخرجوا كتاباً ثانياً بعنوان « أضواء على الحياة بعد الحياة » ، وترجم الكتابان إلى لغات العالم .. وهذه الدراسات التي حازت التجسس على غرفة المجهول .. مجهول الموت ، نالت التشجيع والتقدير في الأوساط العلمية ، ولكنها توبلت بالتحفظ والنفور ، بل وبالاحتجاج في أوساط أخرى ، خصوصاً من قبل الكنيسة ، وبعض المثبثين بسبداً : من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه .

ماذا فعلت هذه المجموعة من الباحثين ؟

قامت برصد ١٧٠ حالة لمرضى ماتوا موتاً إكلينيكياً (الموت الإكلينيكي هو المرحلة التي تسبق موت المخ التي عندها يدخل الميت في مرحلة ثانية هي الموت البيولوجي .. النهائي) وفترة الموت الإكلينيكي تتميز بالسكون التام ، وقد تستمر إلى نصف ساعة ، ومع توقف الحياة تماماً يظل الجسم محتفظاً بحيويته ، وبقائه المتكامل المتجانس ..

المهم أن حالات الموتى (إكلينيكياً) التي أجريت عليها هذه التجارب كانت لأناس من مختلف مراحل العمر والثقافات والمهن ، ومن الرجال والنساء ، وكانوا من ولايات متفرقة متاعدة من أمريكا ، وقام الإخصائيون باستنطاق هؤلاء الذين قدر لهم أن يعودوا إلى الحياة إما بالتدخل الطبي السريع أو بالمصادفة ..

وكان السؤال الموجه الى كل حالة منهم هو : هل تتذكر ما وقع لك خلال هذه الفترة - فترة الموت المؤقت الإكلينيكي ؟ ..

.. وحاول الأخصائيون أن يركزوا من خلال الإجابات على القاسم المشترك الأعظم في رواياتهم ، أى ما اتفقوا جميعاً على الشعور به ، واستبعدوا الاستثناءات .. أى الأمور التى شعر بها البعض ، ولم يشعر بها البعض الآخر :

ما هى الأقاويل التى اتفقوا عليها جميعاً ، وبلا استثناء ؟

سمعوا أصوات صلصلة ، ورعد واهتزاز رهيب وأصوات مزعجة ..

ثم ألقى بكل منهم فى ممر مظلم طويل ، انتهى فى نهاية المطاف باللقاء بمن ماتوا من الأصدقاء والأقارب الذين كانوا ينتظرونهم فى آخر الممر ويرحبون بهم ، ويشجعونهم على الحضور ..

واتفقوا جميعاً على حدوث انفصال تام عن الجسد بحيث يرى الشخص جسده من عل ، بكامل جزئياته ، وأعطى بعض المستجوبين تفاصيل محددة لما يدور خلف أسرتهم ، وهم فى حالة الغيبوبة الكاملة ، وأعطوا بعض الإيماءات التى صدرت عن المرضات وبحركات وتعرفات من وقائع خفية من المستحيل على الشخص أن يراها ، وهو فى موقعه فى السرير ، وحددوا حركات بعض الأطباء التى قاموا بها فى حالة الإنعاش ، وكرروا بعض الكلمات التى قالوها فيما بينهم بأصوات هادئة ، حتى لا يسمعها من يحيط بهم بمعنى اللغة الرمزية بين الأطباء ، يرغم أن بعض هؤلاء المستجوبين لم يكن لهم تكوين طبي ..

ومن الأمور المتفق عليها أيضاً بين المستجوبين عملية عدم الرغبة فى العودة إلى الجسد ..

.. أما عن الاستثناءات فقد لاحظ بعض المستجوبين ممن كانوا يتمتعون فى حياتهم بسلوك قويوم وطيب خيوطاً من النور تساعد على الاسترخاء والهدوء والرغبة فى التطلع والاستزادة من هذا النور ..

أما عن الكتاب الثانى .. لفريق العلماء الذين يرأسهم « ريمون مودى » « أضواء على الحياة بعد الحياة » .. فهو يربط بين معطيات الكتاب الأول

وبين دراسات « يونج » عميد علماء النفس المعاصرين ، وتجربته الشخصية في مواجهة الموت الإكلينيكي ، « ويونج » هو رائد مدرسة التحليل النفسى – الذى لا يركز كما هو الحال عند فرويد عن الغريزة – وإنما يوسعه ويربطه بالاشعور الجمعى : أو الترسيب للاشعور الجمعى عبر الحضارات ، بمعنى أنه حاول أن يوسع قضية التحليل النفسى ..

المهم أن « يونج » عندما صيب بأزمة قلبية وراح في غيبوبته . وروى نفس حكايات الأصوات المزعجة ولصلصلة والاهتزازات الشريدة . والممر المظلم ، ولقاء الأقارب الذين ماتوا ، والانفصال الروحى عن الجسد .

ويقول الدكتور رشدى فكار : حينما نتحدث عن موضوع علمى يستند إلى شهادة أحد عمداء علم النفس « يونج » ، و ١٧٠ حالة ويقوده خيرة علماء أمريكا فى الجهاز العصبى والفلسفة ، فنحن لسنا أمام قضية شعوذة وتهريج ، وإنما أمام قضية تستحق منا وقفة ، لأنهم باحثون معمليون ، يحاولون أن يتعاملوا مع المستحيل .



● لماذا هذه البحوث أصلا ؟

هذه البحوث إن دلت على شىء فإنما تدل على أن هذا الإنسان .. إنسان القلق الأصيل ، الذى يطلق عليه الآن إنسان نهاية القرن العشرين ، إنسان القلق الأصيل ، أو إنسان التعامل مع المستحيل ، يعنى هذا الإنسان الذى تجاوز حدوده ، ولم يعد يرضى بأن يشى على الأرض ، وقرر أن يتحرك فى الفضاء ، بالطائرات ، ثم تجاوز هذا التحرك فى الهواء ليمشى خارج الأرض .. يمشى على القمر ، هو إنسان فعلا متمرد على ذاته ، هو الإنسان الذى لا يريد أن يقبع حيث قدر له أن يقبع فى البقاء على كوكب الأرض ..

إنسان يمكن أن نسميه بالإنسان العملاق ، وهو فى نفس الوقت إنسان التفجير والتمرد وافتقاد الوزن ..

من هذه الزاوية يمكن أن نربط هذه البحوث بتطلعات الإنسان الذي ضارب أولاً على رفايته ورخائه ، حتى تحقق له الرخاء الشامل ، والاسترخاء الكامل ، وبرغم ذلك أنقلت عليه الهموم بداخله لافتقاره إلى إطار الأصالة ..

لماذا كل هذا .. لماذا يحلم ؟ .. إن الإنسان القديم ، والوسيط ، وإنسان بداية العصر الحديث ، هو إنسان هموم تحيط به من كل جانب ، إنسان التعامل مع المشكلات الملموسة ، إنسان يجد صعوبة في الحياة اليومية ، في تعامله مع الأمراض ، وصعوبة في التعامل مع المناخ والبيئة وأعاصير الجو ..

أما الإنسان المعاصر فقد تجاوز هذه المشاكل بوسائل التدفئة والتبريد والسيارات والطائرات والصواريخ ، والإعجاز الطبي في مواجهة الأمراض والحوادث بالعمليات الجراحية الخارقة ، وعمليات إعادة الصياغة بالتجميل ، ونقل الجلد والأعضاء ، ومعرفة القوانين البيولوجية والفسولوجية .

إنسان استطاع فعلاً أن يتحكم فيما يحيط به نسبياً ولكن تحكمه هذا جعله يفضل جانباً هاماً وهو أن الإنسان القادر في داخله ، الإنسان المتطلع المتسائل أبداً - لماذا كل هذا ومن أجل أى شيء أحيأ .. أنا أحيأ فعلاً حياة مرفهة وهادئة حياة استرخاء وتمتع ولكن لماذا ؟

ثمة فراغ زمني وخواء نفسى ومكانى ، بدون الإيمان كأنهم يقولون : « ان هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا » (١) .. أى أنهم يكملون مسلسل الدهرين ..

أما رسالة الأنبياء الأكرمين فنظرتهم إلى الحياة تقول : إن الحياة الدنيا بلاء وإبتلاء .. إبتلاء بالشر وبالخير ، والإنسان مختبر من ربه ، وعليه أن ينجح في هذا الاختبار .. فهناك إذن نهاية كبرى لهذا الإنسان ، وهى أعطيت

(١) المؤمنون : ٣٧

له بجوار السماء ، وأنه إن شقى أو سعد في حياته فهو يعلم أنه مسافر ، وأنه عابر طريق ، وإن حياته كما صورها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كأنما جلس تحت شجرة ثم تركها و نصرف .

أما هؤلاء الدهريون الجدد فإن هومهم تنحصر في أن هذا الإنسان لا يريد أن ينصرف ، كل منهم متمسك بالحياة . وكل يريد أن يبتى فيها ، وكل يريد أن يتمتع بكل دقيقة منه . وبالتالي افتقدت هذه الغاية الهائلة . وهي أن الحياة ، بلاء .. والأخطر أن هذا الإنسان الدهرى يحاول أن يجعل من الحياة عبارة عن شقة مفروشة أبدية ! ..

ولهذا بدأت التساؤلات ، لماذا اموت ، وماذا بعد الموت ؟ لأنهم لا يريدون أن يرحلوا ، والمنصية - وشر لمصائب ما يضحك - أن هومهم في عدم الرحيل مع خواء الإيمان في نفوسهم يجعل الكثيرون منهم يتعجلون الرحيل دون وعي منهم ، وفي إطار من الاكتئاب النفسى الذى يرزحون فيه ، يتعمدون الانتحار للتخلف من علامات الاستفهام التى لا إجابة لها إلا فى حوار السماء . حيث يعود الإنسان راضياً مطمئناً قابلاً لهذه الحياة كما أرادها الله .. ونلاحظ الآن موجة عالمية للعودة إلى الروحانيات .. ولاشك فى أن الإسلام يقود هذه المسيرة إلى الروحانيات لا عن طريق الدعاية والتبشير . وإنما عن طريق التأمل والصلاحية وتقديم الإجابات الشافية لكل الأسئلة المعلقة الحائرة ..

إن الإسلام باعتراف الخصوم قبل الأصدقاء يشق طريقه وأصبح له قدرة لا يمكن إغفالها فى ساحة الكون الفكرية ، الإسلام نشط وحي وموجود ، وهناك فى الآونة الأخيرة تطلعات بوذية لاسترجاع الروحانيات ، وهناك تطلعات موضوعية للمسيحية . ثم تيارات مسيحية تحاول أن تخفض من حدة الغموض فى العقيدة المسيحية ، وتحاول أن تعقلنها بروح العصر ، وهى باطبع فضية ليست سهلة ، ولكنها جديرة بأن يشار إليها ..

حتى اليهودية تحاول بدورها أن تقود مسيرة الاتجاه للروحانيات فى مشارف القرن الحادى والعشرين ، بمعنى أن تستقبل الإنسان الجديد أندفع للإيمان فى غرفة الانتظار الكونية .

نأخذ مجرد مثال : دراسة « هارفى » .. التى تحمل عنوان :
« أباطيل سقراط » ، وهى بالطبع إلى جانب ما فيها من شروح وتفصيلات
تتجه أساساً إلى فكرة يروج لها اليهود الأمريكيون الآن ، وهى أن اليهودية
ترتكز على الاتجاه البروتستانتى ، يسكنها أن تقود الكون ، هذه هى خلاصة
نظرية هارفى ، وهى تمثل الإبراهيمية الأساسية ، وديانة سيدنا إبراهيم ،
وإنها الجذور الأولى .. وبالطبع لها الطابع السياسى المقنن ، وتوضح
الضغوط التى تمارسها اليهودية الآن فى العالم ، وتحاول وهى الأقلية ، أن
تصدر وأن تقود غالبية الكون هذه ..

وفى هذا تطرف ومغالة وتحصيل للأمر بأكثر ما تتحصل .. كيف يمكن
أن تتحول البروتستانتية ، وهى من أقدر الاتجاهات المسيحية المعتدلة المرنة
المعقنة .. كيف تسمح لنفسها أن تكون جسر عبور تعبر عليها اليهودية لتقود
العالم ؟ ! .

أعتقد — يقول الدكتور رشدى فكار : إن نظرية هارفى فى أباطيل سقراط :
وهو الكتاب الضخم الذى يقع فى ٨٠٠ صفحة جواز مرور لتقود اليهودية
أمريكا البروتستانتية المسيحية ، ثم تقود العالم ..

* * *

المبحث الثاني

الكمبيوتر .. واستئناس المستحيل

استمراراً لحديثه حول الإجابة على سؤال عن حدود آفاق وطموحات العلم وهل لها من نهاية؟ .. يواصل الدكتور رشدي فكار الحوار :

.. فضولية الإنسان الذي اطمأن لتفجير طاقاته الذهنية جعلته يحاول أن يستغل هذه الطاقات التي استطاعت أن تقدم لنا الكمبيوتر ، وأن تفجر لنا الذرة ، وأن تعبر الغشاء الخارجي للأرض وتخرق حجب الفضاء ، وتخطو بنا هذه الخطوات العملاقة إلى القمر ، بل ونمشي على صخوره .. وجعلته فضوليته يتساءل : وماذا وراء الكون؟ .. نفتحت شهيته المعرفية إلى ما لا نهاية .. وفي أحد المؤتمرات العلمية العالمية التي انعقدت في باريس ، وحضرتها مشاركاً ، طرحت على بساط البحث قضية الإنسان ومستقبل العلم ، ولاحظت في هذا المؤتمر أن ثمة اتجاه إلى حد ما يطرح رأياً بأن للطموحات حدود ، ويخشى أن هذه الطموحات تتجاوز الإطار المشروع إلى اللامشروع ، وتتحول إلى نزوات ، وإلى تفرغ للردودية المادية للأرض في بحوث ستصل بنا في النهاية إلى نقطة البداية ..

ولاحظت أن ثمة اتجاه ثاني معاكس لهذا الرأي يقول : نحن في منطلق عصر جديد هو عصر الكمبيوتر الذي سيقودنا إلى استئناس المستحيل — بمعنى أن ما يبدو مستحيلاً سيصبح ممكناً وجائزاً ثم مستأنساً .. ويقول أصحاب هذا الاتجاه إن الكمبيوتر في الثمانينات حالياً يسهل ويختزل كل ضروب الحياة ، في العلاقات العامة ، وفي المسافات ، وفي تراكم المعلومات ، وفي إعطاء نتائج ، وقرارات فورية لقضايا معقدة للغاية ، كانت تحتاج لسنين للوصول إليها .. وغداً — وغداً لناظره قريب — سيدخل الكمبيوتر الأسرة وسيصبح لكل إنسان كومبيوتر ، وسيصبح الكمبيوتر هو العقل البديل ، وبالتالي يمكن للعقل أن يستأنس المستحيل لأن الكمبيوتر سيكون

بالنسبة له إطار أصالة ، يغميه عن التردد ويحميه من التلكؤ والجبن ، ماذا سيقدم لنا الإنسان الكومبيوتر ؟ ..

سوف يستغنى تماما عن المجهودات التي يبذلها إنسان اليوم ، ويصبح هذا الإنسان هو المنظم للكومبيوتر القادر على أن يستغل قدراته في أن يتعامل مع ما بعد الكومبيوتر ، يعنى يستطيع أن يقفز فوق الكومبيوتر ليكتشف كومبيوتر أعقد وأكثر قدره ، أى ليختزل المختزل ، ومجموعة من الباحثين الفرنسيين ترى أن الكومبيوتر سوف يقلب الأمور رأساً على عقب ، وأن كثيراً من الطموحات التي يعطى لها أهمية حالياً سوف تصبح ثانوية في المستقبل القريب ، وتتداعى أمامه بالتالى طموحات جديدة تتمشى مع القدرة المتنامية للكومبيوتر .. الذى يحضر له الأكل مع الإنسان الآلى المبرمج ، الذى ينظم له الغرفة ، ويساعده أيضاً على النوم ، بل يساهم في تفكيره . وسيقف الإنسان عند رؤوس الموضوعات فقط ولا يشغل ذهنه بتفصيلات الجزئيات ، وبذلك سوف يصبح لديه الفراغ الهائل الذى يستغله في إطار الخلق والإبداع والإبتكار .

وفي مواجهة هذا الرأى الذى يشيد بدور الكومبيوتر كمعين لتطور الإنسان وتقدمه يتساءل الدكتور رشدى فكار : ولماذا لا تبدو قضية الكومبيوتر معاكسة لهذا التصور ؟ ..

إنه قد يكون سببا في خسارة الإنسان لا ربحه ، ومدعاة لإزعاجه ، بل ولتبليد حسه وفكره .. بمعنى أن هذا الإنسان الذى يكابد ويفكر ويشعر ويتأمل ، ويتعاطف ويتفانى . بدوره سيقلد الكومبيوتر بعد أن قلده الكومبيوتر فيفتقد العواطف والمشاعر والمعاناة .. والمعاناة من الخطأ في اعتقادى أن نراها بمعيارية سلبية ، فهى كثيراً ما تكون وراء انخلق والإبداع ، خصوصاً في الفن والفلسفة ، أى تدفعه إلى أن يتأمل لأنه يعانى ، لأنه يشعر بنفسه وبالآخرين . أما إنسان الكومبيوتر المقلد له ، فلن يتأمل أو يشعر بالآخرين ، ذلك لأن الكومبيوتر قفل عليه الدائرة ، وحوله إلى إنسان الأرقام والحسابات المضمونة المحكمة ..



المبحث الثالث

انسان الحيرة . . ونظرية الذكاء الكونى

يتواصل الحوار مع د. رشدى فكار عن تجاوزات العلم وحدوده فيقدم صورة متشائمة ترسمها مجموعة من قادة المسئولين عن التقدم التكنولوجى والبحث العلمى التطبيقى فى منظمة الأومايشى : وهى أرفنى مؤسسة جامعية فى الولايات المتحدة الأمريكية بسعهد ماسوشوتى التكنولوجى ؛ وهذه المنظمة فى الواقع لا تضم مجموعة واحدة ؛ بل تضم مجموعة أولى هى مجموعة « فورستر » ؛ ومجموعة ثانية هى مجموعة « ميدوس » ومجموعة « فورستر » تضم ١٥ عالماً أكاديمياً يعملون تحت إشرافه ، وقد أخرجت نظريته بعنوان « ديناميات العالم » . « وميدوس » بدوره قام بتصحيح النموذج الذى أطلق عليه النموذج الثانى وأجرى تصميماً آخر أسماه النموذج الثالث ، وعرف أيضاً بعنوان شهير شهير هو : « نظرية حدود التنمية » . وللعلم هذه المجموعة الفكرية لا تعتمد على مجرد التحليق الفكرى ، وإنما هى مجموعات علمية تكنولوجية ترتكز على الجداول الرياضية ، والكومبيوتر .

ما هى بالتحديد أبحاثهم ومعطياتهم العلمية ونتائجها ؟

لقد قام الباحثون والعلماء والأكاديميون بحصر شامل لإمكانات الكون فى السنوات القادمة وتطوره الديمقراطى وتطوره التكنولوجى والعلى وطموحاته ، وأدخلت هذه المعلومات فى الكومبيوتر فماذا قالت مجموعة « فورستر » ومجموعة « ميدوس » ؟ لقد التقيا فى أنها أعطيا نهاية تقريبية لديناميات العالم أو حدود التنمية فى بداية القرن الثانى والعشرين . حيث تنتهى حدود التنمية ، ويصل العالم إلى الاختناق . وقالوا إن هناك منطقة تهوية مدتها ١٢٠ عاماً قبل كارثة الاختناق ، أى أنهم وصلوا إلى الطريق

المسدود الذي تحدث عنه الفلاسفة ولكن بالبحث الرياضى العلمى التطبيقى .. وقالوا فى تبرير ذلك إن السبب يرجع إلى أسلوب إنسان العصر الذى يعمل على الاستيلاء بالاستهلاك ومحاولة امتصاص خيرات الكون بطريقة واعية أو غير واعية بنوع من الترف أو التلهى بالاستهلاك .. هذا مع وجود التناقضات الحادة .. هناك بشرا لا يجد ما يأكله ، وبشر آخر يلقي بكل شىء ويأخذ أقصى ما يستطيع ، ثم يتحول كل ما يتبقى إلى سواقط ونفايات .. هذه الصورة تؤكد لنا إلى أى مدى وصلت الحيرة الحقيقية لمستقبل البشرية ! .

ولكن ماذا عن الحلول التى قدموها لهذه الحيرة ، وهذا الطريق المسدود ؟

.. بالنسبة لـ « فورستر » فهو يقول إن هناك حلولاً تهدىء أو تخدر .. حلولاً تخديرية ، وقدم بالفعل حلولاً تبدو خرافية مستحيلة ، مثل إلغاء الصناعة نهائياً ، ونادى بأن يعتزل الإنسان الصناعة بعد أن وصل إلى قمة مجده فيها .. قال إن الحل الجذرى هو فى الاعتزال الصناعى أو الوصول إلى التدنى الكافى ، والإنيار بتعميم التلوث ، وانخفاض المستوى الصحى فى المناطق المختلفة ، ومحاولة تطبيق نظرية البقاء للأصلح ، أو الانتقاء العنصرى عن طريق مفهوم أن على غير القادر على أن يحمى فى ظل التلوث أن يرحل ، وهؤلاء بالطبع هم الضعفاء من غير القادرين أو المستضعفين ، وهنا تبدو قضية سوء النية فى تعميم التلوث لكى يخفف من الدفع الهائل للنمو السكانى « الديمجرافى » على مستوى الفئات المستضعفة غير القادرة على مواجهة هذا التلوث ، وهذا طبعاً حل لا أخلاقى ، وعودة إلى العنصرية الجوبونية ..

.. وهناك حل آخر لا أخلاقى تلمس ظواهره الآن فعلاً ، وهو مطبق نسبياً .. حل الاستنزاف الواعى المحسوب عن طريق الحروب المحلية وتشجيعها ، أو حل عن طريق عدم مواجهة الكوارث الطبيعية بمعنى دع الكوارث تعمل عملها ، وهذا ملاحظ فى أزمة الجفاف فى المناطق الإفريقية المنكوبة به .. فقد حدث نوع من الرضا الغنى عن الكوارث الطبيعية ، ومنطقهم يقول : بشرط حوالينا لا علينا !

وثمة نظرية سود الآن في الغرب . ونشل انقلاباً فكرياً مجتاحاً لا يقوى على صده أحد ، وهى تبرهن على أن حدود العلم اللانهائية هى العودة للإيمان برغم رحلة تبججه وعناده وحيرته وقلقه .. وهى نظرية الفضاء الكونى ، أو الذكاء الكونى ، وهى من وضع « فريد هويل » وهو مؤسس وعميد معهد التنظير الفضائى ، ومن أعظم علماء الفلك بجامعة « كمبريدج » ، وهو بريطانى الجنسية ، وقد استدعتة ملكة بريطانيا مؤخراً ومنحته أرفع ألقاب النبلاء ..

وهذه النظرية تهز الآن كل الأوساط العلمية لأنها لم تكنف بطرح اجتهاد جديد فى إطار نظريات الفضاء . وإما وضعت كل النظريات السابقة بسا فيها النسبية لأينشتين والفضائية لساجان والوجودية السارترية . ونظرية البنج بونج ، ونظرية التبخر المعروفة لدى الملكيين وعلماء الفلك ونظرية الثقوب السوداء ..

لقد صفى « فريد هويل » حساباته مع الجميع . حتى دارون دحض تماماً نظريته فى التطور والارتقاء الطبيعى والعنصرى .

والمهم أن « فريد هويل » هذا ليس فيلسوفاً ، وإنما هو عالم فضاء ، رياضى ، وقد أكد ببحوثه العلمية وخصوصاً من يقرأ نظريته بعمق - أن الأجرام السماوية والشهب التى سقطت على الأرض ، حينما تم تحليلها ، وجد عليها كائنات ملتصقة بها أذكى وأقدر من كائنات الأرض ، وهذا يعنى ان ثمة حيوات أخرى مؤكدة لا مجرد فرضية فى الكون ، بمعنى أن هناك ذكاء كونياً متدرجا وبالطبع تقود فى النهاية إلى الألوهية ، وبذلك صفى « هويل » حساباته مع أخطر نظرية سادت فى السبعينات حتى يومنا هذا ، وهى نظرية الصدفة والضرورة ، فالمعروف أن العلماء « الأذكياء » فى علم الأحياء وعلم الحياة والعديد من العلوم الفيزيائية كثيراً ما يلقون أفكارهم التى لا يجدون تفسيراً لها على الشماعة ، التى هى بمثابة قميص عثمان ، فيلحقوها بالصدفة والضرورة ، التى أصبحت إصاراً تنظيرياً بلا حدود ..

إذن لا صدقة بالاكشاف الجديد ، ولا ضرورة ، والحياة في هذا الكون تسير بتوجيه إلهي ، والذي قلب نظرية النشوء والارتقاء أنها كانت تتصور أن الحياة نشأت وتطورت على الأرض بالصدفة ، ولأن أثبتت الشهب الساقطة ومعها بقايا الكائنات الفضائية الأكثر ذكاء وتطورا من الإنسان خارج نطاق الكرة الأرضية سقوط دارون في بئر غبائه ، بعد أن فتن بنظريته علماء ومفكرين يرددون نظريته كالبيغاوات ، بأن الإنسان من أصل القرد ، ولا وجود لسيدنا آدم « أبو البشر » - حاشا لله - والعجب العجاب أن الشق الماركسي الملحد لم يرد على « فريد هويل » بكلمة ، ولا الشق البرجوازي الغربي الملحد أيضاً قوى على الرد .. والمهم أن مجلة « الباري ماتش » الفرنسية العالمية أفردت لنظرية الذكاء الكوني ١٧ صفحة برغم حساسيات الثقافة الفرنسية تجاه الانجليز عموماً وثقافتهم الإنجلوساكسونية ، وقد كان بمقدور الفرنسيين أن يلتزموا الصمت احتراماً لعلمائهم من مجموعة « باستير » ومجموعة الضرورة والصدفة لـ « جاك مينور » ولكنهم اخنوا لحقائق العلم الدامغة التي تؤكد وجود الخالق جل وعلا ..



● العلماء انتجوا خلية ضفدع :

.. تجربة علمية أخرى توضح فضول الإنسان الذي لا يفك عند حد .. والتجربة بدأت بسؤال : ما هو المدى الذي يمكن أن يصل إليه العالم في معمله ؟ .. وحول هذا السؤال اجتمع في مدينة لوزان بسويسرا ٣٠ عالماً في شتى التخصصات العلمية والإنسانية في لقاء دام أسبوعاً ، وبعد مناقشات مستفيضة قالوا كلمتهم : نعم للتحدي العلمي ، ولكن لا داعي للمجازفات غير المحسوبة ، وبدأت تدور القضية حول التجارب العلمية التي يجريها بعض علماء البيولوجيا « الأنجلوساكسون » والتي تهدف إلى تخليق أو تصنيع الخلايا ، ومحاولة توليف خلايا بشرية وحيوانية من أجل صنع إنسان أو حيوان من غير وسيلة التلقيح الجنسي ، إما في صورة طبق الأصل أو في صورة جديدة لم يعهدها الكون ..

وقد وصلت هذه التجارب المعملية البيولوجية إلى حد الإعجاز العلمي

حينما نجحت بعد ولادة طفل الأنايب إلى تصنيع خلية ضدع دون تلقيح ،
ووصل بها الفضول إلى دمج خلية إنسان بخلية فأر ، مما كان نتيجته أن
النهت خلية الفأر خلية الإنسان وشجع ذلك العلماء إلى محاولة إنتاج الفأر
الإنسان ! .. وكان لابد من وقفة لعلماء ليتأملوا مسيرة التطور العلمى ومدى
حدوده ، قبل أن ينقلت الزمام مع تحدى قوانين الطبيعة ، وقبل أن تخرج
من بين جدران المعمل كائنات وحشية مشوهة تعيد إلى الأزهد أسطورة
« فرانكشتين » ! .

ولعل ما زاد من تأزم الموقف أن بعض العلماء أغلقوا معاملهم وأحدهم
وهو أمريكى انتحر فى معمله ، وذلك نتيجة لفقدان توازنهم النفسى بين
طموحاتهم العلمىة الخارقة للطبيعة ، والرعب الذى داخل نفوسهم مما سيؤول
إليه حال الإنسانية حينما ينقلت الزمام .

ويقول الدكتور رشدى فكر : إن هناك عدة يارات برزت فى هذا اللقاء
الذى ضم علماء الطبيعة والعلوم الإنسانية الذى يدور حول التحدى العلمى
أو التنبؤ العلمى بالنسبة للقرن القادم ، فقد برز اتجاه يشجع مسيرة علم
البيولوجيا على إطلاقها ، وترك الجبل على الغارب لقضية الدراسات الطلائعية
فى ميدان علم الأجنة كما يحلو لبعض تسميته ، ودفع الطموحات بغير حدود
ويقول العلماء من أنصار هذا التيار إن معجزات العلم فى القرن
الحدى والعشرين لو أطلع عليها أبناء نهاية القرن العشرون لاعتبروها من
الخوارق مستحيلة الحدوث ، وخصوصاً فى مجال الأجنة ، وهم يتنبأون بأنه
على مطالع القرن القادم سيكون على طهر الأرض مالا يقل عن ١٠٠ إنسان
من صنع الإنسان !

.. وشئة فئة أخرى أعطت ثقلها مع المضاربة والمجازفة « المحسوبة » لميدان
هندسة الأجنة وتصنيع الخلايا باعتبار أن ركب العلم لا يتوقف ، وأنه لا يمكن
إلا أن يصيب إلا إذا أخطأ ..

.. وهناك اتجاه آخر وهو الذى كنت من أنصاره - يقول الدكتور رشدى

فكار - اتخذ موقفاً - لأقول مخالفاً : أو موافقاً - ولكنه يبدى التحفظ على
أى مسيرة تتحرك ضد قوانين الطبيعة .. بمعنى أن علينا أن نجتهد في إطار
علوم الأجنة والبيولوجيا بصفة عامة ، ولكن مع مباركة قوانين الطبيعة ،
وقلنا لا للاجتهد الذي يقوم بتفجير هذا القانون المقدس الطبيعي الكوني
الدقيق ، وذلك بدافع الإيمان العميق لأن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء
وفدوره بقدر ، وعلينا أن نحاط في مجال المجازفة بالقوانين الصارمة التي
أنزلها الله تعالى .. ومنا من كان يرى أن هناك أموراً أهم من تجارب هندسة
الأجنة فبدلاً من أن نجتهد في صنع إنسان جديد علينا أن نرفع عن الإنسان
الموجود مشكلاته وتخلفه وأمراضه ..

كانوا يسيلون إلى ابراز معاناة الإنسان الموجود ويرون الا داعى هناك
لأن تتعرض لأمور تدخل في باب الفضول والكساليات . ومن ناحية أخرى فإن
العلم - وهذا ما أقوله بصوت واضح - إنه بقدر ما استطاع أن يعطى ثقة
هائلة للعلماء فيما يفعلون ويقدمون للبشرية من ميزات خارقة وتناجج عسلافة؛
بقدر ما أفع فئة أخرى من العلماء أيضاً بأن هذا التقدم العلمي أكد إلى جانب
ماهو مؤكد الإيمان بخالق هذا الكون ، واتذكر كلمة من أحد العلماء « إن
الخالق لم يقدم لنا قمة الكمال فيما خلق فقط . ولكنه قدم إلينا قمة الجبال
أيضاً فيما خلق » .

ويستدرك الدكتور رشدى فكار ليقول: وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك
بعض الماديين الملحدين من علماء البيولوجيا الذين يقولون : أعطوا الثقة
للمعمل ، لأنه سينتصر أخيراً في قضية تخليق الإنسان ، وزعموا ان الإنسان
سيخلق صورة منه ، وهو ما يزال على قيد الحياة ، بل ووصلوا إلى رى
يقول : بأنهم بالتالى سوف يتجاوزون الموت ..

.. وعن أطروحته العلمية داخل هذا اللقاء الصامى المثير يستنورد
الدكتور رشدى فكار ليقول :

لقد دافعت - من واقع تخصصاتى الاجتماعية - عن الإنسان من حيث
شموليته لا تجزئته بعيداً عن محيطه الاجتماعى ، بمعنى أننا لا يمكن أن

نعالج أغوار الإنسان بمعزل عن بيئته الاجتماعية التي تؤثر فيها وتتأثر بها ، ولم أقف عند حد دراسة الإنسان في شموله فقط ، وإنما حاولت أن أربط هذا الشمول بمقوماته الروحية ، وتعامله مع الكون كقوانين طبيعية ، بمعنى أن الإنسان لا بد له حتى يعي إنسانيته أن لا يكتفى فقط بالنظر في حياته اليومية الاستهلاكية ، وإنما عليه أن ينظر فيما حوله في هذا العالم ليتأمل أين وضعه في هذا الكون وما يحيط به من جبال ووديان ، وتجوم وحركة كونية هائلة ، فربما هذا يعيد إليه توازنه في بعض لحظات الأزمة ، وهذا التأمل الكوني إلى ما وراء الكون إلى الخالق المدبر لهذا الكون ..

.. اما عن تجارب طفل الأنابيب .. فقد أشاروا إليها عرضاً في بداية اللقاء كمنطلق لنجاح علم هندسة الأجنة ، ولكن كان رأيي الذي أعلنته أن ذلك ليس بابتكار ولا بخلق جديد ، ولكنه إعادة صياغة لشيء معروف ، ويحدث كل لحظة في عالمنا خصوصاً في عالم البحار في مجال الأسماك التي تبيض البيض ويتم تلقيحه خارج الرحم ، بل إننا نعلم أن بعض المخلوقات يتم تكاثرها بالانفصال والتكاثر بدون التلقيح الجنسي ..

وعموماً فقد اتفق المجموع من العلماء على : نعم للتحدي العلمي ولكن مع جانب من التواضع ، بمعنى : لا داعي للمجازفات غير المحسوبة ، حتى لا يفلت عيار العلم فيما لا طائل من ورائه ..

* * *

(١٠)

أمتنا .. الى أين ؟

● حاليا تطرح قضية الأمة العربية الاسلامية .. أمتنا الى أين ؟

مفتاح للحوار قدمته للدكتور رشدى فكار .. وينطلق في الاجابة ..

.. نلاحظ ان المواقف تختلف : بين متفائل ، ومتشائم . ومتردد في الحكم ..

المتشائمون : وهم أكثرية يذهبون في تشاؤمهم إلى حد الغوص في التاريخ والمقارنة بين ما حدث في الأندلس ، وما هو حادث الآن في هذا العصر .. نهاية الأندلس وعملية التقليل ، ولا أقول الانتكاسة . التقليل للمد الإسلامى والعربى . حتى سقوط غرناطة بعد مقاومة استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان كآخر حصن عربى بجزيرة أيبيريا .. ولكن لتتوقف قليلا .. لقد كان لنا بعد الأندلس أرضا ، أما الآن ، فاين نذهب ؟ .. لو سقطت غرناطة مرة أخرى فليس لنا بديل ! .. المتشائم إذن يعطى مقارنة على مستوى الضياع بينما المتفائل ينظر إلى هذه الأمور كلها على أنها طبيعية .. فالمفروض أن الأمة لا بد وأن تواجه العثرات ، ولكل جواد كبوة ، ولا بد من الكبوات بل ولا بد من الانتكاسات ، كالطفل حينما ينمو في مراحل طفولته ، لا بد حتى يتعلم المشى من أن يقع وأن ينقلب ، وأن ينجح .. الخ .

فهذه أمور منتظرة لمجتمعات عربية إسلامية خرجت من الاستعمار بجسد جريح ، ويحاول أن يستعيد صياغته في دور النقاهاة ليقلع إلى مرحلة جديدة مغايرة .. أما المتردد في الحكم ، فيحاول أن يحكم بمستوى ظرف أو مستوى موسمى ، يعنى يمكن له أن يعطى حكما في الصباح ثم تتغير الأحداث بعد الظهر فيعطى حكما آخر ؛ بمعنى ليس له طبيعة استمرارية تاريخية ؛ أو استمرارية مستقبلية ، فهو لا يرى التاريخ ولا يرى المستقبل ، وإنما يرى الحاضر ، ويحاول دائما أن يعطى أهية لطبيعة تعقد العلاقات وفي ذهنه

المثل القائل « اشتدى يا أزمة تنفرجى » ، لأن الشيء يطرح نقيضه للضرورة والالتزام مادام هناك كينونة .. مادام هناك ماهية لا بد وأن يكون لها نقيض ، فإذا كانت هناك أزمة فلا بد لها من اهراج مهما طال الزمن ، فإذا لم تنفرج اليوم فربما تنفرج غداً ، أو بعد غد ..

.. الشيء المؤكد أننا فعلا فى أزمة ، والاختلاف فى تقويم أبعاد هذه الأزمة .. هل هى أزمة عضوية ، قد تؤدى إلى تدمير كلى أو جزئى لكيان الأمة ، أم أزمة وظيفية ، حيث تنوعك فى عطائها الوظيفى ، ويكفى أن تعاد صياغته على مستوى معين فتنتطق الأمة فى إطار موضوعى .

* * *

المبحث الأول

مسئولية الأزمة

● هذا يدفعنا الى تحديد : هل الأزمة تلاحظ على مستوى فئة محدودة من امتنا ، وهى المسؤولة عن هذه الأزمة ، ام انها تلاحظ على مستوى الفئات برمتها ..

فمن الممكن أن نسط القضية في فئتين :

هناك الجماهير العريضة ، وهى تمثل الذخيرة أو الكنز وقدرة الدفع ، وقدرة العطاء ، بل والمستودع الحقيقى للفعل وردوده بالنسبة للأمة ..

وهناك فئة القيادات .. قيادات الأمة على مستوى القرار ، والفئة المثقفة ، أو « الاتليجينسيا » وهم المفكر والعقل المفكر للأمة ..

هل الجميع فى أزمة ؟ .. هنا نجد اختلافاً ، هناك من يجسد الخطيئة فى القيادة ، ويعتقد أن الأزمة نتيجة لأزمة القيادات التى هى ليست على مستوى الخطورة والمسئولية التاريخية لهذا العصر .. عصر المخاضات والمواجهات الحضارية مع خصم عنيد وشرس ، لا يريد فقط أن يعيش إلى جانب الدار ، بل ويستحوذ على الدار ..

وهناك من يطرح الأزمة على مستوى جماهيرى خصوصاً هؤلاء من يتبنون القضايا الاحصائية والتجليل العلاقاتية ، أو البنيوية الوظيفية .. فيقولون : ماذا ننتظر من أمة أغليتها جاهلة ، أمية ، فقيرة ، وشعوب فقيرة ، وتعانى من أمراض التخلف ، والأمراض الصحية ، والاجتماعية ، بمعنى أن الجسد ذاته يعانى من تطور غير سليم على مستوى بيولوجى ، فهو يعانى من الطفيليات ، ومن الميكروبات .. إلخ ..

وغالى البعض ليزعم أننا نعيش فى إطار غير الكون ، وأنا فقط بلىنا بهذه الأمور ، وهى نظرة عنصرية تضاف إلى هذه الرؤية المظلمة المعتمة .

وهم يطرحون الأزمة على مستوى جماهير غائبة لا بوعيا وحسب ،

وإنما أيضاً بجسدها لأن الجسد متمب . وغير قادر على الإنتاج . والعقل غير قادر على العطاء لأنه عقل أسمى .. العطاء إذن غير موجود .. نسومية الفطر على مستوى الغالبية ..

كيف يمكن تصور قيادة بلا سفينة . أو كيف يمكن تصور ربان طائرة بلا طائرة .. الطائرة في حد ذاتها غير قادرة على الإقلاع — لا بد من أن تعلق لتكون لديها قوة الدفع الهائلة ..

وهناك من يميل إلى تجسيد لخطيئة وتحمل الفكر لوزرها ، إن الفكر العربي المعاصر فكر متوعك ، وغير قادر على الاستيعاب ، وليس فقط استيعاب الأراضيات التاريخية ، بل وغير قادر على استيعاب حاضره ولا استيعاب مستقبله ، ولا استيعاب ما يجري حوله ، فهو فكر انفعالي ، فكر ارتجالي ، فكر ينتظر الفعل حتى يقوم بدور ردود الفعل . إن الفئة المثقفة أو المفكرة في العالم العربي ، هي فكر بلا فكر بمعنى فكر بلا أرضية للفكر ، أى أنها خليط عجيب من بقايا الفكر الإنجليزي والفرنسى .. مزيج غريب من انعكاسات لفكر الحضارة الغربية مع بعض العناوين التى تنسب إلى الدار ، يعنى هو فكر باطنه لا علاقة له بظاهره . وجوهه أغلبه مستورد من الحضارات المعاصرة ، وبالتالي يسقط في حائل التبعية لها . كل هذه الأمور مطروحة وبإصرار .. أمتنا إلى أين ؟

في تصورى الشخصى ، بناء على معرفتى المتواضعة : وانتسابى لأرضيتى التاريخية ، ومعرفتى بما يجرى في هذا العصر على مستوى علوم الإنسان . والعزاء الحضارى ..

أولاً : أستبعد أحادية الإدانة . يعنى أن الشعوب التى تحاول أن تجسد الخطيئة في إطار انفرادى هى شعوب غير قادرة على مواجهة ما تعاني منه ، وقد واجه الشعب الألماني المشكلة فيما بعد الحرب العالمية الثانية ، حاولوا أن يبحثوا من خلال فلاسفتهم عن الإدانة ، وقد عمموا مبدأ الإدانة ، بحيث لا تتجسد في شخص ألمانيا . وإنما تنسحب على كل فرد من أفراد الأمة الألمانية ، حتى تستطيع الأمة أن تعى بالمسؤولية ، وتشعر أن كل فرد فيها له نصيب من هذه المسؤولية ، يعنى ليس من حق إنسان أن يقول للآخر

أنت المدان ، وأنا البريء ، كل واحد لعب دوراً ، إما بعدم مشاركته ، وإما بعدم حركته ، بسكونه ، أو بتملقه أو بظرفيته ، أو بموسميته ، أو بموافقته ، أو بخوفه وتردده ، أو بالتجائه إلى التطرف والمغالاة في الحكم والعنف مما آفسد عليه أى قدرة .. من هذه الزاوية ربما قضية انفرادية الإدانة ، أو أحادية الإدانة ، لا أميل إليها كثيراً ، بل أرى ان كل فئات الأمة أن لها الآوان أن تتحمل المسؤولية .. ولكن هل هناك تدرج في الإدانة ؟ يعنى أن هناك من يتحمل شطراً أكبر من الإدانة ؟ بالضرورة أقول : نعم ..

هناك فارق بين من يوعى ومن يعد ، بين من ينفذ القرار ، وبين من يتخذ القرار ، وهنا يمكن أن تتبنى حتى المبدأ القانونى .. هناك مبدأ المسؤولية الكاملة ، والمسئولية المخصصة ، أو المسئولية المخففة .. إذا ما أردنا أن نصنف الفئات حسب الإدانة ، وحسب الشعور بالمسئولية ، ومع احترامى لمن لهم رأى يختلف مع رأى ، فإن الفئة المفكرة تتحمل الدرجة الأولى من الإدانة ، ثم تليها فئة القيادة ، ثم فى النهاية الجماهير التى أضعها على مستوى المشاركة فى المسئولية دون أن أحملها القدر الأكبر من الإدانة : « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » (١) .. لأن ثمة مغالاة فى أن ندينها بشيء شاركت فقط فى تنفيذه .. وإذن المسئولية الفكرية تنصدر ، والقيادة لأنها هى أداة الأمة ، وهى فى موقع القرار . وقرارها مرتبط بالمحيط والمجال الفكرى لتتحرك فيه ، فهى تنعكس على البيئة الفكرية التى تتحرك على رأسها وتنعكسها ، فإذا كانت المرأة التى تنعكس عليها هذه القيادات غير واضحة فى عطائها الفكرى ، فكيف تنعكس بوضوح ؟ .. من الصعب طبعاً .. لهذا فى تصورى : « أن الآوان لأن نقول لنخفف قليلاً من فكرنا الموسمى الذى يصعب على القيادة فى ضوءه إتخاذ القرار ، وبالتالي ينتظر القرار ردود الأفعال على مستوى الفكر أولاً ، والقرار الذى تتخذه القيادة يراه عقل الأمة ، فإذا كان دوره هو التبرير أو الصمت ، أو التفجير ، فإن القرار يكون بمثابة الحكم بلا حيثيات ..



المبحث الثاني

الحرية .. واتخاذ القرار

● ولكن كيف يعمل مفكرو الامة وعقلها للتهيئة لاتخاذ القرار في غياب الحرية ؟

.. هو سؤال كبير . ولكن قضية الحرية بدورها من الصعب ان تؤخذ على مستوى انفرادى ، وفي اعتقادي ان الحرية قبل ان تكون قرارا فهي بيئة . هي مجال قائم على الثقة وعلى تبادل لا يتبنى مبدأ الإلعاء ، لأنه في حد ذاته مبطل للحرية ، أعنى بذلك لو أن الإنسان يكتفى بأن يقول : هذا لا يعينى : فهو في حقيقة أمره قد اتخذ قراره ضد الحرية : لأن قوله : هذا لا يعينى .. هو إلغاء . لأن الآخر يقول له : وأنا بدورى لا يعينى .. مطلقا ، أو يقول لمتخذ القرار بما أنك قررت قرارك في غيبتى فهذا لا يعينى .. فكلاهما له مسؤولية الإدانة في الإلعاء .. هذا إلغاء بعدم قبوله نهائيا لرأى الآخرين . كأن الحرية منه وإليه ، والآخر لأنه لا يعترف بالقرار أصلا الذى لم يشارك فيه .. ومن هذه الزاوية : فى تصورى أيضاً الحرية بدورها المفروض أن تناقش فى جو قائم على الرزانة .. والحرية لا تلقن ، هي عبارة عن مجال وعن إطار متكامل لحياة داخلية أو باطنية ليس فقط بالنسبة لكل إنسان ، وإنما للمجال الاجتماعى برمته ، بمعنى أننى لا أتصور الحرية إطار نجاة أو تقنين أو إطار قبسى ، بقدر ما هي إطار ممارسة ، فقد يكون لك طفلين فى بيتك . وتعطى لطفل الحرية وتعطى للطفل الآخر نفس الحرية ، فتجد أن طفلا منهما لعبت الحرية لصالحه : وصفاً آخر لم تلعب لصالحه مطلقا ، لأن المجال الذى تحركت فيه الحرية معه مجال علاقات .. وإذن الحرية لا نراها على مستوى طرف واحد ، وإنما على مستوى طرفين ، وهنا نعود إلى « جان جاك روسو » وإلى قضية التعاقد .. الحرية لا بد أن تكون فيها أطراف متعددة ، وكل طرف يعى بدوره فى هذه الحرية ، ولا

ينتظر من الآخر أنه هو فقط يتحمل القضية .. ونعود إلى الموضوع ، وإلى السؤال : أمتنا إلى أين ؟ .

آن الآوان لأن نقول : ما هو النموذج الذى يتبناه الإنسان العربى ؟

هذه قضية مبدئية وتتطلب قبل أن نضارب بنوع من المجازفة والمغامرة ، وتفعل أحداثاً على أنها فى النهاية برغم أننا مازلنا فى نقطة البداية .. أعتقد أن هذا خطأ حان الوقت لتصحيحه ، بمعنى أن ما نعانى منه هنا ربما أبدأ به للتصحيح .. ولست متفائلاً كما أئنى لست متشائماً ، ولكنى أتساءل وأقول ماذا تساوى بضع سنوات من تاريخ أمة عملاقة .. هل يمكن لبضع سنوات أن تعيق قرونا من الأزمنة .. ولماذا لا نقول بأن بضع سنوات أخرى قادرة على أن تصحح هذه البدع السلبية والمتوعدة؟؟

إذن .. ليستعيد العربى والمسلم عموماً أنفاسه أولاً ، ويستعيد رؤياه ولا يصاب بهوس مما يراه حالياً ، ويعتقد أن القضية قد انتهت ، وأنه أمام الأندلس الختامية ، وأن مصيرنا أن سيلقى بنا فى القلب الجنائزى بإفريقيا وهوامش آسيا .

.. أبدا .. هذا لن يحدث ولكن شريطة أن نبدأ ونعطى أهمية المجالات .. مجال الزمن ، مجال العلاقات ، مجال الفكر .. أنا أعتقد أن الخصم يجرنا الآن لاتخاذ قرارات فورية ، وعلينا ألا نتسرع فنقبل أو تنهور فنرفض .. نقول له دعنا تفكر .. لأننا نحن فى بداية الصراع لا فى نهايته .. أعطى الفرصة لأحضر نفسى .. ، نرى حتى فى مباريات المصارعة بين الرياضيين ، تعطى الفرصة للتدريب .. دعنى أتدرب .. لا تحاول أن تسرقنى فى غيبة الزمن وتحكم على انطلافاً من جيل عانى أولاً من المواجهات مع الاستعمار وخرج بجسده ملىء بالجروح ، وعانى من اسنيلاء فكر المستعمر ، ومن تسلط الاحتكار الكونى على خيراتہ ..

لا تطلب منى .. من هذا الجيل أن يفعل المستحيل .. أعطى الفرصة

لأتوجه معك ، مع الفريق الآتى لأحضر له فريقاً آخر ، بمعنى : لنجعل هذا الجيل هو جيل البداية وجيل النهاية .. هذا جيل عاش التجربة وانتكس فيها ، ولو كان قد اعترف بأنه انتكس لحقق بعض الأمور الإيجابية ، ولكنه انتكاس وأزمة جيل لا تعنى أزمة كل الأجيال .

وهذا الجيل المتأزم ، أطلبه حالياً بالأ يغالى فى هلعه من أزمته حتى لا يضيع على الأجيال القادمة قدرة التفكير ويشل حركة التاريخ - إنه يعانى من أزمة ، نعم .. ولكن علىحلول ما أمكن أن يضيق من الخسارات ما أمكن ، ويدخل إلى قبره مع أقل قدر ممكن منها ، وأكبر قدر ممكن من التحفظ وعدم الاندفاع والمغالاة ليعطى الفرصة لأجيال قادمة قادرة ..

ولا أقول لهذا الجيل : لقد تهت سرحيتك ، لا .. ولكنى أقول له : دع ولو فرصة للأجيال القادمة ولا تملأ أزمة الحاضر على مسيرة المستقبل ، بمعنى ألا يظل هو دائماً الجيل الذى يطلب منه تساؤلات عن كل التاريخ ، فهو يجيب عن تساؤلات التاريخ الماضى والحاضر والمستقبل ، هو جيل عاش وتوعك ، وأكد أنه ربما لأسباب متعددة ، لا بالإدانة الأحادية أو الفردية كما أوضحنا توعكك .. لأسباب متعددة لكثرة المعارك ولكثرة الصغبات التى وجهت لجسده أصيب بنوع من الدوار ، وأصبح فعلاً مع بعض استثناءات ، فى لحظات يجد صعوبة فى استيعاب الصدمات التى توجه إليه بشراسة وبعنف - أطلب فقط بالمهدئات ، وبالأ يحاول كما قلت أن يوقف عجلة التاريخ معه ، بمعنى أنه ليس مخولاً لأن يعطى التزامات هو لم يكن مسئولاً عن معطياتها فى المستقبل ، حتى لا أطلبه من الناحية الخلقية بأن يفر من المعركة .. هذا قدره أن يصمد ، ولكن لا أطلبه بأكثر من هذا .. بأن يصمد ولا يتراجع حتى يعطى الراية لجيل جديد . وأنا كسواطن معتر بهذه الأمة متأكد أن البطون مادامت تلقى بأطفالها : ومادامت حركة التمدرس الشاملة تأخذ مجراها ، وهذه الأمواج الهادرة تتجه إلى قاعات العلم والدرس ، فإن القضية من الصعب أن تعلق ، وربما يعتقد الخصم أنه بتطويقه لجيل ، يطوق كل الأجيال ، إنه استطاع ولو نسبياً خلق قدرة المجازفة المحسوبة لديه ، و حالياً يحاول أن يحاصره .. إذا ما استعملنا بعض الألفاظ الاستراتيجية ،

حتى يبعد عنه أى قدرة مجازفة محسوبة ، لا مجازفة مغامرة ، يعنى أن الأمة لتصل إلى شىء لا بد من أن تضحي بشىء .. والخصم يحاول أن يخوفه من التضحية ، عملية ترهيق فكرى هائلة ، عملية إرهاب ذهنى ، وهنا تأتى التساؤلات الكبرى : إن لم نستطع أن نفعل كل شىء فلنعمل شيئاً .. أن نفعل كل شىء هو التلاحم الجسدى لأمة تقف على قدميها ، بأن تلتحم فى مواجهة مع خصمها بكل ثقلها ، الآن نجد صعوبة ، ظراً للبعد الهائل فى التقدم التكنولوجى .. قديماً حينما كان جسد الفارس يلتحم بجسد فارس فى معارك سابقة فى التاريخ .. هنا القضية كان فيها نوع من الروح الرياضية ، أما الآن فثمة نوع من المكر التكنولوجى ، أو الجبن المحسوب ، إنسان هو فى الحقيقة جبان ، ولكنه يتمتع بقدرة مكر تكنولوجى هائلة ، أى قدرة ذكاء وتحكم فى الآلة ..

.. إذن .. أمام تعذر إمكانية التلاحم الجسدى أو التلاحم العضلى تبقى القدرة الذهنية ..

وأنا أطلب الآن وأستسمح من يخالفنى فى رأى ، أطلب الذهن العربى المفكر بأن يحاول أن يعمق ويعطى لنا تجاوزاً ذهنياً ، تجاوزاً فى ذكاء للفكر للتخفيف من حدة الأزمة الخائفة عن ضيق إعطاء فرص حلول ، لا أقول حلولاً نهائية ، أو حلولاً لشل الأجيال القادمة ، وإنما حلول التجاوز للخلق ..

وأكرر : هناك رغبة هائلة الآن لخلق هذه الأمة تماماً ، وأنا أطلب الذهنية العربية الواعية أن تتعامل مع هذه القدرة الفكرية الذهنية الهائلة التى وراء الخلق لكى تفلت من مشنقة الخنق .. على العقول أن تتحرك الآن .. لأن هناك ترويضاً ذهنياً مروعا فى الهزيع الأخير من القرن العشرين .. عملاقة ذهنية .. ولكنى أحمد الله الآن ودون أن أعطى أسماءً هناك ذهنيات لبعض القيادات العربية المعاصرة قادرة حقيقة ، فلنعطها الفرصة لكى تتحرك ، لكى تواجه ذهنيات فى قمة الفكر والدهاء ، وتخفف من حدة الصدمات الكبرى التى تهدف فى النهاية إلى شل حركة هذه الأمة وتجزئتها واتهامها جزئية بعد أخرى ..

إذن المعركة الآن فعلا معركة ذهنية ومعركة فكر خلاق ، العقلية العربية عليها الآن أن تفكر لأنها أمام مجازفات ، وأمام مخاضات كبرى ، وذلك لمحاولة كشف مبررات الخصم بطريقة موضوعية ، وعدم توسيع موجة التعقيم ، وموجة لا أقول الكذب الأبيض ، وإنما لنواجه العدو عن طريق مواجهتنا لأنفسنا ، لأن العدو يعلم جيداً أننا غير قادرين على أن نواجه أنفسنا .. لنجعله يدرك أننا في هذه الفترة قررنا فعلا أن ندخل المواجهة ، واعترفنا بأمر كثيرة ، لا اعترافا بالخصم ، وإنما اعترفنا بأخطاء كثيرة لدينا ، حتى تأتي الأجيال القادمة لتصحيح لنا هذه الأخطاء ، لا ليصححها هو لنا .

* * *

المبحث الثالث

مفهوم البطولات

ومن هذه الزاوية أفضل فعلا أن نخفف من موجة البطولات للامة العربية .. البطولات الوهمية ..

وإذا كانت ثمة بطولات ، فهي في استعادة ما فقد دون أن ن فقد ما تبقى لنا ، ولكن لا داعى لأن تتحول البطولة إلى أنشودة غنائية ، فيتحول الكل إلى أبطال ، وفي النهاية نبحت عن الأبطال الحقيقيين فلا نجد ..

☉ عند هذه المقولات الساخنة ، أقاطع الدكتور رشدى فكار بسؤال : برغم أنكم تعدتم عدم اعطاء أسماء ، فإني أكاد أقرأ أسماء معينة ، كإني بكم تقدرون فلانا وفلانا ، وتعلنون علانا وعلانا ؟

.. لا .. لا إن الحديث عن الأمم يتجاوز الأشخاص .. وأريد أن أقول كخلاصة ، لقد آن الآوان لتنتقل هذه الأمة للمصالحة مع النفس ، قبل الآخرين ، ولكى تقول هذه الأمة إلى أين ؟ عليها أولا أن تحدد أين تقف قبل أن تفكر فى أن تتحرك .. تحدد موقعها ، وتحدد الأرضية التى تتحرك منها ، وحينما تحدد نقطة الانطلاق تصل بعد هذه الحركة الواعية ..

.. ولكن إلى أين أسير ، وليس لدى وسائل لهذا السير ؟

.. أرجو ألا يدخل ذلك فى مجال الكذب الأبيض .. ! ، الكذب الأبيض جميل ، ولكن من الصعب على أمة أن تحول تاريخها كله إلى أكاذيب .. إن هناك أبسط الأمور لم تتفق عليها ، بل ولا على أدنى منها ! ..

و حينما أقول أمتنا ، أعنى أمتنا كتاريخ ، كأمة مفتعلة فى القرن العشرين .. وإنما أمتنا بمعنى أربعة عشر قرنا .

هذه أمتنا ، لأن الذين يفتعلون أمتا فى القرن العشرين ، ويعتبرونها

أمتنا تحت شتى التسميات ، نقول لهم : أضعتم أنفسكم وأضعتمونا ..
أمتنا تساوى أمة تلمس على مستوى التاريخ .. حينما أقول أمتنا : أعنى التى
انتشرت فى الأندلس ثم تقلصت . وأمتنا التى وصلت إلى بحر الصين ،
وأمتنا التى ضربت فى أعماق آسيا حتى اقتربت من القطب الشمالى . وفى
أعماق إفريقيا حتى لامست خط الاستواء .. أمة خالدة لها تاريخ فادر ،
أما حينما أفتعل أمة جديدة سافقد الأمة الأم ، والأمة التى أفتعلها لا أساس
لها لأنها ستسوت حينما تنتهى تعبيراتى ومسياتى . كأننى أدخل بها إلى
القبر لأنها لا أساس لها .. لذا أطالب بزيادة من الالتحام بهذه الأمة بقضيتها
التاريخية ، وأطالب بزيادة من تعيق المعاناه التاريخية ، بمعنى تنهسها ،
ونعرف من أين جاءت العورات والثغرات التى حدثت . لأن أموراً كثيرة
يعيشها فى القرن العشرين ، ربما بطريقة أخرى لم تكن هى هى ، ولكنها
« عيشت » أيضاً لما نراه الآن من شعوبية فى هذه الأمة ، ونوع معين من الثغرات
القبلية ، ومن الحزازات . هذه أمور ليست بجديدة ، وكانت فى فترات طويلة
من تاريخ هذه الأمة سببا فى توقعها لخمسين أو لمائة عام ، فالمفروض أن
نتحجم بالأمة ونعمق فلسفة تاريخها ، ثم نتحرك على أرضيتها ، وفاء لها ،
لا من أجل شىء آخر . هنا أعتقد سيكون لدينا على الأقل إطار تربوى
مبسط لهذه الأمة ، وأقول للطرف الآخر : مهلا ، إن التاريخ لم يبدأ بالأمس
وبالتالى لن ينتهى غدا ، أقول لأعداء وخصوم هذه الأمة هذا الكلام ، فماذا
نعنى أزمة أمة فى ثلاثين عاماً أمام مسيرة تاريخية ، امتدت أربعة عشر قرناً ،
أحاول فقط تقليص هذه الأمة فى أضيق إطار ، وألخصها وأعطى أملا للأجيال
القادمة ، وأحذرهما بالأثر أزماتى وتوقعاتى ، وإننا نرث منى كل قدرة
فى الحركة .. كل الذى أمالب به الآن أن نعطى للأجيال القادمة حق أن تتحرك
بنظورها ، ولا نضع لها مخططاً سابقاً ، يضع فى شرائقه جيلان أو ثلاثة
فى كيفية التخلص من هذه المخططات التى وضعت فى غيبتها .. نعطى لهذه
الأجيال القادمة حق أن تضع هى بنفسها مخططاتها ، وأنا على يقين من أن
الإسان العربى المسلم الذى استطاع رغم تسلط الامبراطوريات
الاستعمارية الكبرى أن يتخلص من هذا الاستعمار ، ممكن أيضاً بدوره
وقد عاد إليه مرة أخرى مقنعا فى أسواق أخرى أن يتخلص منه مع مزيد من

الممارسة لدى الأجيال القادمة بطريقتها هي .. لأننا لا يمكن أن نحارب كل العصور التاريخية بنفس السلاح .. فكل عصر تاريخي له سلاحه الذي يحارب به ، فإذا كنا قد استعملنا السلاح مع الاستعمار وهو سلاح المواجهة اليأسية ، أو النهائية أو المصيرية ، فلنعتد للجيل القادم قدرة التفكير الذهني ومراوغة الخصم بنفس وسائله ومكره ودهائه ، ولا أحاول أن أرد على دهائه القاتل بالكذب الأبيض ولكن بالتعمق في إدراك متناقضات العصر والرد عليه بالأسلوب الذي سوف أفرضه عليه ، لا الذي يفرضه هو على انطلاقاً من معرفته بواقعه ، ؟

هل أضع نفسى بين المتفائلين أم المتشائمين ؟

.. أضع نفسى بين المتفائلين .. أما عن هذا الجيل فهو بالطبع تفاؤل مع التحفظ ، وعموماً فإننى على يقين أن ما نراه الآن نوع من الكابوس الملىء بالأحلام المزعجة ، وبقينا سوف تأتى أجيال الـ ٣٠٠ مليون والـ ٤٠٠ مليون عربى محزمن بـمليار أو أكثر من إخوتهم فى الإسلام ، وسوف تنظر هذه الأجيال لهذه الكوابيس المزعجة على أنها كانت فترات مخاضات كبرى .

* * *

البحث الرابع

فكر إسلامي موحد .. كيف ؟

● بعيداً عن عموميات الفكر وتجريداته ، هل نمت توصيات لهذا الجيل الذى تطلب منه أن يعمل على تقليل حجم خسارته حتى يسلم الراية لأجيال أكثر قدرة ؟ ..

.. القيادات صاحبة القرار لها دور هام ودور قيادى وريادى لهذه الأمة ، ولست أنا برجل فى موقف الذى يعطى وصايا ..

● قد ترى لمواجهة الأزمات المصرية .. الدعوة لفكرة عقد مؤتمر فكرى عربى وإسلامى ؟ ..

.. ولم لا ، ولننقق على حد أدنى من قدرة الفكر .. لتصفية الحسابات والاستبعاات .. والإلغاءات . وإنما لمواجهة .. لخلق حد أدنى فكرى كما أقول ، دون أن تكون لكل أرضية مبيتة جاء ليدافع عنها !

● هل ترى أهمية أن ترشح كل جامعة عربية أو إسلامية ، ثلاثة من مفكرىها لعقد المؤتمر الفكرى المصرى ؟ ..

.. لا أميل مطلقاً لكلمة مؤتمر ، ربما من الأفضل أن نبدأ فى البداية بملئى بين المسئولين تربوياً ، ليناقتسوا إلى جانب تطوير أدوات ومناهج التمدرس ، ذاتية إنسان هذه الأمة لأنهم هم المسئولون والمشرفون على تربية قيادات هذه الأمة ، وليخرجوا ، لا أقول بسياق أو بدستور ، وإنما بنود تقول : إن هذه هى ذاتيتنا التى ينبغى أن تدخل فى أطر التربية من الحضانة حتى الجامعة ..

وفى نفس الوقت لتعقد على هامش هذا الملتقى لرجال التربية والتعليم لقاءات فكرية بين كبار المؤرخين ، وتكثف الحوارات فى الصحف والمجلات ، والإذاعات حول تعسيق مبدأ الإداثة وتعسيق مبدأ الأزمة ، ودون محرمات ، مع البعد عن الجزازات الشخصية أو المهاجمات ، أو التمسك المبيت بوجهات النظر الشخصية ، ولا أعتقد فى جدية كلمات مثل قلب يقبل ، وقتل

يقتل ، إن الأمة لا تبني نفسها على القتل والانقلابات ، فربما هذا يفيد المجتمع الصناعي لأن له نوعا معيناً من التنظيمات الواسعة العريضة والرأى العام ، وهكذا فيكون لديه نوع من تعبئة الصراع .. أما نحن كعرب لدينا الكثير من فائض صراع تاريخي صدره للآخرين ولسنا في حاجة لنقول : نبدأ من جديد لنصارع بعضنا بعضاً ، لاننا بهذا ربما سنحل مشكلاتنا الديمغرافية « السكانية » فبدلاً من أن يكون تعدادنا ١٥٠ مليون عربي قد يقلص عدداً إلى عشرة ملايين من الأحياء ، و ١٤٠ من أصحاب القبور .. سنصفي بعضنا بعضاً تصفية جسدية .

لهذا لا ينبغي أن يتجه الفكر لإثارة الفتنة التي لعن الله من أيقظها ، وأعتقد أنه لا داعي أبداً ، لأن نوجه صراعنا نحو الماضي ، لتتجه بصراعنا نحو المستقبل ، لا لتصفية الحسابات مع الآخرين ، حتى يصل الأمر إلى تصفية كل فرد للحساب مع نفسه هو أيضاً لأنه جزء من هذه الأمة ..

لهذا أرى أنه آن الآوان إلى أن نكف عن البحث في خفايا الآلام والمعاناة الكامنة في العديد من القلوب ..

آن الآوان لأن نقول نحن في مركب واحد وحينما يغرق جزء منا ، فسوف يهلك الجميع غرقاً معاً .

● ان شعب الصين الذي كان يعيش كابوساً رهيباً من خلال حرب الأفيون والهيمنة الاستعمارية والحروب الأهلية استنطاق من خلال الجيل المتأزم أن يقود زحفاً عارماً لتصحيح كل المسارات من خلال معاناة نفسية وحربية واقتصادية وثقافية رهيبية .. أفرزت في النهاية شعباً عظيماً .. فلماذا تنتظر الأمة الإسلامية الخلاص ؟

.. هذا فعلاً مثال ، ولكن الصين كقارة وكإطار تاريخي وعوامل ثقافية واجتماعية وجغرافية تختلف عن الأمة العربية والإسلامية ، إن الصين قامت بعملية اختزال للأزمة ، ولكنني أخشى أنه حينما نقوم بهذه العملية لاختزال الأزمة المتوقعة ، يدخل الخصم كطرف مختزل ، يعني يدخل لنا تحت قناع أنه سيختزل الأزمة معنا ، ويحاول أن يدخل تحت شعارات متعددة لكي

يجعل من تجاوز الأزمنة نهاية الأمة .. هذا ما أخشاه .. بمعنى أننا لو كانت تناقضاتنا الداخلية هي التي نحن بصدد تجاوزها ربما قلت : ولم لا !

ولكن بما أن لدينا أكثر من « مسمار جحا » في جسد هذه الأمة دفت في كل مكان ، فأخشى لو بدأنا في هذه الحالة ، ربما تحركت هذه المسامير على أنها جزء من هذه المنطقة ، من هذه الأمة ..

● ولماذا لم تتحرك هذه المسامير في الصين ؟

.. لأن الصين ، كما أعتقد له ظروفها الشريطية التاريخية كما قلت التي تختلف عن الظروف الموجودة في الأمة العربية الآن ..

وربما واثت هذه الظروف أمننا العربية في نهاية الأربعينيات من خلال الالتحام المصيري مع الخصم الذي زرع ليفنى وجودنا ، ولكنى أتخاشى البكاء على الماضي القريب ، ومع ذلك أقول : لو أن هذه الأمة طرحت في هذه الحقبة مبدأ التضحية لا مبدأ المزيادات ، وضحت بنصف مليون ، أو حتى بمليون عربي ، أو فلنقل بأربعة ملايين عام ١٩٤٨ لضمنت الأمة حياتها وقامت بعملية اختزال الأزمنة ..

ولكن ، وأما وقد أضاعت الأمة فرصة الالتحام العضلي لتدافع عن كيانها ، فلم يبق لها إلا أن تستعمل قدرة الذهن العملاقة ، لا لتنتصر بها ، لأن هذا لن يكون في عهد هذا الجيل ، إلا إذا بدأنا تتصور وجود عصا موسى السحرية ..

لذلك أكرر القول وأؤكد : نيقول هذا الجيل ما أمكنه ذلك من خلال القدرة الذهنية من انعكاسات وسليبات الأزمنة ، ومن آثر التركة التي سترتها الأجيال القادمة ، حتى لا تضيع هذه الأجيال القادمة وقتها في تسديد ديون جيل لم يضبط دفتر حساباته كما يجب !



(١١)

اعادة النسق التربوى

● انطلاقا من حديث سابق له عن فكرة عقد ملتقى عربى واسلامى لقيادة التربية والتعليم .. كيف يمكن بناء الانسان العربى والمسلم من خلال نسق مدرسى وتربوى جديد ؟

.. بناء الانسان .. كيف .. هو فى الواقع سؤال يتصدر كل الأسئلة .. هل يمكن ان ابنى هذا الانسان عن طريق تكثيف اكبر قدر ممكن من المصانع بجانبه ؟ ..

.. أقول : لا ، وبكل صراحة : لا !

● هل يمكن ان اكنف له المنشآت والابنية ؟

.. أقول : لا ، فان ما نشيده اليوم قد يهدمه الإنسان غداً ! ..

● هل يمكن أن نقوم ببناء الإنسان عن طريق تكثيف المعرفة العلمية ، وخلق جهابذة وعباقرة ؟ ..

.. إن هؤلاء حينما لا يجدوا البيئة المناسبة لهم فى المكان الذى نشأوا فيه ، يهربون إلى بيئات أخرى ، ويقدمون خبراتهم وعلمهم فى خدمة الآخرين ، وبالتالي تفتقدهم الأمة التى أنبتتهم ! .

القضية إذن ليست بتكثيف العلم أو الصناعة ، أو المنشآت ، أو الأراضى الزراعية ، ولكنها فى صياغة الإنسان نفسه .. ولقد آن الآوان لأن نعيد النظر فى بناء الإنسان الذى يكثف لنا المصانع ، ويكثف لنا العلم ، والزراعة ، ويحول الرمال إلى شجر وأرض خضراء ..

فى تصورى أن هناك مثال يصلح للاستشهاد به على الساحة الكونية كلها .. وهو : النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

أساءل : كيف خرج من غار حراء واعتمد على مجموعة من المستضعفين -
وحاشا لله - فهم مستضعفون في مظاهرهم ، ولكنهم أقوياء بإيمانهم وتعبثهم
وإصرارهم ..

استطاع صلوات الله وتسمياته عليه بهذه القلة ليس فقط أن
يواجه مهمة تأصيل القاعدة الأولى للإسلام في مكة والمدينة ، ولكن هؤلاء
المستضعفين شيّدوا أعرق حضارة ستترت أكثر من ألف عام بل وتعتبر أطول
حضارة في تاريخ الأمم والإنسانية وهي حضارة الإسلام ، حضارة القيم
والمبادئ التي امتدت مشاعلها حتى جر الصين ، لاحتضارة الأشياء .

.. نعود إلى واقعا المعاصر ، ولننظر للأعوام الثلاثين الماضية في عمر دولة
كمصر ولنعط مجرد أمثلة للمواجهات الدموية مع الأعداء ، كانت الوسائل
متوفرة للقتال ، كانت هناك كميات وفيرة من الأسلحة والذخيرة ، ولكن
الإنسان كان غائبا ، فكانت النكسات والهزائم ، بينما في رمضان (سنة
١٩٧٣) أعتقد أن المعركة كانت للإنسان لا للأسلحة .

هذا الجندي العربي المصري المسلم وبجانبه الجندي العربي في كل مكان
هو الذي عبر القناة ، وخط بارليف الإسرائيلي المهول ، هو الجندي الذي
لم يركز على سلاحه بقدر ما ركز على ذاته ومبادئه من منطلق الإيمان ، وهو
نفس الجندي الذي ارتكس في سنة ١٩٦٧ مع مقياس آخر ، ففي سنة ١٩٦٧
اعتمد على الأشياء واعتمد على الزخارف ، والمظاهر وعلى الشعارات الجوفاء
العائمة ، بينما في سنة ١٩٧٣ كان يعلم أنه إنسان وأن عليه أن يعيش أو
لا يعيش ، وبحمد الله وقدرته عاش واتصر ..

هذه مزية عظيمة لإنساننا في عصر ينبغي التركيز عليها واستثمار عطاها ،
فحينما تأتي أزمات كبرى لهمة لإنسان ، وتطرح إنسانيته وتتعامل مع
عمقه ، مع قاعدته ، وتوظف فيه تعبثه ، فإن الإنسان نراه فعلا على مستوى
المواجهة .

🕒 ومن هنا نبدأ .. أليس كذلك ؟

.. أقول : فعلا ، لماذا لا نجعل من هذه المواجهات التي تمنحنا بفضل الله
وعونه إعجازات عملية مستمرة ؟ ..

بمعنى أن يصبح الإنسان العربي المسلم إنسان البناء الدائم ، لا إنسان
المواسم والفرص والصدف !

هنا أضح ما يسمى بالنسق (البيداجوجى) أى التربوى .. إن علينا أن
نعيد النظر فيه على الساحة العربية الإسلامية ، لأننى لا أعتقد مطلقاً في
جديته وفي صلاحيته ، بل هو حالياً يفرز لنا أعداداً هائلة من البشر ، وصادف
حسن الحظ أن هناك أسواق تشغيل لهم في أماكن غنية من الوطن العربي
استطاعت أن نستوعب جانباً منهم ، ولكن مع الزمن ، ومع تعدد تكثيف
هذا العطاء البشرى الذى لم يرتبط بواقع ، قد يخلق الأزمة الكبرى التى
هى تاج الأزمات ، وهى أزمة المثقف ، أو بطالة المثقف ، وهى أسمى بكثير
من بطالة العامل الأسمى الذى يعطى بالقليل من الاستهلاك ، أما بطالة المثقف
فهى محترفة وهى فى حاجة إلى أن يعطى استهلاكاً متعدد الجوانب ،
لأنه تعود على بعض العادات التى اكتسبها عن طريق التفاعل الحضارى ،
فأصبحت صرخاته ، وأصبح بكاؤه أكثر بكثير من الإنسان الأسمى الذى
يتعامل مع الطبيعة ببساطة ، وأقل شىء يرضيه ، وأعنى بذلك الإنسان
البيسط الذى يعيش في البوادي والقرى ..

● والسؤال : كيف نعيد النظر في النسق التربوى ؟

أقول : إن المشكلة تكمن في أن نعيد النظر في البرامج التعليمية ، فهذا
غير مجد ، المهم أن نبدأ بطفل الابتدائى ، لا من طلبة الجامعات ، وحينما
أقول نسق تربوى (بيداجوجى) فهذا يعنى تربية الطفل ، ولا نرى أن
تغيير هذا النسق البادىء من الطفل قد يخلق الارتباك في بناء التعليم
الراهن .

والقضية ليست قضية ترميم وترقيع ، واسمح لى بأن أضرب مثلاً
بالصين ، لو أنها سلكت منهج الترميمات والترقيعات لكانت قد حلت مشكلات
أربعة ملايين صينى وبقيت مشكلات ٩٠٠ مليون في انتظار الحلول ..

علينا أن نوقف هذه الإشكالات التى ابتدعها المستعمر ، وهى المركزية

التربوية المدرسية القائمة على مستوى تلقيني حتى يصبح الواقع أمام التلميذ في ناحية ، وهو ذاته في ناحية أخرى ! ..

وبالنسبة لمصر مثلاً : علينا أن نعيد النظر في تقسيم مصر إلى مناطق تربوية ، كل منطقة لها جهازها المستقل ، وتكون وظيفة الوزارة المركزية هي التنسيق بين الأجهزة التربوية . أى وزارات إقليمية تربوية ، ولو كاذب الأمر يبدى لجعلت هناك على الأقل ثلاث أو أربع وزارات تربوية في مصر ، بمعنى وزارة للحضانة ووزارة للتعليم الابتدائي ، ووزارة للتعليم الثانوي ، ووزارة للتعليم الجامعي .. ولتوضيح المناهج بحيث تكون لكل منطقة من مناطق مصر نسق (بيداجوجي) تربوي يتكيف معها .. مع ثروات المنطقة وتقاليدها وأعرافها ، وخلق منافسة تربوية بين مختلف الجهات ، ومن الممكن أن تحل مشكلة الهجرة من الريف إلى المدن عن طريق اللامركزية التربوية ..

❁ ولكن ما هو محتوى هذا النسق التربوي البادئ من الطفل ؟ !

.. أنا في تصوري كما تحدثت عن الوزارات الأربع أن أصنف المحتوى أيضاً بمراحل أربع :

مرحلة الحضانة والابتدائي والثانوي والجامعي ..

وقد يقول البعض ، كيف تنول حضانة ، ولكنني أعتقد أن العاملين أو الثلاثة عوامل الأولى في نشأة الطفل مهمة للغاية ، فحينما تعد طفلاً يعاني من الكبت والقهر ، ومن بناء الذات في مراحل نمو النفس الأولى من الصعب أن نستعيده حينما يصل لمرحلة المراهقة أو الشباب ..

وهذا يتطلب أن نعطي نوعاً من التوعية المبسطة على مستوى الأمهات بمعنى أن يكون هناك رقابة توجيهية ومرنة للدولة على حضانة الطفل في كل جهات النسق التربوي ، ونظام الحضانة بجميع بين عنصرين :

الأول البناء الجسدي ، والثاني البناء العقلي ..

البناء الجسدي يأتي عن طريق تزويد الأم والأسرة بأكثر قدر ممكن من أنواعى الصحى خصوصاً في مناطق الريف والبدو والفئات ضعيفة الدخل ،

وتأتى هنا أهمية دور وسائل الإصلاح ودور المرشادات .. وللتكوين الجسدى للطفل ينبغى أن تتضافر كل الجهود من أجل تغذية الطفل بعناصر الغذاء الحيوية ، فالعقل السليم فعلا فى الجسم السليم ، وطفل اليوم هو جسدى انغد ..

وثمة قضية هامة ، ونحن نتحدث عن الصحة العامة تفجرها آفة البلهارسيا ، والأمراض الطفيلية فى مصر والبلاد الإسلامية عموماً ، فيلزم حماية الطفل من كل هذه الأمراض ، واستئصالها منذ الصغر ، حتى لا نضطر إلى عمليات الترقيع الصحية له عندما يكبر ويلجأ إلى ترميم جسد منهار ..

الشق الثانى تنمية عقله ، وهنا لا ينبغى أن نعتد على نسق (بيداجوجى) مستورد مهما اتسم بالعلمية والعصرية ، بل نعتد على أنسقتنا الإسلامية ..

أقول وأستسمح : إن أوروبا الغربية الآن وهى موغلة فى التقدم ، وتمجد العلمية ، تعطى دائماً أهمية لتطعيم الطفل فى بدايته بالقيم المسيحية ، وتجعله يعيش فى إطار نوع من الثقة والعطاء الملائم ، فلتحاول الدول الإسلامية التى نقلد أوروبا فى الأزياء ، وقص الشعر ، أن تقلدها أيضاً فى التربية الدينية بمنهجها الإسلامى طبعاً ، ولنغرس فى الطفل قيم الدين الحنيف : التسامح ، والإخاء ، والحب ، والبر ، والإحسان ، كما أعطى أهمية مطلقة إلى جانب التربية الدينية المتواصلة للتكوين الرياضى ، بمعنى أكبر قدر ممكن من الترويض الرياضى للجسد لأن هذا هو التكوين العقلى ، وهو مطلوب .. ومع إعطاء أهمية فى نفس الوقت لاكتشاف قدرات الصبى أو الفتى فهناك الشاب الذى يتميز عطاؤه العضلى وآخر يتميز عطاؤه العقلى ، وهنا يبدأ أول توجيه للاختبارات المهنية فيصبح هناك نوع من الاختبارات (السيكلوجية) التلقائية عن طريق توجيهه وتكثيف وتنقية العقول .. ومن ثم تبدأ عملية الالتقاء ، لأننى أعتقد أن مصر ليست فى حاجة إلى تكثيف العقول بقدر ما هى فى حاجة إلى تنقية العقول .. ومن ثم نقول : إنه مع مطالع القرن الحادى والعشرين لم يعد هناك مكان لمجرد تراكم

العقول ، وإنما قدرة الخلق والإبداع العقلى هى التى تسير المجتمعات البشرية ، وهذا لا يمنع من أن نعطي أيضاً الأهمية على مستوى اتوجه المهني والتدريبي .. وهنا نستطيع أن نخلق إطاراً عريضاً من العمل الجماعي ..

لماذا لا تكون لدينا مدارس ثانوية تركز على ما نسيه بالعمل الجماعي الميداني بحيث يتفرغ الطلبة ٣ أو ٦ أشهر للعمل والإنتاج للمجتمع . ولنضرب بعرض الحائط قاعدة ٨ أشهر تعليم ، ٤ أشهر بظالة ، فماذا نفع لو أن كل الشباب تعلم ولا أحد يعمل !

وحيثما يتعلم لا يجد مكتبا يجلس عليه . وإذا وجد يصبح مكتبياً
الزعة !

وإذا كانت القضية مجرد تكثيف للخريجين بتكثيف لمسلسلات من الواقفين أمام غرف الانتظار ، ثم بعد هذا كل يتلهف على أن يخرج من أرضه لا أن يبقى فيها .. فهذه مأساة ..

والقاعدة الشاذة أن تقوم بعملية مجانية كاملة في التعليم . ليخرج علماء يهاجرون ، أنت حقيقة تبنى لغيرك لا أكثر ولا أقل . وغيرك حينما يتم بناؤه سيقول لك : اذهب من حيث جئت .

.. كمزيد من التوضيح .. إن هناك أسواق تشغيل محيطية بمصر ، واستطاعت أن تقوم بتخفيف أزمة التوظيف والعمالة ولكن بشكل مؤقت ، وإن كنا نقع في دائرة اللاشعور بها حالياً - ولكن سيأتي الوقت - والغريب أن مصر تواجه داخليا أزمة عمالة ..

إذن أنا شخصيا من أنصار الجامعات الإقليمية ، أو جامعات على مستوى المحافظات تكون لها طبيعة سد حاجة في متطلبات المحافظات وبين ما تعطيه جامعة هذه المحافظة ..

وبالتالى يكون هناك نوع من الاكتفاء الذاتي على مستوى كيفية ملء

انفراغ ، وملء الأماكن في البنية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية ، والدينية والهندسية والطبية للأقاليم .. ثم تكون لدينا جامعة أعلى .. يعنى جامعة الجامعات .. وهى لا تنطلق من شهادة الثانوية العامة ، وإنما هى خلاصة العقول النادرة التى استطاعت أن تبرز وتؤكد وجودها على مستوى الجامعات الإقليمية وبالتالي هنا أستطيع أن أخلق شكلا من التنوع فى وحدة النسق ووحدة للنسق فى تنوعه ..

وفى تصورى أن إعداد هذا النسق (البيداجوجى) التربوى يمكن أن تنجز خلال عشر سنوات ، وعموماً إذا استغرقت جيلا كاملا فنحن الراجحون بلا منازع .. لأننا سنكسب الإنسان المتعلم المؤمن بربه ووطنه ..

وانطلاقا من مفهوم التربية يثير الدكتور رشدى فكار موضوعا يركز عليه ، وهو القدوة فى البطولة ..

.. نحن فى مسيس الحاجة فعلا ، خصوصا فى مرحلة المواجهات الحاسمة التى تخوضها الأمة الاسلامية ضد أعداء وجودها وعقيدتها ، وحضارتها ، ان نركز على مفهوم البطولة موضوعيا ، ليجد طريقه الى الذهنية العربية المسلمة بدءاً من الطفل ، بطل الفد .. الذى يتطلع لنماذج من البطولة الفذة من امثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد ، وابن تشفين ، ومحمد الخامس ، وصالح الدين الأيوبي ، وقطر ، وعرابى ، ومن امثال : الفارابى ، وابن سينيا ، وابن رشد ، وابن خلدون وابن حزم ، وابن الطفيل ، والقاضى عياض ، وابن تيمية ، وابن عبد الوهاب ، وشوقى ، والبارودى ، ومصطفى مشرفة ، وغيرهم الكثير فى مشرق الأمة ومغربها ..

.. ولا بد من إجراء عملية مراجعة تاريخية لاستبعاد البطولات الزائفة ، وانتقاء البطولات الحقيقية الفذة ، على أن يشترك فى هذه العملية التاريخية مختصون فى التاريخ ، والعلوم العسكرية ، وعلوم النفس ، والاجتماع والسياسة والقانون والشريعة ، والإعلام .

إننا من خلال هذا التحليل العلى للبطل التاريخى نحاول أن نستشف إطاراً ونموذجاً لشخصية البطل تقدمه للطفل كقدوة إلى جانب أن تقدمه له كتاريخ ، وهنا تكتمل الصورة التاريخية مع الصورة النفسية والاجتماعية ،

ونحاول أيضاً التخفيف من الزيف التاريخي للبطولات التي فرضت علينا فرضاً في التاريخ ، حتى لا يقف الطفل أمام شخصية تتضارب حولها آراء المؤرخين والعلماء ، فيقف حائراً هل هو أمام بطل حقيقي ، أم خائن ! .. لأن مجرد الشك سيفسد كل المعايير ، إن المشكوك في بطولتهم من الأفضل أن نلحقهم ببقية مجهولي الهوية بدلاً من إضافتهم زوراً وبهتاناً إلى مجموع تراث الأمة ..

لابد من عملية (الغرلة) التاريخية هذه والبعد تماماً من اقتعال البطولات خصوصاً في تاريخنا المعاصر .. لأن التاريخ ليس ملكاً لنا ، وينبغي ألا نحمله أكثر مما يحتمل ، ولنضع في أذهاننا أجيالاً ستولد خلال القرن الحادى والعشرين الميلادى سيكون لها منظارها على بطولتنا ونظرتنا إليها ..

أنا من أنصار شمولية البطولة ، لابد من أن نوسع من مفهومها لتشمل كل مواقف البطولة التي هي في مفهومى العطاء والتضحية للأمة في كل المجالات ، ولاشك في أننا في هذا العصر الذى يدور فيه الصراع حول العلم وقدرة العقل والذهنية البشرية ، لا نستطيع إلا أن نسلط الضوء على المبتكر والمخترع والمفكر ، والشاعر ، كما نسلطه على المنقذ والمضحى والمستشهد .

❁ ولكن هل يمكن ان ننظر في لعرض بطولات الشعوب الاخرى ام نقصرها على بطولاتنا العربية والاسلامية ؟

.. أقول نعم لبطولات الغير . ولكن بشرط ألا يكونوا في موقع الخصومة والعداء ، وإلا سنزرع في نفس الفتى المسلم نوعاً من الإحباط والعقد وقصور الفهم ..

❁ وهل ترى ان المسلك التربوى لعرض البطولة يبدأ بالترويض العضلى أم العقلى ؟ ..

.. أنا دائماً من دعاة تمرين وتدريب وترويض العضل إلى جانب ترويض العقل ، وما أحوجنا الآن في مدارسنا ومعاهدنا التربوية إلى أن نركز أيضاً

على تكوين الخشونة البدنية التي تعيش جنباً إلى جنب مع قدرة الإنطلاق
الفكرى والذهنى والتدريب على السلاح .

وأنا أعطي كمجرد مثال : بلدا مثل سويسرا ، وهى كما هو معلوم عنها
دولة محايدة ، وفى قمة الحضارة ، وبرغم حيادها وبعدها عن حلبة الحروب
فهى عبارة عن جيش كامل ، كل مواطن بها جندي ، وكل جبالها مخابىء
للطعام والبشر والأدوية والسلاح .. مخابىء مجهزة ضد الحروب الذرية ..

إن اهتمامنا بالتربية العسكرية ليس دليلا على حننا للحروب وسفك
الدماء ولكنها ضرورة حياة فى ظل عالم لا يكف عن العدوان ..

● للأسف أن قدوة البطولة أمام شبابنا الآن تكاد تتبلور وتتركز فى لاعبي
الرياضة وبالذات نوع واحد منها وهى كرة القدم ، فما تعليقكم على هذه
الظاهرة ؟ ..

.. إنها فى الواقع مشكلة كبرى ، نعم هى رياضة محبة إلينا جميعاً ، ولكن
لا نريدها أن تصبح قضية « ذهانية أو عصائية » هامة تتحرك من أجلها كل
الطاقات .. لأن المجتمع بقدر ما يحرك أقدامه ، فى حاجة إلى أن يحرك عقوله
وأذرعته .. فإذا ركزنا على القدمين فقط ، ربما لا يحدث نوع من التكامل
لبقية الأجهزة .. إنها فعلا ظاهرة مفزعة ، أن تفتقر كرة ، وتتعدى كرة ، وتأمل
كرة ، ونحل مشكلاتنا بالكرة .

● فى الطريق الى خلق القدوة فى البطولة أمام الأجيال ما هى فى نظركم
انسب الوسائل لتحقيق هذه الغاية ؟

.. فى نسق البرنامج التربوى للأطفال ، ما أحوجنا إلى نوع من الإنتاج
التلفزيونى المدروس الذى يقدم للتلميذ فى شكل مبسط للغاية بطلا فى بيئته
التي تفجرت فيها بطولته ، يعنى : يرى خالد بن الوليد كطفل ، ويراه كقائد
لا يغلب أبداً .. ونحاول أن نستدرج الطالب من خلال هذا العمل الفنى
الثقافى إلى أن يتكيف معه ويرى فى نفسه أنه يمكنه أن يجذو حذو هذا البطل
ويسلك طريقه .. بمعنى أن نبدأ بالوسائل البصرية ، وفى إطار تقديم

البطولات ينبغي أن نبتعد عن برامج التسلية التي تقدم السوبرمان الذي يأتي بأمور خارقة للعادة ، لأنه لو حاول تقمص شخصية السوبرمان سيحدث له نوع من الانقصاص في الشخصية حينما يكبر .. ينبغي أن نزرع في وجدانه أن البطولة سلوك ممتاز ، وأعمال محسوبة ، بل ومجازفات مفيدة وتضحيات سبق التخطيط لها من أجل العقيدة والوطن . ومن ثم تدخل في ذهنه هذه الصورة الواضحة الواقعية لا الخيالية والتي هي قابلة للتكرار بالنسبة لبطل المستقبل .. مع العمل على عدم قمع الطموح لدى الطفل .. فلنفرض أن طالبا شاهد مسلسلا تلفزيونيا لصالح الدين الأيوبي ، وحاول أن يقلد هذا البطل ، حسنا .. علينا أن نشجعه على المحاكاة ، والتقليد ، ولا نقول له : دعك من هذا العبث واذهب لتأكل أو لتذاكر ، لأن أسلوب دعك من هذا ، قد يقوده في النهاية إلى سلوك سلبي ، ومفهوم خاطيء يقول : إن كل شيء أصبح مرفوضا بالنسبة له ، وكذلك ينبغي ألا نقمع طموح الطفل ، فإذا حاول أن يقلد خالد بن الوليد ، وكان في المشهد التلفزيوني طويلا عملاقا ، لا نقول له : أنت يا قصير تشبه بهذا العملاق ؟ .

ولكن على العكس نقول له : إن العملاقة يمكن أن تتأتى في جسم صغير ، ولنتذكر قول شاعر ألمانيا « جوته » : « لكى تصبح ألمانيا عظيمة .. على كل طفل ألماني أن يطمع في أن يكون عظيماً » ..

● في مجال السلوك التربوي لخلق البطولة : هل نترك الأمور لتسيير عشوائية لتعلن البطولات والمواهب عن نفسها ، أم نتصيد من خلال مراقبة الطلاب انتقاء بذور البطولة ونميتها ، ونسلط عليها ضوء الشمس ؟

.. أرى أن نأخذ بالأسلوبين التربويين معا .. بمعنى أنني وإن كنت من أنصار الانتقاء فإنني أيضاً إلى جانب إعطاء الفرصة أيضاً لمن يمكن أن يشق طريقه .

لا بد أن نتقى ، ولكن دوز أن نقفل الباب أمام الآخرين ..

(١٢)

نظرة على متاعب مصر الاجتماعية (المشكلات والحلول)

من المعروف أن الدكتور رشدى فكار ساهم فى العديد من الأبحاث والتحقيقات العلمية الميدانية للمشاركة فى وجود حلول لمشاكل بعض المجتمعات الغربية المشهورة ، ونال العديد من التقدير والتكريم سواء فى سويسرا أو فرنسا أو غيرها ..

وكان أن خطر فى ذهنى السؤال .. طرحته عليه ..

● إذا كانت لك وأنت عالم اجتماع اسهاماتك لعلاج مشاكل الثروة والترف والتقدم فى بلد أوروبى متخيم ، فلماذا لا تدلى بدلوك لعلاج مشكلات التخلف فى وطنك مصر ؟ ..

ما هى أهم وسيلة لعلاجها ..

وبدا الحوار يدور حول هذا الموضوع .. فماذا قال ابن قرية الكرنك فى صعيد مصر ؟

.. أهم وسيلة فى نظرى ، وقد تبدو غريبة لأول وهلة أن نضارب على نفس عوامل الإعاقة لتتحول إلى عوامل تحفز وتقدم !

كيف ؟ .. إن كل مجتمع له عوامل قد تبدو فى آليتها وديناميكيته أنها عوامل إعاقة ، وفعلا تتحرك على أنها عوامل إعاقة .. ولكن كيف نستطيع عن طريق التدخل سواء على مستوى التشريع أو التوعية ، أو التربية المبسطة أن نقوم بعملية امتصاص لكى نحول عوامل الإعاقة إلى عوامل حفز ، وعوامل تقدم ؟ ..

هذه هي القضية ! ..

لنضرب بعض الأمثلة : لدينا في الصعيد ، وبعض المناطق الريفية ، هنا وهناك قضية العصبية التي تحدث عنها ابن خلدون .. والتمسك بالتقاليد والأعراف ، وهذه يمكن أن تؤثر بالسلب وتكون عائقاً أمام مخططات التنمية والتقدم العلمى ، واستئناس التكنولوجيا ، ويكفى أن تتور أشاعة معينة بالنسبة لآلة من الآلات ، أو لاختراع جديد ليؤدى ذلك إلى نفور بلدة بأكملها .. لأن هناك نوعاً من التضامن الفكرى التلقائى يجعل من السهل -نق تجانس فى الموقف ..

ولكن كيف يمكن أن نخلق تجانسا فى الموقف ونحول هذه القدرات الكامنة فى قلب الريف إلى قدرات دفع ؟

أنا شخصياً لا أعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتكرر ، وأن يخلق فى غيبة من حوافز أغوار نفسه ، فلنخاطب الوجدان والمشاعر الكامنة المترسبة فى الإنسان الريفى ، لنجعل منها قوة تحرك لكى يبنى لا لكى يتقوقع وينجمد .. لأن مثل هذه التقاليد استطاعت أن تعيد صياغة الإنسان اليابانى الذى يتعامل مع أحدث الآلات والاختراعات الدقيقة مع احتفاظه بحياته الأسرية ، وتقليدها العتيقة فى المأكل والملبس وسماع الموسيقى ، وهذا مما جعل اليابانى يتفوق بعد أن تعرف على سر المهنة والوصفة التكنولوجية ، واستطاع أن ينعكس عليها بوجدانه ، بالصبر الذى أملت عليه عقيدته البوذية ، وعملية التمرکز الذهنى الهائل جعلته يخترع أصغر الأجهزة بقدرته تحكم يصعب على من هم أفدر منه وأسبق فى العلم صنع ذلك ..

وأعظم من مثل هذا لدينا نحن العقيدة الإسلامية التى يمكن أن تتحول إلى قدرة إيجابية هائلة بطريقة واعية ، لا سطحية أو تلقينية ، أو تهتم بالقشور ..

إننا حينما نركز على ما فى الإسلام من تمجيد لقدرة الإنسان ، ولعقله ولصبره ، وكيف أن الله أمرنا فى قرآنه الكريم بأن نتواصى بالحق ، وأن نتواصى بالصبر فمن غير صبر وثبات لا يتحقق شرط الدفاع عن كل ما هو

حق وصدق ونبل .. وكلم من آيات ، ومن أحاديث شريفة تدعو إلى العمل والإنتاج ، وإصلاح الأرض ، وإتقان العمل ، وتدعو إلى المؤمن القوى لا الضعيف ، وتدعو إلى قوة الأسرة والوعى بحقائق العصر ، هذا هو الوجدان الدينى الذى يمكن أن نطلق من خلاله كل شرارات الإبداع لإجتياز التخلف .

● ويفقدنا الحديث عن مشاكل التخلف الى مشكلة الأمية التى تزداد وتنشط برغم كل الحملات والجهود لحصارها .. فكيف ترون خلاصا حاسما لها ؟

.. لى وجهة نظر خاصة ، ربما أطرحتها فى مصر لأول مرة وهى أن مفتاح محو الأمية يأتى بقدرة الوجدان لا بعملية التعود على التلقين ، أى أن يتم محوها من خلال القلب والوجدان ، لا من مجرد اللسان ..

أشرح ما أقول .. بصفتنا مجتمعا مسلماً .. هل كانت لدينا أمية فى العصور الإسلامية الأولى ؟ .. لقد لاحظت أن كثيراً من القبائل العربية فى الشمال الإفريقى يندر وجود أمى بها .. وذلك لحرصها على القرآن وحفظه وتدريس علومه ، وفى مصر وكل البلاد العربية كانت الكتاتيب تقوم بهذه المهمة لا لتعلم القراء والكتابة ومحو الأمية .. وبالتالي لا بد أن نربط محو الأمية بالوجدان ، نربطها بالقرآن .. نحن لا نحتاج إلى تكاليف وخطط ، بل نحتاج إلى قيمة التبسيط ، أن تتعامل مباشرة مع الوجدان ، بأن ننشر الكتاتيب القرآنية على أوسع نطاق .. فى تصورى أنه من الخطأ طرح مشكلة الأمية بطريقة بيروقراطية ، هذه مشكلة تعبوية خاصة بتوعية الوجدان من القلب !

● مشكلة اخرى .. تمثل احد همومنا الآن - أو هكذا يتصورون - وهى ما يطلق عليه بمشكلة تنظيم النسل .. ماذا تقولون عنها ؟

.. مشكلة كبرى قتلت بحثا ، ولى فيها رأى من خلال عدة دراسات عن النمو الديموجرافى (السكانى) .. وأرى أنها قد تكون مشكلة فى مصر ، أو لا تمثل لها مشكلة فى ظرف من الظروف .. ففى تصورى ، وهذا ينطبق على كل المجتمعات : إن مشكلة النمو الديمجرافى مشكلة ظرفية أكثر

منها مشكلة استيطانية ، يعنى مسكن لمجتمع حينما يكون في فترة القوة والعتاء ، أن يستوعب أى قدر من السكان ، ونفس المجتمع حينما يكون في فترة هزات وتوعك لا يستوعب أقل قدر ممكن من السكان . ومن ثم فأنا اضرح دائماً مشكلة لنسو الديوجرافى مع الشرطية والظرفية التى وضع فيها ومع مرحليتها ..

وبالنسبة لمصر هناك سوء توزيع سكانى من قبل أن يكون هناك كثافة سكانية .. هناك سوء توزيع طبيعى بين الصحراء والخضرة ، وبين المدن والقرى . وبين المدن فيما بينها ..

هناك تعدد للمدن الكبرى ، والمفروض أن يكون التعدد فى الوسطى والصغرى ، بمعنى تشجيع المدن الصغرى لأن تكون متوسطة . وتشجيع القرى الكبرى لتتحول إلى مدن ، ومحاولة زجر المدن الكبرى لكى تتواضع ، لا لتقوم بعملية امتصاص هائلة لكل الطاقات . لتتحول من طاقات عاملة إلى طاقات عاطلة تعيش على حساب المدن الكبرى وتكثف وتخفق خدماتها العامة ، وهذه مشكلة كبرى الآن بالنسبة للقاهرة الكبرى ، والمدن الكبرى فى مصر ..

والسؤال الذى يجب أن يطرح على المسئولين فى قطاع التعمير .. هل القاهرة لها أجل مفروض أن تنتهى فيه ، أم أنها مطالبة بأن تعبر القرون ؟

فى تصورى أن خير البر عاجله ، فبقدر ما نستعجل فى مواجهة بعض المشكلات بقدر ما تكون الحلول أكثر جدية ، وقد يكون الحل كما فعلت البرازيل بنقل عاصمتها من ريو دى جانيرو إلى برازيليا .

● معنى هذا أنك تشجع الاستراتيجية السائدة الآن ، وهو خلق المدن الجديدة مثل (مدينة ١٠ رمضان ، واكتوبر ، والعامرية ، ومايو ، والعبور ، والأمل) ؟ ..

.. أشجعها ؟ نعم ، ولكنى كنت أتسنى ألا تكون مغلقة للقاهرة ، وأتمنى

للمدن الجديدة أن تكون بعيدة عنها تماما حتى لا نحاول أن نشفى الداء بما هو أكثر داء منه ، وأخشى ما أخشاه أن تتحول القاهرة الكبرى إلى القاهرة العملاقة . وأرى بالنسبة للمدن الجديدة أن تكون هناك أولوية مطلقة للخدمات العامة على كل اعتبار . وبقدر ما نعطي المواطن إمكانية اختزال المكان بقدر ما تضيق مجال متاعبه . وذلك بتوفير أحدث وسائل المواصلات .

● يتداعى الحديث تلقائيا عن مشكلة هجرة البشر المكثفة في مصر من القرى إلى المدن .. ما حلولكم لهذه المشكلة ؟

.. هي مشكلة معقدة دخلت في مسلسل (استلابي) بمعنى أن المواطن يشعر أنه لمجرد العيش في المدينة تحل مشكلاته كلها ، والحقيقة أن مشكلاته تعقدت من هذه الزاوية . والعلاج هو نقل النحضر إلى الريف ، فبدلا من أن يذهب الريف إلى الحضر ، يظل مكانه ، ويأتي الحضر إليه بأن نركز على إعطاء أهمية للوحدات العنصرية في القرى لتتحول إلى مدن ، والتجمعات الصغيرة لتتحول إلى قرى عن طريق تكثيف الخدمات ، كالمستشفى والمستوصف ، ومكان العمل ، ودور الثقافة والمدارس ، وأنا أشجع الهجرات المحلية داخل المناطق والجهات النائية ، لا منها إلى العاصمة . بسعنى بدلا من الهجرة طويلة المدى ، نخلق الهجرة قصيرة المدى ، فبدلا من أن يهاجر الريفى أو البدوى ١١ ساعة بالقطار يهاجر نصف ساعة فقط !

● وهل ترونكم فكرة المجتمعات الجديدة التى تأخذ مجراها الآن من خلال مشروعات استصلاح الصحارى بالواحات الغربية وجنوب الوادى والبحر الأحمر ؟

.. لا أستطيع الحكم عليها علميا إلا برؤيتها بالطبع . ولكن نظريا لا أنصح على المضاربة على الميئوس منها ، ولا أعتقد فى حرية التعامل مع القاحل وتفرغ الطاقات فيه ، من الأفضل أن أركز على المعطاء لأن هناك قضية الزمن ، وقضية الطاقة ، بمعنى أشترط أن تكون الشروط الأساسية للتعمير متوافرة .. هنا مناطق صناعة ، زراعة ، مياه وفيرة ، وأرض خصبة ، وهكذا ، فالملاحظ الآن أن الدول المتقدمة تشجع الدول النامية على المضاربة على القلق المتفعل ! ..

أما في الدول المتقدمة فالعكس صحيح ، فقد شاهدت بنفسى فى فرنسا ، وهى دولة فى قمة التكنولوجيا والعلم ، كيف طلبت الحكومة هناك من سكان منطقة السافوا ومناطق كثيرة جبلية مجدبة ، وغير معطاءة ، وثلجية ، بالنزول إلى السفح حيث المدرسة ، والمستشفى والأرض المعطاءة ، وذلك بدلا من المجازفة وتوصيل الخدمات إلى قسم الجبال ، والتسك بهذه المجتمعات لمجرد أنها مثنى الآباء والأجداد !

● وكيف يمكن أن تتعايش التكنولوجيا مع البيئة فى مجتمعنا بدون حدوث مشكلات بين الواقع الريفى التقليدى والواقع الجديد الصناعى ؟

.. فى تصورى أننا ركزنا أكثر مما يجب على عصا موسى السحرية ، وهى التكنولوجيا للخروج من مأزق التخلف ، ورغم أنها لا يمكن أن تلتقى بالإنسان إلا فى بيئة مهياة .. والبيئة قبل التكنولوجيا ، وأنا أفضل أن تاخذ المجتمعات النامية الفتية بالتقنيات البسيطة كالصناعات الزراعية واليدوية .. فما يصلح لدولة ليس شرطا أن يناسب دولة أخرى ، حتى الأدوية التى يستفيد بها جسم قد يرفضها جسم آخر .. وقد يكون من الأسرع والأنجح لنقل التكنولوجيا أن ألقى بمجموعات كبيرة من العمال فى المجتمعات الصناعية لندرس وتعيش فى البيئة التكنولوجية ثم يتم استعادتها مرة أخرى ، وعلى أكتافها تقوم التكنولوجيا .

● تشكو مصر ، وكل المجتمعات النامية من ظاهرة سرفة العقول .. عقول علمائها ، فكيف نواجه هذه المشكلة المعقدة ؟

.. مشكلة كبرى حقا .. وأعتقد أن العالم المتقدم استطاع أن يعكس نظرية التقدم ، فهو يحصل من العالم الثالث رغم ثلوث تخلفه (الفقر - الجهل - المرض) على قدرة إضافية تزيد من قوته ، فهو يحصل على الطاقة ، وعقل العلماء ، وقضية هجرة العقول لا تقل خطورة عن هجرة الطاقة ، فالعقل هو الطاقة الرائدة التى تقوم بعملية الربط بين طاقة الطبيعة ، وطاقة العضل .. أى البشر ..

وكم من المستشفيات والمصانع والمشروعات الاقتصادية والمعامل العلمية

فى دول الغرب عامرة بأبناء العالم الثالث .. ومواجهة المشكلة نيس بالأمر الهين . فإذا تمكن العالم الثالث من تقديم الحوافز المادية التى يقدمها الغرب ، فإنه من العسير أن يفى بالمتطلبات العلمية ، وتوفير بيئة البحث والتكنولوجيا ، وبذلك نعود إلى نفس المشكلة .. نقل التكنولوجيا واختزال الزمن !

* * *

(١٣) حول مشكلات وتطوير القرى والمدن العربية

🌍 القرية المصرية ، بل وكل قرية من قرى أمتنا الاسلامية عنوان للتخلف
«جنى اى والاقتصادى ..»

كيف يمكن للتقنيات الحديثة ان تترك بصماتها عليها ؟

.. من المعروف ان هناك العديد من المؤسسات والمراكز الدولية التى تعمل وتهتم بالبيئات القروية والزراعية ، ومن هذه المراكز مركز توظيف تقنيات الطاقة فى البيئة الزراعية فى جنيف ، وهذا المركز يحاول عن طريق اقتراح مشروعات أن يسهم فى توظيف واستئناس التقنيات الحديثة لاستغلال الطاقة على مختلف مستوياتها فى بيئات الزراعة باعتبار أن البيئة الزراعية تلتقى من ناحية بأفاق الإنسان معبدة زمانياً ومكانياً على أعلى مستوى مستغلة كل الطاقات ، طاقة الطبيعة .. الهراء والشمس ، وعطاء الأرض .. إلى آخره من الأمور المعروفة ، وقد أتيح لنا كاستشار أن نسهم فى نشاط هذا المركز ومشروعاته المستقبلية ، ويكاد ان يكون هناك اتفاق فى أن مجتمعات العالم الثالث أساسا تعاني من مشكلات لتخلف .. وعندما نقول مشكلات التخلف نعنى مشكلات أغلبية البيئات الزراعيه ، فالمتخلف الحقيقى يس هو مجتمع نام ، وإنما المتخلف هو الجانب أو القطاع الزراعى الذى يتسكل فى أكثر الأحيان الغالبية ، أى أن أغلبية المجتمع قطاع زراعى أو بيئة زراعية قروية ، وما يتبقى مدن ووحدات حضارية فلو استطعنا أن نقوم بمعالجة القرية وربطها بالتحضر لتحاشينا بذلك مشكلات بلا حدود أدت فى النهاية إلى كساد القرية ، واختناق المدينة .. فمن ناحية المدن اختنقت على كل المستويات ، بشريا ، ومن حيث الخدمات العامة والمرافق ، أغلب المدن فى العالم الثالث

اختنقت أو في طريقها للاختناق ، وما نجا منها لن ينجو في المستقبل لأن
السلسل مستمر ..

ومثل هذه المراكز العلمية تحاول أن تركز لا على مشكلات المدن ، وإنما
على امتصاص المشكلات من جذورها ، وهى البيئة الزراعية ..

🕒 كيف تتحول البيئة الزراعية الى بيئة مستانسة للتقنيات لا رافضة
لها ، مستانسة للبشر لا طاردة لهم ؟

.. من هذه الزاوية ثمة رؤية نطرح الآن بوضوعية ، وثمة مشروعات
متعددة ، منها محاولة خلق روح العمل الجماعى فى القرية ، لأنه من الصعب
مع التقنيات الجديدة أن تنمى على مستوى زراعة فردية ، وإنما لاستغلال
التقنيات الكبرى لا بد من مساحات كبيرة ، ولا بد من طاقات متكاملة كما
هو الحال الآن فى الشركات متعددة الجنسيات .. إن الشركات نفسها تحل
نفسها وتندمج فى بعضها لتصبح قادرة على الإنتاج والاستغلال والمضاربة ..
القرية نفس الشيء لا بد من عمل جماعى ، لأن اليد الواحدة لا تصفق ، لا بد
من يد الجماعة ، وعمل جماعى قادر يعمل معا لكى يستوعب القدرات
التقنية ، لأن الآلات الكبرى من الصعب على فرد له إمكانيات محدودة أن
يشتريها ويستأنسها ويتعود عليها ، لأنها تحتاج إلى مساحة واسعة من الأرض
مع عدد كبير من البشر ، ورأسمال متكامل وذلك يساوى استغلال للتقنيات
.. ولهذا تتجه هذه المراكز كما أقول لخلق العمل الجماعى .. والمفروض
أن هناك مجموعة تدرّب خلال ٦ شهور منهم المهندس الزراعى ، والباحث
الاجتماعى والموجه التربوى للتعرف على العادات والتقاليد السائدة ،
ويعاون الباحث الاجتماعى فى العمل الحقلى الميدانى ، إدارى واقتصادى ،
أى مجموعة من ٥ أو ٦ أفراد تشكل الحاجات المتعددة ، ويعملون على
استغلال الإنسان فى كل أبعاده وطاقاته وإمكانياته ، والأرض فى كل أبعادها
كالشمس والهواء والماء ، وما تعطى الأرض ، واستغلال حتى الحشرات
والديدان ، واستخدام العلم فى تحويل حتى البكتريا إلى طاقة ، وكذلك
المخلفات الآدمية والحيوانية إلى طاقة ، لهذا فى تصورى أن هذه المراكز
هامّة ، وأنا أميل شخصيا إلى نفس المنطق الذى يقول : إن مشكلة المدن تبحث

أساساً من جذورها ، أى القرية ، لأنها لو استطاعت الجهود أن تقيد قوة الطرد من القرية لبدات بنجاح عملية تهوية المدينة ، لأنه بقدر ما تتكلس القرية بقدر ما تستقبل المدينة ضيوفا ليست فى حاجة إليهم ، وحينما تستقبلهم كالمعدة التى تأكل أكثر مما تحتاج ، فيبدأ الانتفاخ والأعراض المرضية .

المدينة مريضة بالقرية . او ظاهرة قرونة المدن فى شكل أحيائها الهامشية ، فلو استطعنا أن نعالج القرية خصوصا الآن ، ومع الرغبة فى العودة إلى القرية ، وإن كانت هذه الرغبة تنطلق من مستوى الرفاهية وليس على مستوى من استئناس قدرات القرية . وأعنى بذلك هجرة قمم المدينة ، أو مستوى الفئة العليا للسدينة إلى الحياة الريفية عن طريق فيلات أنيقة مرفهة نهم بها .. ويلاحظ فى أوروبا أن كل من له إمكانيات يهاجر إلى الريف والغابات ، ليس للعمل بالطبع ، ولكن للتمتع بهدوء الريف . وجمال الطبيعة والخضرة الدائمة ..

إذن فالعودة للريف ممكنة ، ولكن من الأفضل أن يحاول أن يجعل من القرية قدرة ديناميكية تجعل منه إنسانا يعيش وهو راض عن القرية لا كاره لها .. كيف ؟ ..

حينما يستغل الإمكانيات والتقنيات الحديثة فى خلق لحياة الكريمة ولا أقول المرفهة ، بل حياة تتجاوز للضرورة والحاجة والكفاف ، هذه الناحية ربما تكون مثالية ، ولكنها تشكل محاولة جادة من الهند ، ولديها مشروعات كثيرة فى هذا المجال ، لأنها من الدول الفقيرة ، ومن دول العالم الثالث التى تحاول أن تستفيد من هذه الدراسات العلمية ..

وبالنسبة لمجتمعاتنا العربية ، وخاصة مصر ، التى بدأت قضية إسكانية الحضر ، أو إسكانية المدينة ..

فالمدينة لم تعد مشكلة ، وإنما إسكانية ، يعنى هناك الآن من يتشاءم ، ويقول إن الحل هو لا حل .. هل فعلا أننا حقيقة أمام مدن يشك فى وجود حلول لها لتعدد الحلول .. وتركبها لتنمو وتتضخم بطريقة شاذة إلى أن تنفجر ؟ ! هذه بالطبع قضية من الصعب قبولها فى عصر المنهج ، وعصر

التكنولوجيا ، وعصر سيطرة الإنسان على الطبيعة ، يعنى : صعب على الإنسان فى القرن العشرين أن يقبل هذا الذى كان يمكن قبوله فى القرون الوسطى ، صعب عليه أن ينتحب ويكى على الأطلال ، ويقول ضاعت المدينة ، وكل شىء إنتهى ! ..

كيف يتدخل ليقف هذا المد السلبي الذى هو فى طريقه لخلق مأساوية العمران ، وكارثة المدينة ..

.. فى اعتقادى ، المفروض أن نحارب المدن الكبرى الآن بكل السبل ، صحيح إنه قد يكون حولها نوع من الزهو والافتخار الوطنى ، ولكن المستقبل هو للمدن المتعادلة ، أى المدن الوسطى ، فبقدر تواضع المدن الكبرى بقدر ما يكون مستقبلها أكثر ضمانا ، أما دفع المدينة إلى العملاقة والتضخم الذى يصبح كنضخم العملة ، فهذه قضية يجب أن تواجه بكل صرامة وشدة ، وفى الوقت المناسب ، لأن ما أكثر المشكلات التى يمكن أن تحل بنوع من الجدية فى فترة معينة ، وبعد مرور سنوات يستحيل حلها .. نعم . من الأفضل مواجهتها أولا بأول ..

ما هو الحل ؟ .. هل من الأفضل البحث عن حلول ترفيهية ، بمعنى أن كل جانب يبدأ من تفتت المدن ، أم استخدام الحلول الجذرية ، وهل الحلول الجذرية تأتى من داخل المدينة أم من خارجها .. هذه القضية يدرسها كثير من علماء العمران ، وإنما من رأى أن حلول المدينة من خارجها وليست من داخلها ، المدينة ممر ، بقدر ما تحصر جوانبه ، بقدر ما يمكن حصره بالتالى ، وحصاره لتخفيف حدته .. وحينما يأتى البشر للمدينة هل يسهل أن نخرجهم منها وإعادتها إلى القرية ، لا .. من الصعب ، لأن الريفى بمجرد أن يتحول إلى أسلوب المدينة يتعالى على أسلوب القرية .

إذن فمن الأولى ألا يدخل فى هذا الإدمان الحضرى ، ويتعامل مع قرئته ، ولكن ليست القرية المهجورة ، وإنما القرية التى بدأت النمو والتحضر ، وأعتقد أن القرية المنعزلة ، المفروض بدورها أن نعيد النظر فيها ، فبقدر ما نقول إن المدينة الضخمة مهية ومخيفة

بقدر ما نقول إن القرية الضئيلة لا يمكن أن تستغل في آخر القرن العشرين ، لا يمكن أن نعطي لمجموعة من البشر ٢٠٠ أو ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ خدمات عامة على مستوى كثافة التكنولوجيا لأن كثافة التكنولوجيا تتطلب دائما كثافة بشرية .. لهذا المفروض أن نبدأ مسلسل تقليص العملاق والتضخم ، وأيضا دمج الصغير والمتضائل في صغره ، أي تجسيق القرى لتتحول إلى مدن صغيرة . والتقليل من المدد الكبرى لتتحول إلى متوسطة ، بمعنى أن المستقبل المأمول هو للمدن الصغيرة والمتوسطة ، وهذا يتطلب النفس الطويل ، والابتعاد عن المجازفة : إنطلاقا من القرية المتنقلة (الرحل) مروراً بالقرية النائية والقرية المهمشة للمدينة حتى ظاهرة قرونة المدينة أو الأحياء الهامشية الشعبية المعيقة للخدمات العامة والمرهفة للمرافق ..

إن المدينة في رأي مريض .. من الأفضل أن نبذل كل ما في جهدنا لكي نظهر المكان الذي ينم فيه حتى لا نأنيه الميكروبات ، وحتى لا تحدث مضاعفات . ثم نسهر على راحته وتوفير الهدوء له . حتى لا تحدث له مضاعفات ، وحتى يتجاوز الأزمة ، ونخفف أيضاً من الأكل الذي يملأ معدته حتى لا يؤثر في الدورة الدموية ، أي نضمن له القدرة على المقاومة ، وتقوية المناعة الداخلية . لساعده أولاً بأول على أن يسترد صحته .. وبالطبع كل ذلك يجب أن نبدأ به قبل أن تتعجل عملية فتح البطن ، وشق القلب وتغيير ضبيعة الدم وحركته عن طريق لسوائل .. إلى آخره ..

وبنفس المعيار تتساءل : هل المدينة من الأفضل أن تلاحظ ويسنح الوصول إليها والمزيد من تكثيفها ، أم التدخل في عمقها لإعادة صياغتها .. أنا لا أعتقد في إمكانية صياغة المدينة من داخلها ، إلا إذا استثنينا التي تبنت ما يعرف في الدراسات العمرانية ببدء ما يسمى بالصيانة الدائمة ، أي استمرار إعادة النظر في المدينة ، في أحيائها وشوارعها أولاً بأول ، بمعنى أن الصيانة مستمرة .. والشئ الذي لم يلاحظ يتم ملاحظته حتى يتم اكتشافه قبل أن يقع ، وهذا ما يحدث في أوروبا بالطبع .. أما في بلادنا فهذا صعب .. حيث لا يسود أسلوب الصياغة الدائمة . ولكن القضية هي أت حين تتعرض للمشكلة نقف لتساءل .. كيف نرفع ؟ ..

وقد تبرز حلول نخفف من حدة الكارثة ؛ وتقلل من كثافة الضرر . ولكنه لن ينته ، بل سيظهر حتما .. لهذا فأنا فى دراساتي من أنصار تصنيف أى مدينة من المدن إلى مستويات ثلاثة :

— الفئة السليمة نسبياً ..

— الفئة القابلة للعلاج ..

— الفئة التى لا علاج لها : ويجب تغييرها نهائياً بمعنى تقسيم المدينة إلى أقسام ثلاثة :

— قسم حديث يتمتع بخدمات عامة ، والتخطيط العمرانى به لم يصل إلى نصف العمر الافتراضى ، وهذا قطاع لا يدخل فى مسلسل إعادة الصياغة .

— وهناك القسم الذى اهتز جانب منه ..

— وهناك القسم المهلهل ..

ومن الخطأ معالجة الأقسام الثلاثة بنفس الدواء .

فالقسم الأول : يواجه بالعزل ، أى الصيانة المستمرة ، حتى لا تنتقل إليه العدوى ، وحتى لا يستفحل الأمر ، أما **القسم الثانى** فهذا له علاج مرحلى وليبحث أمره لتقسيمه بدوره إلى قسمين ، جانب منه يلحق بالقطاع الأول السليم ، وجانب آخر منه يلحق بالقطاع المهلهل .

أما القسم الثالث : فهو يقسم إلى مستويات متعددة ، وأحياء .. تحتية التحتى ، وسطحية التحتى ، فوقية التحتى ، تحتية الوسطى ، وسطية الوسطى ، فوقية الوسطى ، فوقية الوسطى ، ثم تحتية الفوقى ، وسطية الفوقى ، فوقية الفوقى .

فوقية الفوقى : لا مشكلة فيها ، ووسطية الفوقى تراقب ، وتحتية الفوقى ينظر إليها بنوع من الصرامة لأنها هى التى ستصل بداية المشكلات فى الخدمات العامة ، ثم تأتى مرحلة الوسط ، مرحلة فوقية الوسطى تصحح لتلحق بما هو أعلى تخفيفاً لميزانية الدولة ، وتبقى تحتية الوسطى وتلحق بالتحتى ..

والتحتية أقسام ثلاثة . تحنية النحتى ، تهدم نهائياً ، ويخلق لها ما يسمى بالحى المتنقل ، فى أماكن قريبة من المدينة ، تستوعب ١٠٠ ألف نسمة أو أكثر ، وينقل إليها الناس الذين يساهمون فى بناء مساكنهم ، حتى إذا أتموا بناءها ينقلوا إليها ، ويتم نقل وسطية التحتى إليها ، وتدمر بيوتهم ثم يسكنون فى الحى المتنقل حتى يتم بناء مساكنهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لفوقية التحتى ..

● ولكن كيف يمكن تطبيق هذه القواعد على مدينة كالقاهرة الكبرى ؟

.. بالنسبة لمصر عموماً ، فالمشكلة أنها تعاني حالياً من تفرغ القرى وكساد الطاقة الإنسانية وبالتالى طاقة الطبيعة ، لأنها هى الحركة ، ونبديد هذه الطاقة لصالح المدن مشكلة ..

والمعروف أن مصر تعاني من ظاهرة تضخم القاهرة وأخشى أن تصبح مصر هى القاهرة ، كما تجرى على السنة العامة ، وأدت ظاهرة الهجرة وتفرغ القرى لحساب القاهرة ، أن أصبحت القاهرة مدينة مفتعلة تمتص القرى ، ولا تكفى بذلك ، بل وتمتص ما يفيض من المدن الأخرى ، فهناك سوء توزيع ديموغرافى (سكانى) فى المدن ، وهناك تفرغ القرى لصالح خارج المدينة ، وهو ما يعرف الآن بهجرة الأيدي العاملة النادرة على أن تشكل أرضية الطاقة الإنسانية .

ومشكلة القاهرة الكبرى من المستحيل حلها .. لا لأن هناك استحالة فى حلها بل لأن هناك منطقية عقلية فى التعايش مع المشكلات بالعاصمة أى أن هناك عملية تقبل لسعانة ، وصلت إلى نوع معين من التقلص الذهنى ، والتعود على المشكلات ، وذلك يعنى بالتالى تأزيم وإطالة لها ، والوصول إلى أنه لم يعد هناك شىء مزعج .. رغم كل المتاعب ، أى كما يقولون : إذا عم البلاء هان .. إن عقلية التعايش مع هموم القاهرة جعلت هناك سكوتا وتقبلاً ذهنياً ، ومهما كان هناك أغوى جهاز إدارى فى العالم ، فلا يستطيع أن يغير عقلية بسهولة ، لأن هذه مشكلة المواطن فى حد ذاته ، وقد تتحول كل الأمور إلى نصوص وتوصيات ، ومواعظ ، وإرشادات .. والواقع ،

والمفروض أن يكون في القاهرة شعور بوجود مشكلة بها لدى القاهريين ،
وأنة قد آن الأوان لكى يقفوا بجانب الدولة ولا ينتظروا منها أن تعطى لهم
الحلول السحرية .. فليعلن القاهريون أن القاهرة يجب أن تعاد صياغتها ،
أما أن يدبج البعض خطبة ترد على خطبة الدولة ، والدولة تقول يجب
عليكم ، ويقولون نعم يجب علينا وعليكم ..

لا .. هذا عبث ، والمفروض أن يقول كل فرد : ماذا أستطيع أن أفعل ؟
إن على عاتقى واجب كالزكاة تماماً .. إعطاء جانب من وقتى للقاهرة حتى
أستطيع أن أعيش فيها ، وفى هذه الحالة لا يمكن إصلاح القاهرة بنظرة
فوقية ، وإنما بنظرة قاعدية . وأنا لا أعتقد فى جدية « تصليح » مدينة
بقرار فوقى ، وإلا سنسضى فى رحلة شاقة عبر مئات المكاتب ، ثم تحقيق
بعض الاصلاحات ، وفى تصورى لكى تواجه القاهرة مشكلاتها ، فإن عليها
أن تجزأ لأكبر قدر ممكن من الوحدات الصغيرة ، أى لا تحول إلى أحياء ،
بل إلى جزئيات من أحياء ، ومعنى ذلك أن تصبح كل جزئية مسؤولة عن
الألف أو الأربعة آلاف الذين يقطنونها ، ويميل إلى هذا الرأى رائد الهندسة
المعمارية فى العالم ، وهو « كوربوزيه » - حتى وفاته من سنوات - الذى
وضع تخطيط مدينتى « مكسيكو » و « برازيليا » ، وهو ينادى بأن نأخذ
المدينة ونصورها فى شكل عمارة .. وتساءل : هل من الأفضل للعمارة أن يأتى
إنسان ويقف أمامها ويقول علينا أن نعيد صياغة العمارة ، أم من الأفضل
أن كل شقة فى العمارة تهتم بما هو أمامها وما بداخلها .. هذا هو بالطبع
المفروض .. وهنا تبدأ قضية العناية بروح المشكلة ..

هذا مع الأخذ فى الاعتبار ما شرحناه آتفا من أن البنية الأساسية تصاغ
على مستوى التبويب الثلاثى « الفوقية ، والوسطية ، والتحتية » ، وإلى جانب
ذلك يأتى مسلسل الإصلاح الجانبى على مستوى الجزئيات ، أى أن الدولة
تنظر إلى القاهرة فتقسمها إلى ثلاث مناطق : القاهرة التى أنتقدت ، وهى فى نطاق
الأحياء التى قد تصل الخدمات : لعامة والمرافق بها إلى ثمانين فى المائة ، ثم
الفئة الوسطى ، وهى تخص الأحياء القابلة لإعادة الصياغة ، ثم الفئة التحتية ،
وهى أحياء القاهرة التى يجب أن تزول نهائياً عن طريق الحى المتنقل ، كما

أشرت .. هذه هي النظرة العامة للقاهرة . ثم يأتي دور الأفراد ، ويبدأ قبل أن نقول «باسم الله» في التبويب الثلاثي . ولتعلق القاهرة تماماً .. لأنه مادام هناك «حنفية» البشر تصب ، فمن المستحيل حل المشكلة ..

لابد أن نعلن أن القاهرة لم تعد قابلة للزيادة ، والمدينة لا يمكن أن ينصلح حالها إلا بقدر كثافة الوعي فيها ، أى أنه من الصعب أن تصلح مدينة عن طريق النصائح والمواظب ، وكتابة المذكرات والتقارير ، ولكن عن طريق إعداد المواطن الذى يصر على أن يصون المدينة ، لذلك فأنا أنادى الآن بأن تدخل القاهرة كمادة أساسية فى المدارس بدءاً بالمرحلة الابتدائية .

* * *

(١٤)

الأسرة

(نظرة في النشأة والتطور ومسئوليتها

امام عوارض التنمية)

● موضوع الأسرة .. ومسئوليتها امام عوارض التنمية الاقتصادية والاجتماعية من الموضوعات التي درست في اطار لقاءات وندوات دولية متعددة من ندوة المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا « السوسيولوجيا المقارنة للأسرة المعاصرة » سنة ١٩٥٥ .. الى مؤتمر الرباط عن « الأسرة ومستقبل الشباب في الحياة » سنة ١٩٦٢ .. الى ندوة بروكسل سنة ١٩٦٥ عن أسرة اليوم .. الى جانب الندوات الهامة التي عقدتها منظمة « الأسرة والعمل الاجتماعي الدولية » سواء في باريس سنة ١٩٦٨ او لاهاي سنة ١٩٧٠ ، او تونس سنة ١٩٧١ او في الرباط سنة ١٩٧٣ .. وقد شارك الدكتور رشدي فكار بدراسات بالفرنسية في هذه الندوات ..

وهذه اطلالة سريعة تستقي بعض الأفكار التي طرحها حول موضوع الأسرة ونشأتها وتطورها ، ومسئوليتها امام عوارض التنمية الاقتصادية والاجتماعية :

● غنى عن التعريف أن موضوع الأسرة ، يعد من الموضوعات التي حظيت باهتمام المتخصصين على اختلاف انتماءاتهم من مشرعين وتربويين ، إلى إقتصاديين ، وديمغرافيين إلى أتروبولوجيين ، وسوسيولوجيين ، حتى شكل ما كتب عن الأسرة ، وما حولها نظريات متشعبة ، واتجاهات عريضة مجرد الاستيعاب لها يعتبر تخصصاً في حد ذاته .

كمثال فقط في إطار الدراسات الأتروبولوجية خصوصاً لدى الانجلوسكسون ، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، تجاوز الإنتاج مئات الدراسات المتخصصة ، والأبحاث المتعمقة ، ونشير للدراسات الأولى في حقل

البحث الاجتماعي الحديث كدراسات « وستيرماك » عن تاريخ الزواج الإنساني
- في ٣ مجلدات - سنة ١٨٩١ ودراسة « ديركايم » عن الأسرة الزوجية
سنة ١٩٢١ ، ودراسة « جورج وف » عن الأسرة والقرابة عند ديركايم سنة
١٩٣١ ، وانطباعات « ليفى ستراوس » عن البنيات المبدئية للقرابة سنة
١٩٤٧ ، ونخص بالذكر كمثال من الدراسات التي تمت منذ الخمسينات :
الدراسة القيمة « لتالكوت بيرسنس » عن « الأسرة والتنشئة » وعمليات
التفاعل الاجتماعي سنة ١٩٥٥ ودراسة « شومباروس لوف » عن الأسرة
والإسكان سنة ١٩٥٩ ودراسة « ميشيل » عن وظائف وبنيات الأسرة سنة
١٩٦٠ ، ودراسة « شيلدن » ، و « كلوك » عن الأسرة وتلوث البيئة
والانحراف سنة ١٩٦٢ ، ودراسة « جوديميه » عن المجتمعات الأسرية سنة
١٩٦٣ ، وكذا البحث الذي نشر في إطار « سوسيولوجية الأسرة » سنة
١٩٦٣ - ١٩٦٤ كخلاصة لدراسات عملية عن عوارض العمران والصناعة
على الأسرة ، ودراسة « ريمى » عن مقاومة الأسرة المنتشرة في وسط صناعى
عمرانى .. سنة ١٩٦٧ .. والقائمة تطول بنا لو توخينا التفصيل والحصص ،
وإنطلاقا من هذه الدراسات يمكننا أن نعطي بعض التحديدات الأساسية
بالنسبة لمذلول الأسرة أولا ، ولعروض التنمية الاقتصادية والاجتماعية على
مستوى المسئولية .

* * *

المبحث الأول

الأسرة . . نظرة في النشأة والتطور

من المسلم به ، أنه من بين البنيات الأسرية المتعددة التي عرفها التاريخ الإنساني في مسيرته الطويلة ، تغلب الآن - إن لم تسد - بنية الأسرة الزوجية في مجتمعاتنا المعاصرة . أما كيف نشأت البنيات الأسرية ، وكيف تطورت في الفترات المختلفة للإنسانية على تعدد مشاربها ، وكيف تطور نظام القرابة والنسب من البداية حتى يومنا هذا .. فقضية أخرى تعتقد أن التطرق لها قد يتجاوز بنا إطار هذا الحديث المحدد ..

ومع هذا .. نشير - حتى لا يؤخذ علينا أننا تعرضنا لقضية الأسرة من خلال عوارض التنمية دون أن نمهد ولو بفكرة موجزة عن تطور الأسرة - إن الدراسات الحالية عن الأسرة ، قد أكدت أنه ليس هناك موقف موحد متفق عليه بين المختصين في هذا الموضوع ، بالنسبة لنشأة الأسرة ، وكيف تطورت عبر العصور .. أبرز هذا الباحث « موجي » في دراسته التحليلية عن « التغيرات في البنيات الأسرية » سنة ١٩٦٢ ، كما نجد ملخصاً مركزاً لأهم الاتجاهات الرئيسية عن نشأة الأسرة وتطورها عند « جود » سنة ١٩٦٤ ، وقد تجاوزت الإثنا عشر اتجاهاً ومدرسة . كل مدرسة واتجاهها يتحفظ أو يفند اتجاه مدرسة أخرى .

كمجرد أمثلة من هذه الاتجاهات : الاتجاه « الديركايمي » - نسبة لديركايم - الذي اعتمد على الملاحظات الأنتوغرافية ، والأنتروبولوجية ، وهو يرى أن المجتمعات في بنيتها الأسرية ، انطلقت أساساً من العشيرة الطوطمية ، لتصل إلى الأسرة الزوجية ، وذلك نتيجة لانتهيار تدريجي لشبوعية العشيرة ، وعليه فالنمط العشيري سابق للنمط الأسري بمدلوله المحدد - وقد تحفظ على هذا الرأي كثير من علماء الاجتماع - بينما يرى

اتجاه آخر . وهو الاتجاه « الكونتى » - نسبة إلى كونت - اعتماداً على الأناجيل وبعض الوثائق القديمة . أن الأسرة هي الخلية الاجتماعية الأساسية . وقد دافع عن هذا لاتجاه أيضاً « ليلاي » ؛ كما تبنته بعد ذلك المدرسة « الأنثروبولوجية » الأمريكية التراثية الثقافية ؛ خصوصاً « لوى » بل غالت المدرسة « الأنثروبولوجية » الأمريكية في تبنيه إلى حد القول أن الأسرة دون نزاع سابقة بالتالى للعشيرة ؛ أما الاتجاه الذى يمكن وصفه بالاقتصادى سواء عند « ماركس » ؛ وما حوله ، أو « أرنست جروس » . فيرى أن النشأة والتطور للأسرة مرتبط بأنماط الإنتاج وأشكاله الاقتصادية ؛ ويشرح على ضوءها من نمط الرعاة إلى نمط الصيادين إلى نمط الزراعة . وما تلاه مركزاً - أى هذا الاتجاه - على طبيعة الاستغلال فى بنية النمط خصوصاً بالنسبة للمرأة .

ومثال آخر : الاتجاه الذى دافع عن نظرية الإباحية والاختلاط الجسدى فى النشأة والتطور فى المجتمعات البدائية ؛ وأسبقية ذلك فى البنية الأسرية ؛ ومثل هذا الاتجاه « جوهان جاكوب تشيفون » و « لويس مورجان » .. إلا أن هذه النظرية عدل عنها الآن واستبعدت ..

وهكذا اتجاهات كثيرة كما ذكرنا قد يطول المقام فى عرضها .. إلا أنه يجدر بنا أن نتساءل . ونحن بصدد مسؤوليات الأسرة أمام عوارض التنمية ؛ خصوصاً فى مجتمعنا العربى الإسلامى ..

وقبل أن نحدد هذه العوارض .. هل الأسرة العربية الإسلامية عرفت فى نشأتها وتطورها خصائص مميزة ؛ أم يجرى عليها فى نشأتها وتطورها قبل الإسلام على الأقل ما يجرى على غيرها فى بقية المجتمعات آنذاك ؟ ..

لقد حاول « وليم روبرتسن سميث » سواء فى دراسته عن : « الصداقة والزواج فى فجر جزيرة العرب سنة ١٨٨٥ » ، أو دراسته عن أديان الساميين سنة ١٨٩٠ أن يبرز خصائص مميزة للبنية الأسرية عند العرب ؛ كما امتداد للساميين ؛ على أن هذه البنية عرفت اختلاطاً جنسياً ممثلاً فى بنية زواج

المشاركة ، وقد كان سائدا في جزيرة العرب قبل الإسلام ، إلى جانب بنيات أخرى كزواج الاستبضاع ، وزواج الرهط ، وزواج الشغار ، وزواج المؤاجرة ، وزواج الإخوة ، وزواج الميراث .. كما أن البنية الأسرية العربية سواء أسرية رهطية ، أم فصيلية ، هي تكيف في إطار العشيرة .. طوطمية أو سكنية أو دموية على مستوى الأفخاذ أو البطون ، أو العماثر .. بمعنى أولوية العشيرة على الأسرة بمفهومها المحدد ، ولاشك أن محاولة سميث رغم اجتهاده استبعد جانب منها بالعدول عن نظرية الإباحة من أساسها علميا ، كما أن العرب كانوا كما هو معروف يفتنون الفحشاء ، ويعتززون بالأنساب ، ويحرصون عليها .

وعلى كل ، مهما كانت طبيعة الاجتهادات في تقنينها لنشأة الأسرة وتطورها ، فمن المسلم به أن هذا التطور قد وصل بالأسرة نتيجة لعوامل متعددة إلى بنية « الأسرة الزوجية » كبنية غالبية أو سائدة حالياً ..

* * *

المبحث الثاني

المسؤولية الأسرية أمام عوارض التنمية

● هذه الأسرة الزوجية التي تعيننا اذن كيف تواجه عوارض التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية على مستوى المسؤولية ؟

.. التنمية الاقتصادية والاجتماعية سواء بدأت من إسعاد الفرد لتنتهي بإسعاد المجتمع تحت شعار ليبرالى ، أو بدأت من إسعاد المجتمع لتنتهي بإسعاد كل فرد تحت شعار إشتراكى تحت شعار موجه ، تركز فى إنطلاقها حالياً على دعائم رئيسية هى : العلم كأساس ، والتقنية كمعرفة ، والصناعة كوسيلة ، وتعتمد فى حركيتها على وجدان معين بطريقة ما ، جماعياً ، وفردياً ، فى الاقناع والتعميم والدمج ، أما غايتها فهى تحقيق مستوى أفضل للحياة مغلفاً فى مزيد من الرفاهية المادية . ولنا أن نتساءل أين إنسانية الإنسان من كل هذا ، وأين الأسرة بالتالى ؟ ..

هذا الإنسان الذى بدوره تتحكم فيه وتسير قدرات إنطلاقه دعائم أساسية ، وهى ثلاث : العواطف ، والغرائز ، والمنافع .. ومسئولية الإنسان كزوج أو زوجة أو أبناء يكونون أسرة — كامنة فى خلق تعادل وتوازن بين الدعائم الثلاث فى داخل كل فرد ، ثم فى داخل الأسرة كشمول وخلق أولوية فى الاختيار حينما يفرض الاختيار بين هذه الدعائم .

جاءت التنمية بمفهومها المعاصر فطرحت أولوية الاختبار لتحقيق التقدم ، وقد كان .. المنافع والمصالح متكاملة مع إشباع الغرائز الاستهلاكية ولكن فى إطار المسؤولية سواء بالنسبة للأسرة أو المجتمع ..

أما العواطف ، فبالنسبة لمجتمع العلم والتقنية والصناعة ، وعصره الآلى ، ليس لها من مكان .. اللهم إلا إذا اندمجت مقنعة تحت شعار المصالح أو الغرائز .. أما بالنسبة للأسرة فقد عز الاختيار — ونسمح لأنفسنا باستعمال هذا

التعبير « عز الاختيار » الذي تبرره اللقاءات الدولية المتتالية ، وهذه الأبحاث والدراسات العلمية العريضة الواسعة حول الأسرة ..

إن إنسان القرن العشرين بعقيرته الناضجة ، وعقليته الواعية يبحث عن حل ، بفضل لا ترضى المنافع والعرائز على حساب عاطفته كأب راع ، أو كام حنون ، أو بنت أو ابن بار . ومن هنا كانت الغيرة ، وكان الحرص على بنية الأسرة الزوجية ، ومن هنا يمكن أن يفهم نداء الإنسان من أعلى منبر في العالم ، حينما أعلنت على لسان هيئة الأمم المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٤٨ أن الأسرة هي العنصر الطبيعي ، وأساس المجتمع والدولة ، الأسرة والزواج أساس المجتمع تحت حماية الدولة ، حقوق الأسرة يصونها القانون ، حماية الأم والطفل والشيخوخة ..

إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، بقدر ما تندفع إلى الأمام . بقدر ما تزيد وتتضاعف مسؤولية الأسرة لتحمل نفسها من الاهتزاز والتصدع والانقسام .. فعوارض التنمية تبدو واضحة في العلاقات بين الزوج والزوجة ، بين البنت أو الابن وأبيه وأمه ، فالأم في مجتمع التنمية بازدواج دورها الآن ، الأسرى والمجتمعي ، كزوجة وكأم ، ثم كعضوة عاملة في المجتمع ، بدأت هي كطليعة للمعاناة ، عليها أن تحتفظ بتعادلها رغم ازدواجية دورها ، بل عليها أن تنجح في كل الأدوار ، ولكل دور خصائصه ومسئولياته ومتابعه ، والابن والبنت بدورهما لحقهما شرار المعاناة ، وبدأنا نعيش جيل الرفاق لا جيل الأبناء والآباء ، الرفيق الصغير أقرب لرفيقه الذي لازمه وعانى معه من فقدان الحنان في دور الحضانة ، وفي الداخليات والمخيمات من هذا الأب وهذه الأم . هؤلاء الغرباء . ومن هنا يسكننا أن نقف على عليّة الكثير من ظاهرات العصر .. كصراع الأجيال والهيبية ، والتمرد والجنوح والمتهمشين طوعية ، وحتى الرفض ، والزوج والأب بدوره بدأ يجنى الثمار ، ثمار ازدواجية دور الزوجة التي باتت أبعد إليه من رفيقته في المعمل ، أو سكرتيرته ، وثمار مجتمع الرفاق حينما يشعر بشبح الاغتراب بين أبنائه وفلذات أكباده ، وانعكست ظاهرة الاغتراب ، أو الاستلاب في جملتها وشمولها على المجتمع ، كل يحاول أن يشعر بوجوده المستلب من خلال شيء يقننيه ويستهلكه ، يسقط من خلاله ليشبع قدرة كبرى كامنة ومقنعة

في أعماقه تريد أن تنفجر . هذا الاستلاب وهذا التسيؤ وهذا الإسقاط ، بقدرات تغيضية ، بحث عن العزاء في مضاعفة الإنتاج ، وبالتالي في مضاعفة الاستهلاك في مجتمع التنمية ، ولكن علينا أن نحذر أن تتم هذه التنمية في إطارها الاستلابي على حساب الإنسان ، وحساب الأسرة . فالتنمية والصانع لها .. الإنسان .. هي من أجل إبعاده في النهاية ، كأسرة ، كأب وأم ، وأبناء ، لا لاستلابه وضياعه .. وهنا يحق لنا أن نطرح من خلال هذه الانطباعات كيف يحتفظ الإنسان النامي المتقدم بتوازنه كأسرة أمام هذه المواجهة الصارمة ؟

لاشك بفضل التوعية بالمسؤولية .. مسؤولية الأسرة كأسرة ، وأمام المجتمع ، ومسؤولية المجتمع بالنسبة للأسرة ، مسؤولية ثنائية ، تربوية ، اقتصادية ، اجتماعية بصفة عامة ، ومسؤولية تشريعية .. الأولى تنصدر في تحملها الأسرة إلى جانب المجتمع ، خصوصاً في الإطار التربوي ، بينما يتصدر المجتمع في تحمل مسؤوليته في الإطار الاقتصادي التشريعي ، ويساهم بدور فعال في تعميم الإطار التربوي للمسؤولية . المسؤولية التربوية عليها أن تنطلق من التوعية بالمسؤولية ذاتها ، ونعني على مستوى إعطاء الأسرى والاجتماعي لا الأخذ .. نخلق وعبي المواطن المعطاء لأسرته كأب وكأم ، وكابن و بنت ، والمعطاء لمجتمعه ، ولا يمكن لتوعية بمسؤولية أن تتم دون التزام بمثل غائية ، لا وقتية ، ولا نفعية ، ومن هنا تأتي أهمية الالتزام بالقيم الروحية والدينية المشتركة كقدره وجدانية جماعية تنطلق منها التجربة بطريقة واعية ومعطاءة لا منكهة ومتذمنة ..

وإننا لنعتز بإسلامنا المتطلع الذي هو أساساً دعم الأسرة ، وأكد استقرارها وحمايتها ودعم الوجدان الجماعي ، وعبأه بطريقة واعية ، بفضل اجتهاد خلاق ، ومستمر مكنه وسيمكنه دائماً من أن يلعب دوراً أصيلاً في تثبيت المسؤولية التربوية وضمانيها في إطار الأسرة ، وذلك بما فيه من مبادئ سمحة تحقق لنا التعادل والتوازن ، بين العواطف والمنافع والغرائز . ولا يمكن لشعور بالمسؤولية التربوية أن يؤتى أكله دون أن ينتشر ويعم ، وهنا ينصدر دور وسائل التوصيل والإعلام من راديو وتلفزة ، وصحف

وسينما ، وحتى اسطوانات وتسجيلات ، وسائل التوصيل المجسدة لما نسميه بثقافة عامة الشعب ، وبها تتميز أيضاً حضارتنا المعاصرة ، بعكس ثقافة النخبة المرتبطة بالتعليم والتهديب المدرسى .. يمكننا بفضل وسائل التوصيل أن نقدم أبطالاً ونجوماً وقيماً ، وأفكاراً ووعياً صحياً ونفسياً وإنسانياً أكثر نقاوة وعطاءً وإيجابية من أبطال عصابات السطو ونماذج الحقد والرذيلة والاستهلاك ..

إن المسؤولية التربوية تطرح علينا في إطار الأسرة والمجتمع كيفية الاستفادة من أوقات الفراغ والترفيه ، وكيفية دعم المواطن بمثل وقيم تجعل احتكاكه بقيم وأفكار الآخرين متفاعلاً بناءً وإيجابياً ، وكيفية امتصاص سلبيات عوارض التنمية ، بما في ذلك سلبيات الاحتكاك الحضارى ، ولا يمكن لمسئولية تربوية في إطار الأسرة والمجتمع أن تصل إلى هدفها إن لم تصاحب مسؤولية تشريعية ، إن كان دور المسؤولية التربوية هو دور المعبيء والمقوى فدور المسؤولية التشريعية دور الحامى والواقى .. دور دفاعى ، المسؤولية التربوية تقف موقف المهاجم لسلبيات عوارض التنمية ، والممتص لها ، بينما المؤسسة التشريعية تلعب دور المعين لإيجابيات التنمية والمدعم لها ، وذلك بفضل سننها لتشريعات وقائية وعلاجية ، تتكيف وتكيف الأسرة مع طبيعة نمو المجتمع وتقدمه ، وتحميها من الاهتزاز والتصدع والانقسام ، لقد سهل لنا الإسلام بمقداراته التشريعية هذه المهمة . فأى تشريع فيه وقاية وحماية للأسرة وتدعيم لكيانها . الإسلام كدين اجتهاد متفتح يزكيه ويؤيده . كما لا يمكن لمسئولية تربوية كانت أم تشريعية أن تتحرك في مجتمع الفاقة والاحتياج ، فاستحالة سد ضروريات الحياة يشل كل مسؤولية تربوية وتشريعية ، وهكذا تنصدر المسؤولية الاقتصادية في إطار إمكانيات المجتمع لكى تعطى للأسرة مستوى للحياة كينفى ومهنى ، إن نور التطع وفلسفة المستوى الأفضل للحياة ، بدأ بفضل وسائل التوصيل ، من خلال ثقافته العامة يدخل إلى غالبية الأسر في المجتمعات .. ولم يعد خافياً على أحد ما صاحب هذا التطع من زحف تلقائى في أى اتجاه كان .. فكان زحف البوادى نحو الحضر ، وكان زحف عامة المواطنين إلى دور التعليم والمعرفة ، وكان زحف التجار والصناع من سوق أبخص إلى سوق أكسب .. تحرك

المجتمع في اتجاه التنمية ككل وفي حركة .. وفي كل زحف تشعر الأسرة بعوارضها وردود فعلها ، ومسئولية المجتمع إقتصادياً تأتي هنا في إمكانية توصيله لهذه التحركات ، وهذا الزحف ، يلعب لصالح الأسرة لا عليها ، وذلك بتوسيع سوق التشغيل وتدعيمها عن طريق تشجيع الاستثمارات والضمان الاجتماعي لضعاف الحال ، وفي إطار الإمكانيات ..

وكخلاصة .. إن كان من المسلم به أنه نتيجة لعوارض التنمية الإقتصادية والإجتماعية قد زادت المسؤولية الأسرية كمّاً ، وذلك بتعدد وظائف الأسرة ، وازدواج أدوار بعض أفرادها ، وتنوع أدوار البعض الآخر ، فالمسئولية الأسرية - والحق يقال - قد ضعفت كيفاً نتيجة أيضاً لسلبات هذه العوارض ..

ولا شك أن مزيداً من الدراسات واللقاءات العلمية يمكن أن تساهم في توضيح هذه السلبات وتحديدتها لتحاشيها ما أمكن ، وتدعيم إيجابيات التنمية على مستوى الأسرة ، مستفيدة في ذلك من التجارب المختلفة ، ومن مواجهة الآراء الناضجة ، واثقة من أصالة الهدف السامي .. مزيداً من الاستقرار ، ومزيداً من الحماية ، ومزيداً من التدعيم عن طريق المسؤولية الأسرية الواعية .. لنحقق السعادة والرفاهية لأسرتنا العربية والإسلامية وحسب ، بل وللأسرة الإنسانية في كل بقاع الأرض ..

* * *

فلسطين الشهيدة .. والاشكالة المعقدة

● مأساة فلسطين .. كيف ينظر اليها الدكتور رشدى فكار ؟
.. فلسطين العزيزة أصبحت مأساة .. اشكالة كبرى ومعضلة فرضت
علينا ..

إشكالة معقدة لأن هناك استحالة لإلقاء فلسطين بعيداً عن الميدان
الإسلامى ، بعد هذا التاريخ العملاق المشترك ، ولأن هناك صعوبة الآن فى
التعامل مع الواقع الذى انتصرت فيه أمور كثيرة قد تكون أبعدت القضية
عن مجراها الطبيعى .

من حاول أن يغتصب فلسطين فى البداية جاء لها بوجدان دينى أسطورى
معبأ . ارتباطات أساسية وهى أن فلسطين ليست مجرد قطعة أرض ، وليست
مجرد منطقة للتوسع ، وإنما فلسطين ترمز إلى وجدان دينى راسخ لدى من
أطلقوا على أنفسهم « المطالبون بالعودة » ما فعل العرب ؟ .. واجهوا الموقف
بأمور قد تبدو فى النظرة السطحية أنها تتمتع بديناميكية تعبوية ، ولكنها
حين الممارسة اتضح أنها لا تتمتع بأى قدر من التعبئة ، وأعنى بذلك
المشاركة فى بعض الشعارات المطروحة فى القرن العشرين ، والتي هى فى
الواقع شعارات اشتعلت فى أرض لا علاقة لها بأرض المواجهات الروحية ،
وأرض الوجدان الدينى الراسخ ، وأعنى بذلك حركة التحرر الشعارى ،
وحركة المد الثورى من خلال الغرف المغلقة والمكيفة فى أغلب الأحيان .

هذه بلا شك أمور قد تبدو جذابة ، فكل إنسان يسعى إلى مزيد من
التحرر ، ومزيد من العدالة ، ومزيد من المساواة ، جميل .. ولكن حين ربطنا

مصائرنا بهذه المواقف ذات الطابع الاستراتيجي والتكتيكي ، طابع الانتماء والالتصاق بالأرض ، والاستراتيجية المنتهجة ، كان من المفروض أن تنبني على أساس أن تصدى لمن جاءك بوجودان ديني بنفس السلاح .

القضية طرحت مغلوطة منذ البداية إذ وقع فيها خطأ مطبعي ، ودفعنا الثمن ، لأن هذه المخاضات التي تغلفت ببحور من الدم ومن الاستنزاف للطاقات وللعقول ، ابتعدت عن أسلوب التعبئة الذي اتجهه الأجداد من قبل في المواجهات التي تمت في العصر الصليبي ، وكانت الدعوة إلى استعادة الأراضي المقدسة تنطلق من الحج ، ومن يراجع ابن جبير يجد الإجابة ، كانت مواسم الحج هي مواسم التعبئة لاستعادة ما اغتصب من ديار الإسلام ، لم توضع لها مؤثرات أو استراتيجيات ، ولا تكتيكات .. كان الناس آنذاك يعتبرون أن نهاية موسم الحج ، المفروض أن تكون بداية حقيقة للجهاد واستعادة الأرض ..

والآن .. الذي حدث أن من جاء إلى فلسطين استطاع عن طريق تعبئة الوجدان الديني أن يحول العديد من معالم الأساطير إلى معالم تاريخية ، في الوقت واجهناه بحقائق تاريخية غلفناها في أساطير من شعارات العصر حتى تحولت أساطيره إلى حقائق تاريخية ، وتحولت حقائقنا التاريخية إلى أساطير .

شيء محزن ، نراه الآن ونجني ثماره ، ونحزن كمعاصرين لهذه الهزلية التي نراها ، وبالتالي لا يمكن حل هذه القضايا بفرامل سحرية ، فهي لا تحل إلا بما تستحق من مواجهة ، ومن وعى ، ومن تعبئة ، خصوصا إذا ارتبطت بحقيقتها لا بما يفعله لها ..

الآن القضية الفلسطينية وللأسف دخلت في إطار الاستراتيجية الكونية ، والتكتيك الكوني والصراع بين القوى العظمى ، لا الالتحام بالأرض والارتباط العضوي بالوجدان الديني ، وبدأت مأساة نعيشها الآن ثم انعكس الإسقاط إلى الإحباط ، وبدأ الشقيق يقتل شقيقه ، والمناضل يقتل المناضل ، وأي إنسان يتمتع بنوع من النزاهة في الرؤية ، لا يملك إلا أن

يحزن ، لما يراه ، ويتألم بعمق ، لأنه يكتشف في النهاية أن هذا كله لا يجدى في شيء ، كل هذه الدماء التي تذهب في غيبة الوعي لحركة التاريخ ، وغيبة الوعي بصراحة الانتماء ، والوجدان الروحي الراسخ ، لا يمكن أن تواجه من استطاع أن يحول أساطيره إلى حقائق تاريخية ، بتحويل حقائقك التاريخية إلى أساطير ! .. عليك أولاً أن تلتزم بحقائقك التاريخية ، الوجدان وجدان الدين المعبأ القادر ، بوعي موضوعي ، وأن تعي بأن مشكلة فلسطين ليست سوقية ، وليست مضاربات تلقى بها على مواعيد التسليح التكتيكتاتي والجيل الكونية ، هي عبارة عن إنسان صاحب حق ، وصاحب إتماء تاريخي ، وصاحب استمرارية تاريخية ، وعلى الطرف الآخر أن يفهم ذلك جيداً قبل كل شيء ، يفهم أن القضية ليست قضية مضاربة في بورصة ، وإنما قضية أرض غذيت بالدماء عبر قرون من التاريخ ، وعبر عصور .. ولا يمكن لهذه الدماء أن تمحى في إطار جيل متأزم إلا أنني دائماً أقول لا يمكن أن تؤخذ أزمة جيل على أنها أزمة مصير ، ولا يمكن أن نأخذ أزمة نخبة على أنها أزمة أمة ، الآن هناك نخبة متأزمة ، وجيل متأزم ، ولكن لن يكون بحال هو أزمة الأمة ، ولن يكون بحال هو أزمة المصير .. لهذا من واجبا أن نعي جيداً أن على الأجيال القادمة أن تربط هذه القضايا الكبرى المصيرية بمسيرة الأمة لا بمسيرة التكتيكتات ، والاستراتيجيات ، وعلى الطرف الآخر - الخصم - أن يعي أن المطالبة بالحق والمطالبة بالبقاء التاريخي لا تقل عن مطالبته بأي حال ، وأنه لا يمكن إلغاء بقاء تاريخي واستمرارية قرون وكفاح دموي في الأرض ، لا يمكن محو كل ذلك ، وعلى الطرف الآخر - العدو - أن يدرك أنه مهما أوتى من ذكاء ومكر ودهاء ، لا يمكنه أن يلغى عقل شعوب ، قد يخدرها ولكن الخطأ سيكتشف في النهاية وستصححه الأجيال القادمة .

□ وهنا يثور سؤال :

● يبدو أن القيادات النضالية الفلسطينية تستنكف رفع شعارات الإسلام خوفاً من أن تنصرف عنها القوى الكبرى التي ليس لها مصلحة في الإسلام ..

ولكن الطرف الآخر منطلقاته كلها دينية اسطورية عنصرية لا تهم القوى

العظمى أيضاً ولكنهم يفلحون في التعامل معها بذلكاء وجرها الى مساندة مخططاتهم فكيف يمكن أن ينطق الفلسطينيون وكل المجاهدين من الاسلام وفي نفس الوقت لا ينفروا منهم هذه الدول العظمى كما فعل العدو ؟

.. المشكلة أننا وللأسف نعيش في وهم ممكن أن نسميه بوهم السوق ، وهو وهم المجاملة أكثر مما يجب والمحاباة على حساب الحق ، إن الدول العظمى لها مصالحها ، وبقدر ما تعطى تأخذ ، وإذا حاولت أن تدخل في حوار موضوعي حذار أن تبدأ بإلغاء ذاتك ، وإنما بتأكيد الذات .. أنت مسلم ، هذه هي ذاتيتك ، وعلى الآخرين احترامها شاءوا أو لم يشأوا ، وبقدر ما تعطى يعطيك الآخرون . وهذه الدول العظمى تستغل افعال أو تهور أو اندفاع العقل العربي وتحاول أن تستغل الموقف بأن تلغيه بقدرته عقل آخر في قمة المكر والدهاء ، والتكيف الجدلى ، وهذا ما نراه الآن ، ونعطى نحن بعض الأضواء المبهرة وتصدر منا بعض الصدمات التي تصورها انتصارات ، بينما هي مسيرة أو منطلق لوحل أشد وأعنف في مرحلة تالية ..

في رأيي .. آن الأوان لأن نعود مرة أخرى إلى صياغة القضية الفلسطينية في العقل المسلم العربي ، وإعادة الصياغة تتطلب استبعاد ومصادرة كل ما افتعل من دخان وأبخرة ، وألفاظ لا علاقة لها بحقيقة القضية ، لأن المسلسل الخطير الذي نعيشه الآن أننا نترحلق دون أن نشعر لنصبح في إطار معمعة المضاربات الكونية ، وأصبحت القضايا المفروضة علينا تشغل حيزاً من وقتنا أكبر مما تشغله قضايانا الحقيقية ، بمعنى .. تمت عملية ترحلق وإلغاء لمطالباتك وطموحاتك أنت حينما ألحقت بطموحات الآخرين ، وحاولوا إقناعك أن تحقيق طموحاتهم هو تحقيق لطموحاتك أنت ، لهذا علينا أن نعطي أيضاً إلى جانب الصراع الدموى المسلح ، أهمية كبرى للصراع الذهني ، فعلى العقول القادرة أن تعمل ، وأن تتحاور في هذا الصراع الحضارى البشع الذى يهتف للذهن المكابر ، وعلى الإنسان العربى المسلم إعادة صياغة ذاته قبل أن يزعم أنه قادر على أن يتفاهم مع الآخرين .

فلا يبلغ الأعداء من جاهل قدر ما يبلغ الجاهل من نفسه

وأن يكون الطرح الإسلامى واضح للطرح الإسلامى ، ومحاور متحدى
وصريح فى مواقفه .. عودة إلى الأصل ، وإقراراً لحقيقة المواجهة أن من جاءك
بنداء لا بد أن تواجهه بنفس النداء .. وأعتقد أن قضية الفلسطينيين فى إطارها
الحقيقى هو صراع من أجل الرسوخ ، وأنا لا أعتقد مطلقاً أن الدول العظمى
تعطى أهمية لاتتصارات الهوامش ، هى تحاول أن تستفيد منك فى إطار تهميش
له ، ويشغلك فى إطار استراتيجية شاملة له ، وفى وقت من الأوقات يمكن
أن يقول لك آن الأوان لأن تنتجى ، أو عليك أن تعيد النظر فى حساباتك ،
لأن حساباتك غير مجدية ويقنعك بمنطقه هذا ويلزمك على تصفية حساباتك
نهائياً لأن استراتيجيتك ما هى إلا نقطة فى بحر من استراتيجيته ، فمن
الأولى أن يكون لنا على الأقل قدرة لتحديد الذات ..

* * *

(١٦)

وفلسطين الشهيدة (الواقع التاريخي .. والمواجهة)

● عندما نطرح قضية فلسطين ، لا نطرحها من منظار الفضول او منظار التعاطف ، وانما من منظار الشعور بالمسئولية وتحديد الادانة والشعور بالمواطنة ، والشعور باننا كلنا يجب ان ندلى بدلثنا في قضية استشهاد هذه البقعة المباركة من ارض الامة الاسلامية ..

.. في رأيي ان مأساة فلسطين مرت بمراحل ، فيها أكثر من عنصر من عناصر الإدانة ، ومن عناصر المسئولية ، وهناك بلا شك فلسطين الضحية .. التي ضحى بها من أجل حل مشكلة سابقة ، مشكلة اليهود مع النازية ، دون تحديد الموقع التاريخي ، وتحديد الإدانة ، ومن الذي يدفع الثمن .

وهناك الآن بعض الأصوات اليهودية الواعية بدأت تعي هذه القضية ، وأن هناك برىء يدفع ثمن جنائية لم يرتكبها نهائيا ، وأن الجاني إما أنه دخل قبره ، أو أصبح مجهولا بعد أن تقنع ! ..

والناحية الثانية في القضية الفلسطينية أن فلسطين خلال فترة طويلة ووجهت بنوع من التشنج والانعزال ، وغاب عن يقود المواجهة أننا في عصر قدرة العقل ، وأننا في عصر التحكم الهائل في التناقضات الدولية ، وأنه ينبغي لهذه القضية المعقدة أن تطرح في إطار من منتهى الصرامة والحذر ، وأن نكون على مستوى المسئولية التاريخية ..

وأنا لا يمكن أن أسمح لنفسي أن أدين أحداً ، وأقول إن فلانا كان خائناً ، وإن فلانا كان مقصراً ، فالتناقضات بالفعل تحاصر القضية من كل جانب ، وللأسف ، الجهود التي بذلت لعلاج جرح أدت إلى جروح ، ولعلاج مأساة خلقت مآسى ..

والقضية الفلسطينية كانت في أشد الحاجة من البداية إلى أن تقود المعركة عقول على مستوى الأحداث التاريخية ، لأن من أمامنا في قمة الخطورة والدهاء والمكر ، وكانت محتاجة إلى عقل يتمشى مع خطورة المسألة ، فهي ليست قضية « فتونة » ، ولكنها قضية رهيبة وقضية مصائر أمم ، وهنا أتذكر دائماً مأساة الأندلس ، وكثيراً ما أتساءل : لو أن الأندلس في فترات الأزمة ، حينما بدأ موكب التراجع ، أمسك بزمامها نفس العقل العربي العملاق الذي أخرج لنا العديد من أبطال تاريخ أمتنا ، وبدأ هذا العقل الفذ يتحرك ليقول : الأندلس في خطر ، دعونا من الحزازات والانفعالات التي لا يمكن أن تنفذ من كارثة ، وهيا بنا إلى التفكير العميق ..

أتساءل : هل كانت الأندلس تقع في هاوية الضياع وتغرب فوق ربوعها شمس الإسلام ؟ ..

مجرد تساؤل .. يعكس حقيقة أننا اليوم إزاء قضية فلسطين في مسيس الحاجة إلى أن نحترس وأن نستوعب المسألة بعمق . خصوصاً في هذه المرحلة من النضال الفلسطيني الذي يتردى في هاوية الانشقاق بين الأخ وأخيه ، وبذلك يستمر المسلسل المأساوي ، ولا أعتقد أن أبناء مجتمع ما على وجه الأرض في حاجة إلى التضامن وإلى التكتل بقدر ما يحتاج الفلسطينيون والعرب معهم متلاحمين تحاشياً لمسلسل الاندحار بل والاتحار .

والإنسان العربي حينما يشعر بالإدانة يتحول إلى جهاز اتفعالي في منتهى العنف والقسوة على نفسه ، وهذه قضية سيكلوجية .. وأبناء فلسطين عليهم في هذه المرحلة المأساوية الدامية أن يتمتعوا بعمق التفكير ، وأن يتجاوزوا هذه الأمور التي إذا قيست بإطار الزمن التاريخي ، لا تثرى ، وينظروا إلى أنهم يتحملون مسؤولية تاريخية كبرى ، هي أن يكونوا أو لا يكونوا ، وفلسطين ليست في حاجة إلى منتصرين من الفلسطينيين على الفلسطينيين ، ولا لمنهزمين من الفلسطينيين أمام فلسطينيين ، بل هي في أشد الحاجة إلى الفلسطينيين الواعين لخطورة الواقع التاريخي ، ولخطورة المواجهة ، والإنسان عندما يعى بالخطورة فإنه يستنفر كل طاقاته بما في ذلك السيطرة

على انفعاله وتشنجه ، ويتحول إلى قدرة ذكية تتعامل لكي تتجاوز حتى المستحيل .. والمعروف حسب نظرية « سبنسر » أن الإنسان لديه طاقات كامنة كبرى ، وهذه الطاقة تبرز في بعض الأحيان دون أن يشعر في المواجهات ، فإن بعض الناس يكونون مرضى ، ولكن حينما يسمعون خبراً خطيراً ، ينتهي المرض لديهم نهائياً ، ولو مؤقتاً ، وقد يتحول المريض الواهن في لحظة الخطر إلى وحش كاسر ، ويمكنه أن يرفع أثقالاً أو يعدو لمسافة كيلو مترات ، بينما لا يستطيع قبل ذلك أن يخطو عشر خطوات ! .. هذه الطاقة الكامنة تتوافر لدى الأمم كما تتوافر لدى الأفراد ، واستنفار الطاقات الكامنة يساوى القدرة على تجاوز التناقضات الظرفية والأمور المفتعلة .

وأعتقد أن على الفلسطينيين أن يواجهوا أنفسهم أولاً قبل أن يواجهوا الآخرين ، لأن قدرة المواجهة مع الآخر تنطلق من قدرة المواجهة مع الذات ، بمعنى أن الفلسطينيين عليهم أن ينظروا إلى قضيتهم ، ومعهم كل هذه الأمة التي تمتاز بوجودهم وبجهادهم ، وتورقها مأساتهم ، وإن الزمن التاريخي ليس هو مجرد توقف في الحاضر ، وإنما هناك مسؤولية كبرى للمستقبل الفلسطيني ، وبجانبه ومن خلفه ، ومن أمامه العربي والمسلم ، الذي عليه أن يعي أن المستقبل أيضاً سوف يسأله ، وأن هناك زمناً تاريخياً مقبلاً علينا أن نعي جيداً ألا نحمله مأساة هذا الزمن ..

لندع الأجيال القادمة تنصرف في إطار زمنها التاريخي الذي نعيشه الآن ، بمعنى أن نخفف ما أمكن من ثقل السلاسل ومن خنق تطلعات الأجيال القادمة ..

دع الأجيال القادمة تفعل شيئاً ، لأن أزمة جيل لا تعنى مطلقاً - كما أشرنا سلفاً - أزمة مصير ، وأزمة فئة ، لا تعنى مطلقاً أزمة أمة ..

فالبعض يحاول دائماً أن يحول أزمة فئة على أنها أزمة أمة ، وأزمة جيل على أنها أزمة مصير . بل المعروف عبر فلسفة التاريخ أنه في داخل الأزمة المتأزمة تولد الأزمة المتطلعة ، لذلك أطالب بإعادة الحسابات وإعادة

الضعيف ، وأرى التشاؤم المطروح حالياً بمعيار ظرفي ، ولا أتصور أن يمتد هذا التشاؤم ليصبغ حياة الأجيال القادمة بالقنوط واليأس والقنوط .. ليذهب المتأزم بأزمته إلى قبره ، ولا يورثها للقادمين . والمشكلات عموماً ، المفروض أن تتحجم في زمن تاريخي وبقدر ما تورث بقدر ما تستوطن وتأخذ حجماً أكبر من حجمها ! .

وفي مجال المقارنة بين الإنسان الفلسطيني والإنسان الإسرائيلي ، فالفارق الحضاري ليس كبيراً .. إن الأمية منعقدة الآن في أ - ب الفلسطينيين ، والإنسان الفلسطيني يتمتع بذكاء حاد ، وكثير جداً من العلماء فلسطين يشغلون مناصب رائعة وكبرى في الجامعات الأمريكية والأوروبية ، وذلك تم إفرازه رغم ٣٠ عاماً من المحنة ، ومن هذه الزاوية فأنا غير متشائم ، ولكن لا بد من أن يكون هناك وعي بحجم المواجهة وإعطاء مكان كبير للعقل والاستيعاب .. نعم ، ما أحوالنا للإنسان العربي المستوعب ، فالملاحظ وللأسف الشديد ، أن الإنسان العربي لا يستفيد كثيراً من تجاربه ، وهما دائماً ما أسائل نفسي ، هل يرجع ذلك إلى أنه يتمتع « بديناميكية » هائلة تجعله ليس بحاجة إلى تجاربه السابقة ، هل له ثقة بلا حدود في ديناميكته الفورية تبعده عن النظر ، إلى استيعاب ماضيه القريب والبعيد ..

إن هذه الديناميكية الفورية تتمثل في جماعة من الناس يجلسون في ودع وفي هدوء ، وتكفي كلمة بسيطة تقال لتجعل منهم أعداء يضربون بعضهم البعض ..

وهذا قد يكون رائعاً في عصر الفروسية ، أما في القرن العشرين .. فذلك مرفوض تماماً ..

وعلاج ذلك أن تتواصى بالصبر كما علمنا القرآن الكريم ، وبعد الصبر علينا أن تتحلى بالإرادة ، « فإذا عزمت فتوكل على الله » (١) ..

(١) آل عمران : ١٥٩

ونظراً للمحتوى العالمى للقضية الفلسطينية فإن العقل المسلم الذى هو مطالب بالتدخل لإنقاذ الأندلس الفلسطينية الجديدة ، عليه أن يواجه الترسيمات الفكرية لسموم الصهاينة والمستشرقين ، وأعداء العرب والإسلام .

وبكل موضوعية أعتقد أن هناك جانباً ترسيبياً كامناً فى العقل الغربى . وهو ترسيب كثيراً ما يخلط الحاضر بالماضى ، ونلاحظ ذلك إزاء ظاهرة يقظة الإسلام .. وعلى سبيل المثال فقد أفردت إحدى المجلات الغربية العالمية أخيراً ١٧ صفحة من صفحات عدد واحد منها بعنوان : « اليقظة العدوانية للإسلام ضد الغرب » .. وهذا فى تصورى يمكن تسميته بأوهام الغرب ..

هناك فعلاً يقظة ، ولكن لماذا يعطى لها هذا التفسير المسموم ، ولا يمكن أن تتفق على أوهام الغرب فى تصنيف الإسلام .. ومن المذهل أن يتصور الغرب العملاق الذى وصل إلى قمة اقوة والقدرة والعلامة أن يتصور أن أية حركة للإسلام فيها إضعاف له ! ..

وهم يفسرون أى حركة للإسلام على أنها عدوان برغم أنه من غير المتصور وفى حوزتهم القنابل الذرية والهيدروجينية ، وهى على أعتاب امتلاك مقاليد حروب النجوم ، أن يمثل المسلمون الذين يمتلكون ما يملكون خطراً عليهم ..

نعم الإسلام ينتشر .. خصوصاً فى القارة الإفريقية .. وأنا أتفق مع هذه المجلة عندما قالت : إن القارة الإفريقية فى نهاية هذا القرن ستكون كلها إسلامية ، وأيضاً أتفق مع أن قضية المد الإسلامى الهادىء التلقائى فى العالم تسرى كالكهرباء ، فهذا من فضل الله تعالى ، أما أن يتخوفون من أن تزيد الكثافة السكانية الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى لتقع إحدى القوتين العظيمين فى قبضة المارد الإسلامى ، فهذا بالطبع مبالغة القصد منها استئصال حتى الجذور .

وأساءل لماذا لا تفسر هذه اليقظة بأنها إنسانية بدلاً من عدوانية ، إن

الإسلام دين المحبة ، ودين الإنسانية ، وربما ظهور الإسلام على المسرح الكونى سوف يخفف من هذا التحايل الاستراتيجى البشع بين الدول العظمى ، والتنكر لأبسط القيم والمبادئ الكبرى ، حتى أضحي الإنسان البسيط فى عالمنا لا يدرى من الذى على حق ومن الذى على باطل ..

إن وجود تيار روحى خالد فى الإنسانية يخفف من حدة المضاربات على قدرة المنطق فى القرن العشرين ، الذى انقلب إلى أن يحكم بأن الأقوى حجة هو الأقوى تسليحاً ، وليعود العقل إلى صوابه ليقرر بأن الأقوى حجة هو صاحب الحق ، لا على الصوت ، وأن الأولى بالاتباع الأقدار على تحقيق العدل لا فرض الظلم ، وبذلك يتم التعادل الكونى بين عصاة وجبايرة الاستراتيجيات القادرة على أن تبرر كل شيء ، بما فى ذلك المستحيل والخطأ بل وتقلب الحقائق رأساً على عقب فتزين الباطل وتمسخ الحق .. وأنا لو كنت من أبناء الدول العظمى المتقدمة فلسوف يسعدنى فعلاً أن أرى شعوباً ضعيفة مغلوبة على أمرها تستعيد إنسانيتها .. فكما يقول الإنسانىون : السعادة أن تشع حول الإنسان ، لا لتقتصر عليه فقط ، كما أن سعادته لا يمكن أن تكون على حساب سعادة الآخرين ..

وإذا فكر الغرب بهذا المنهج ، يمكنهم أن يفخروا ويقولوا إن حضارتنا الكبرى فى القرن العشرين قد وسعت إطار الحضرة الكونى ، وأصبحت الإنسانية السعيدة كما وكيفاً تسود كوكبنا الأرضى .

هذا هو المنطق ، ولكنهم يصرون على تفسير اليقظة الإسلامية بالعدوانية ضد الغرب وهماً وزوراً .. وهناك بالطبع من يشعل الفتيل .. لتظل الصراعات والحروب ، وليستمر التحريض والتقاتل ، لتروج صناعات الدبابات والطائرات والقنابل .



بمعنى أن تكون هناك قناعة موضوعية ، ولنتساءل سوياً ، ماذا تعنى القدس بالنسبة للمسلم .. هل هى مجرد مدينة من المدن الموجودة فى منطقة ما وتعنى ما يحيطون بها من بشر .. أم هى قبلة لكل مسلم ، وبالتالي لا بد أن يكون له نصيب فى تحريرها ؟

وحينما نقول القدس - حاشا لله - أن نطرح فقط قضية المواجهات الدموية والصراعات لأن الإسلام ما دعا المسلم أبداً أن يتحول إلى سفك دماء .. وذلك مع تسليمنا بأن الإسلام دعا المسلم أن يكون قوياً « المسلم القوى خير وأحب إلى الله من المسلم الضعيف ، وفى كل خير » كما قال خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم .

فالؤمن القوى هو الذى يستطيع أن يسترجع حقه ، أما المؤمن المتكاسل المتهاون المتردد فى قناعاته ، أو حتى فى اختياراته الفكرية ، واختياراته الغائية لما يريد ، من الصعب أن يعبأ ، ومن باب أولى أن يستشهد ، بل وليس لديه الرغبة ، وربما يحول كل قضاياها إلى مبتدأ وخبر ، وإلى جمل مفيدة ، ولا يصل فى النهاية إلى أى هدف موضوعى ، أو تحقيق شئ ملموس ! ..

وهنا نقول أيضاً إن العودة إلى القدس لا تطرح مطلقاً فى جو من الانفعال أو التطرف ، وإنما نطرحها على ضوء تحليل هادىء .. ولذا نتساءل : قدس من ؟ ولمن ؟ ..

وفى القرن العشرين .. عصر العقل والمنهج والتفكير الهادىء ، هل يقبل إنسان واع ، يحتكم إلى ذهنية رشيدة ومستنيرة أن يأتى إنسان بعد غفوة قد تتجاوز آلاف السنين ويقول : هذه الأرض لى !

حينما يذهب أى إنسان إلى ملكيته لشئ ما ، عليه أن يقدم براهين ، لا مجرد أن يتخذ من الأساطير وافتعال المسميات مجرد برهنة ، ويخفى كل هذا وراء مخالب الأسد ، بمعنى يعطى براهين تحتكم فى النهاية إلى الدم والقتل والسفك واستضعاف الأمم .. بالطبع فى ضوء هذا المنطق من الصعب للعقل الهادىء المستنير أن يسلم به ، إلا بأن يوصف بالتهور ، والعودة إلى عصر الهمجية ، واحتكام الذئب للذئب ..

وفي رأيي أن من يقول القدس لنا ويفتعل الأساطير ، عليه أن يقدم البراهين ، والحجيات ، ولنتكلم بأسلوب هادىء ، هل هناك برهان ؟ .. إنهم يقولون القدس قدسنا لمجرد القدرة على سفك الدماء والاعتداء على الآخرين ، وتمصص أمور لم يعد لها مكان في القرن العشرين ، عصر الإنسانية ، والكلمة الطيبة ، والعقل الواعى في زعم المتحضر ، والمتشدد بالارتقاء والمدنية .

.. لماذا إذن هوجمت النازية ، إذا كانت شريعة الغاب هى أساس القدرة في القرن العشرين .. لماذا هذا الاستنكار البشرى الجماعى .. للنازية والفانسية .. لأن المعروف أن هذا القرن بفلسفته وعقلايته وعلمائه رفض الاحتكام غير الموضوعى ، وهذا ما تشهد به الآن المؤسسات الدولية ومحاولة حل النزاعات البشرية ، على مستوى الحلول الواعية السليمة ، بمعنى أن العقل نحضر ، ولم يعد يعيش في إطار متحجر يقرر : « أنا قوى إذن فكل شيء لى ولا شيء لك » ! .

لم يعد ذلك مطروحا في القرن العشرين .. على الأقل بصيغة صريحة ومعلنة ! .. ومع هذا نرى أساطير تفتعل ، وإذا ما احتكنا للأساطير ، فعلينا أن نعيد النظر ليس فقط في تاريخ الإنسانية ، بل وفي جغرافيتها أيضاً ، لأن كل إنسان له نوع من الترسيب ، ومر عليه عشرة قرون أو عشرون قرنا يمكنه أن يقول : هذه الأرض ملكى ، فقد مر عليها أجدادى !

وإذا ما ساد هذا المنطق ، سجد على خريطة المعمورة امبراطوريات وهمية تمتد من بحر الصين إلى اسكندافيا دون أن يكون لها أية أرضية إلا أسطورة كنا أو كان ، وهنا نعود إلى قصة الذئب والخروف !

مسلسل غريب ، لا يوافق عليه أحد في عصر العقل ، والمفروض إذا كان ثمة شعب ذكى ومتفهم وقادر على أن يحتكم للمعايير الموضوعية .. من الصعب أن يعود إلى آلاف السنين ويقول : كنا .. وهذا الذى له الحق من آلاف السنين أيضاً ، وحتى البارحة أليس له أيضاً الحق أن يقول : كنا وأصبحنا !

باسم الواقع التاريخي الملموس واستمراريته ، وباسم هذه الدماء التي أريقت في القدس واستعادتها في الحروب الصليبية يجب على الإنسان أن يفكر الآن بعقل منفتح ..

● ولنسال أنفسنا .. هل كل هؤلاء الشهداء الذين ضحوا بدمائهم وارواحهم في الصور الوسيطة لاستعادة القدس ، هل كانوا مفشوشين ، ان المسلمين كانوا يدافعون عن القدس ، والمسيحيين يحاولون انتزاعها ، فهل كان المفروض ان تعطى القدس لطرف ثالث غير المسلمين والمسيحيين ؟ ..

.. وللأسف إن الطرفين اللذين أريقت دماؤهما استبعدا الآن من الساحة نهائياً لصالح طرف ثالث لم يترك أى أثر بدمائه أو بحضوره التاريخي ، ولكنه يظهر على العالم ليقول : فلنحضر في الأرض علنا نجد شيئاً يدل على وجودنا ، وهذه قضية « حفر يحفر » تقود إلى مأساة لا معقولة !

غريب أن يأتي إنسان ليتنكر لما هو صريح وواضح تحت قبة الشمس ، ثم يبحث عن أدلة في الخفاء ..

إذا كانت هناك أدلة فلتكن موجودة ، لهذا أعتقد أنه قد آن الأوان لأن يستمع أيضاً لصاحب الحق كما استمع لظالمه ..

بقيت نقطة أخرى أيضاً بالنسبة للعودة إلى القدس بين الافتعال الأسطوري والواقع التاريخي ، وهي قضية : كيف العودة ؟

العودة إلى القدس في رأيي عودة معاناة ، معنى لا أعتقد في الحلول الأسطورية ، وبما أننا استبعدنا الافتعال الأسطوري .. لا نفتعل أيضاً الحل الأسطوري .. المفروض أن العودة إلى القدس ترتبط بمعطيات موضوعية ..

من يعود إلى القدس .. صاحب الحق في البداية ، أم المعتصب للحق .. ؟ بلا شك صاحب الحق .. حسناً .. المعتصب حول صاحب الحق إلى متهم واستبعده ، وأصبح هو المستولى على الأرض ..

● هل من الأفضل أن نتجاوز معه ، ونحاول ان نقنعه ؟ هذا ما لجا اليه البعض ..

أم من الأفضل أن نواجهه ببرك من الدماء كما فعل هو ؟
هذا ما فعله البعض الآخر ! ..

أم من الأفضل أن نقوم بتعريف الكون بحقيقة أماساة ، وحقينة الظلم حتى يكون هناك تأثير كوني ، وبالتالي تعود الأمور إلى نصابها ؟
أنا في تصوري أن خير احتكام لهذه القضايا هو الاحتكام إلى الواقع ..
لمن كانت القدس حتى منتصف هذا القرن وما بعده من سنوات ؟
ولنتأكد أنه مهما بلغ مدى الافتراء ، والاستيلاء على منزل فسوف يظل دائماً صاحب المنزل هو صاحب الحق ..

لا يمكن لأحد أن ينكر أن العروبة والإسلام كانت ساهرة على القدس كمدينة لكل الأديان ، فهل أخطأت في حق القدس هذه الفئة التي حملت مسؤولية تاريخية ؟ ..

أبدأ .. فلماذا إلغاؤها إذن ؟

إن العروبة المسلمة لم تخطيء أبداً في صياغتها للأراضي المقدسة ، فبأى حق تقوم أنت أيها الغاصب بإلغائها ؟ ..

إنك إذا قررت أنت الإلغاء لمن هو اليوم يعاني من الأزمة ، فهل أنت واثق من أنه قد يعيد الكرة ويلغيك أنت الآخر ؟ !

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » (١) ..

إن ما أخشاه في فترة تاريخية ، وبالطبع بعد أن نرحل من الدنيا ، أن هذه القدس التي مرت عليها قرون تقبل مبدأ التسامح والتعاون والمحبة بين مختلف الأديان الروحانية ، أن تتبنى في المراحل التاريخية القادمة فلسفة الإلغاء والاستقصاء ، ولا يكون بها مكان للتعايش .

ولا تعود مدينة الحب والسلام ..

(١٨)

اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في الكيان الاسرائيلي

● في ٢٣ مارس سنة ١٩٨٥ عقد بجامعة الكويت مؤتمر عن الأبعاد التربوية للصراع العربي الاسرائيلي ، وقد تقدم الدكتور رشدي فكار بدراسة عن اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في الكيان الاسرائيلي ، ولاهمية هذا البحث الذي يلقي الضوء على جذور التنشئة في الكيان الصهيوني ، ارتأى الدكتور رشدي فكار ضمه كما هو لمجموعة أحاديثه التي أجريتها معه وحواسها هذا الكتاب ..

لماذا اتجاهات الفكر المعاصر في الكيان الصهيوني ؟ ..

.. تساؤل قد يبدو في مظهره غير ملفت للنظر ، ولكن في جوهره يعني كيف يبنى الكيان الصهيوني رجل المواجهة في الغد ؟ ..

فالفكر التربوي هو في الواقع المحور الذي يجسد واقع الصراع المستقبلي بين أمتنا ممثلة في أطفال اليوم ، وبين ما يحاول الكيان الصهيوني أن يزرعه في جسد هذه الأمة من طفيليات قادرة على أن تشل حركته وأن تستنزف عطاءه ، وفي النهاية يكون التقبل لهذا الدخيل ..

ومع هذا سوف تتحاشى في طرحنا لهذا الموضوع الهام المغالاة والتجاهل على حد سواء ، فمن المعروف أن تصوير ما يجري في الكيان الصهيوني وتصوره . كثيراً ما يقدم في إطار من التهويل ، والترهيب ، بل والتخويف ، فنرى الصهيوني ، وكأنه إنسان معجز يتمتع بقدرات أسطورية ، ولا يهزم ، وبلا شك إن هذا الجانب الأسطوري ساعد كثيراً خلال ما يزيد على ثلاثين عاماً فيما نشاهده الآن لدى العربي حين نظرته للصهيوني ، هذه النظرة التي أسهمت في تزييفها قدرات ذهنية مأكرة ، سواء لدى الدول المتقدمة المتواطئة مع كتلة الضغط الصهيوني أو المنظمات الصهيونية في حد ذاتها نظراً لما

يتمتعان به من تصدر وريادة على مستوى وسائل التوصيل (Mass Media) مقروءة ومسموعة ومرئية إلى جانب استغلال قصور العربي في تفهمه للخصم واستيعابه لواقعه ، وأنه كثيراً ما يرى هذا الخصم من خلال المنظور الذي يتمناه ..

وهكذا تقديم الصهيوني كعملاق وأسطوري مستبعد من البداية ، وبنفس الصرامة في التحليل نستبعد النظرة المناقضة أن الصهيوني هو استمرار لهذا اليهودي التائه المعقد ، خصوصاً عقدة الإنغلاق (Ghetto) وأنه من الممكن إلغاءه بجمل مفيدة ، وخطب رنانة وشعارات من هنا وهناك مكنته في النهاية من أن يتقوى على حساب جهل خصمه بقوته ، فإن كنا نستبعد العملاق والأسطوري ، ولكن نسلم ببعض المعطيات الموضوعية التي تشكل مكونات صهيوني اليوم ، وتمهد لصهيوني الغد ، ونعني بذلك ما عرفه اليهودي في العصر الحديث والمعاصر من تطور إلى حد ما جذري نتيجة لمشاعر الانغلاق والاستبعاد التي مورست نحوه خلال قرون ، إذ من المسلم به أن شعور الأقلية حين تمكنه من الوعي والتعبئة يصبح قدرة مميزة .. فانطواء اليهودي على ذاته عبر التاريخ مكنته من استيعاب الآخرين واكتشاف مظاهر القوة والضعف لديهم ، فاستطاع أن يستغل العديد من المواقف التاريخية ، ويوظفها لحسابه كمجرد أمثلة الصراع بين الكنيسة والعقلانية في الغرب ، وكيف أن القرن التاسع عشر قدم لنا نماذج لهذا اليهودي المساهم في توجيه الضربات للغربي باسم الغربي وتمزيق وجدانه الروحي وإلقائه في مسلسل التساؤلات ، بل واقنوط واليأس في الوقت الذي يحيى فيه أساطيره ويمجد خرافات المعبد ليحولها إلى حقائق تاريخية ، فهو بقدر ما يلغى تاريخ الآخرين ، ويحول احقائق إلى أساطير يسعى إلى تحويل أساطيره إلى حقائق . كذلك استطاع هذا اليهودي التائه أن يركز على بعض القطاعات النشطة والضامنة لرقى المجتمعات بدلا من أن يوزع طاقاته هنا وهناك ، وفي شتى المجالات .

فالقطاع الاقتصادي هو محترف له عبر التاريخ ، ثم أضاف إليه القطاع العلمي ، وخصوصاً القطاع الإعلاني كموجه للرأي العام ، ومعبىء له ،

واستغلال كل هذه القطاعات من خلال وسيلة التقدم والارتقاء ، ونعني بذلك الصناعة والمعرفة التكنولوجية ، تجاهل هذه الوقائع ، والنظرة إلى اليهودى كما كان في منقلبه وانطوائه هى بدورها مستبعدة ..

النموذج الصهيونى لليهودى نموذج نشط ومتطلع ، ويسعى إلى الهيمنة . لا إلى الانغلاق ، ويستغل كل مظاهر ضعف خصومه لتقوية ذاته .

بين الموقنين : موقف المغالاة فى تضخيمه والمغالاة فى تحقيره تبيننا لهذا البحث ، لا نقول موقف وإنما نقول استيعاب موضوعى ما أمكن على ضوء ما تيسر لنا من توثيق ومعرفة بالفكر التربوى الصهيونى عبر اتجاهاته المعاصرة لاشك أن طبيعة التوثيق تطرح علينا اتقاء ، وهو أن الهدف من هذا البحث لا يكمن فى تقديم إحصائيات ومعلومات عن الحركة التعليمية بصفة عامة بقدر ما يهدف إلى استغلال المعلومات التى تسهم فى تعرفنا أولا وقبل كل شئ على اتجاه الفكر التربوى كإعكاس تطبيقى للتنظير الصهيونى ، ومحاولته لبناء رجل الغد من خلال طفل اليوم إنطلاقا من كل ما تيسر للصهيونية كإمكانات وتجارب لدى المتخصصين من الصهاينة ، وخصوصا ما يمليه واقع المواجهة مع الإنسان العربى صاحب الأرض والمشروعية .

ومع هذا ، من يريد التفصيل فى كل أبعاده وأرقامه الإحصائية ووسائله .. إلخ ، يراجع على سبيل المثال لا الحصر بعض المصادر المتداولة فى هذا الموضوع نذكر منها بالانجليزية ما كتبه :

« Braham Randolf » ، « Bentwich » ، « Israel » ، « Avidor » ،
« Hyman Abraham » ، « Robin Sohn » ، « Ruth Stanner » .

وغيرهم الكثير .

وبالعربية البحوث القيمة التى سهر عليها مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية : كمثال : دراسات « منير بشور ، وخالد مصطفى ، والشيخ صالح وموفق يس ، وصالح عبد الله سرية ، وغسان كنفانى » ..

والقائمة طويلة ، وقد توخينا الحصر والإحاطة ، وهى مجهودات طيبة وجديرة بأن يشار إليها فى هذا المضمار .

هذا إلى جانب ما لمسناه في مواجهاتنا الفكرية والعلمية من خلال اللقاءات الدولية في المؤتمرات والجمعيات المتخصصة ، والأكاديميات حيث يلاحظ من آن لآخر التطلع المضر للصهيوني الذي يسعى لغيابته وطموحاته اللامشروعة ، نقولها دون مغالاة أو تطرف ، وإنما فعلا روح الهيمنة والتسلط لا تقف بالصهيوني عند حد الأرض التي اغتصبها ، ولكنه يحاول أن يجعل كل الكون في خدمة هيمنته ، وتسلطه ، واغتصابه للأخرين .

على ضوء هذه المعطيات . ونظرا للإطار المركز والمحدد لبحثنا سوف نجعله يدور حول محاور ثلاثة :

المحور الأول : وفيه نطرح اتجاهات الفكر التربوي في الكيان الصهيوني من خلال مدى توظيفه واستثماره للفلسفة الصهيونية وتنظيرها حينما واجهت الواقع في الأرض المقتصبة لكي يؤهلنا ل طرح **المحور الثاني :** وهو التحديات التي واجهت هذه الاتجاهات ، ومحاولة التغلب عليها ، واحتوائها لنصل في **المحور الثالث والأخير :** إلى إمكانات هذه الاتجاهات وحدودها توطئة لاستخلاص أرضية لواقع المواجهة معها باعتبارها القضية الجوهرية لتحديد مآلية الصراع مع هذا الجسد الدخيل التوليفي المصطنع ، لأننا نرى من منظور أمبريقي بحث (واقعي) أن واقع صراع الغد بين الأمة العربية مثلا أولا في أقطار المواجهة ثم كل الكيان العربي كشمول ، وبين الكيان الصهيوني مثلا أولا في رأس الرمح « إسرائيل » ، ومن خلفه الكتلة الصهيونية الضاغطة في الكون بشقيه الليبرالي والماركسي على حد سواء بصورة صريحة ، أو مقنعة سوف يدور حول بناء الإنسان ، فهناك من يؤهل نفسه من الآن ليصنع أسسا لبناء إنسان الغد ، وهناك من لا يكتفى باستبعاد إنسان الغد عن رؤياه ، وإنما استبعاد إنسان اليوم مثلا في جماهيره العريضة التي تنتظر التعبئة الموضوعية ، والوعى بما ينتظرها في مستقبل الأيام والسنين .

هذا البحث إذن يمثل إلى حد ما تساؤلات حول مشكلة مصيرية مركزية على جوهر هذه المشكلة ، وهو الفكر التربوي ، وكيف يعمل على بلورة

رجل الغد من خلال طفل اليوم دون أن نستبعد أيضاً شباب اليوم ، ولكن المجهول يظل دائماً هو هذا الطفل انذى يسعى بخطى كلها إصرار نحو غده ، إما لينتصر ويسود فوق أرضه أو - لا قدر الله - ينهزم ويضيع الزمن في التساؤل في الإجابة على السؤال المزمّن وهو : من المدان ؟ ومن المسئول ؟

فإن كان لهذا البحث من هدف فهو إلقاء بعض الأضواء التي تساعد على مزيد من التفهم الوقائى المشرى فى حينه بدلا من العلاج فى زمن تراجع عن زمانه .



اولا - نظرة فى اتجاهات الفكر التربوى المعاصر للكبان الصهيونى من خلال ابعاده الأساسية :

● إن الهدف من التعليم الرسمى هو إرساء الأسس التربوية على أسس الثقافة اليهودية ومنجزات العلم ، وعلى محبة الوطن ، والولاء للدولة وللشعب اليهودى ، وعلى ممارسة الأعمال الزراعية والحرفية ، وعلى التهيؤ لوجود رائد ، والعمل على تشييد مجتمع تسوده مبادئ الحرية والمساواة .

[قانون التعليم الرسمى ، ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٣ ، نقل عن

(Stanner) ص ١٧١ وكما ورد عن التعليم فى إسرائيل ص ٥٨]

إن كان هذا هو الهدف من التعليم الرسمى الذى يحدد الإطار العام لنظام التعليم ، وخصوصاً الابتدائى فى إسرائيل ، فنلاحظ أنه ركز على الثقافة اليهودية ، ومنجزات العلم - الارتباط بالأرض - محبة الوطن - ازدواجية الولاء للدولة والشعب اليهودى - ممارسة الأعمال الزراعية والحرفية أساساً إلى جانب تنمية الروح العسكرية ، وإعطاء الصدارة للغة العبرية كوسيلة للتوحيد ، كما نلاحظ فى شمولية القانون ، وهو يعكس فلسفة الحركة الصهيونية التى ارتكزت أساساً على دعائمين : الدين والاصطفاء

اليهودى روحيا ، والحضارة العربية في قمة تطلعها العقلانى والعلمى ، وإعطاء أولوية للعمل المنتج ، فالصهيونية كانت تتجسد عبر فئة الغريبين من اليهود الممثلين للعقلنة والعلمنة ، فبى أيضاً تسعى لاحتواء اليهودى الشرقى الذى يرتكز فى قناعاته على الدين . فلمجموعة العربية العقل والريادة ، والفئات الشرقية الجسد والعتاء العضلى على مستوى استغلال الأرض والمواجهات العسكرية ، والأعمال اليدوية ، وحتى نعطى صورة تاملة نضيف إلى هذا التسلسل الطبقي ففتين حكم عليهما بالمعانة من هذا المعتصب المتهور ، ونعنى بذلك فئة الأبناء الشرعيين للأرض ممن التصقوا بها منذ الاغتصاب ، وأضيف إليهم أبناء الأراضى المحتلة بعد عام ١٩٦٧ .

الكيان الصهيونى فى اتجاهاته التربوية وضع فى حسابه ومن البداية أن يستغل المتناقضات الموضوعية لتلعب لصالح بقائه ، فإن كان النازح من الغرب هىء له من البداية موقع القيادة ، فالنازح من البلاد العربية - خصوصا - هىء للانسياق والتبعية ، وأعطيت كمنادج له حتى لا يفترق توازنه النفسى أبناء فلسطين بتهميشهم حتى يكون فى ذلك تفرغاً نفسياً لمعاناته ، ويتقبل ليس فقط انطلاقاً من التغميض الدينى هذا الموقف الذى فرض عليه ، وإنما يتعامل مع واقعه الجديد واجداً السلوان فى معاناته ممن جاءوا بعده فى التدرج الطبقي بعده ، ونعنى بذلك الأبناء اشريعين للأرض أى الفلسطينيين .

استغلت المشاعر الدينية وعقدة القهر والانطواء لدى اليهودى التائه ليتقبل هذا الواقع ويقبل سيادة اليهودى الغربى وقيادته له بل وحماسه لكى يضحى فى سبيل مخططاته التوسعية ، بل لوحظ أن « يهودى الشرق » نعنى المشاركة ومن عاشوا فى البلاد العربية وما حولها ، وليس الشرق الكتلة الشرقية ، لأن حضارة الغرب بشعبها الليبرالى والماركسى تدعم تفوق النازح من الغرب وتسلطه ..

اتجاهات الفكر التربوى المعاصرة فى الكيان الصهيونى حاولت أن ترشد وتعمق هذه المعطيات لما فيه مصلحة الاندماج والتوحيد . اندماج المتنوع ، وتوحيد المتعدد وانصهاره . فضاربت على كل الموائد باعتبار أن

الكيان الصهيوني يستغل كل ما له من فاعلية وديناميكية بغض النظر عن مدى تمثيه مع المعطيات الموضوعية لاستمرار وحدة بشرية ما .

فمثلا كان المفروض أن الاتجاه الدينى يحد من تطرفه ، والاتجاه العلمانى العقلانى العلمى يخفف من تطلعاته ليلتقى فى أرضية تفهيمية تجعل اليهودى يتساءل عن حقيقته بدلا من هذا الاندفاع ، وهذا التساط ، وهذا الانجذاب الشبقي بالهيمنة وإذلال كل ما يحيط به .

الاتجاهات الفكرية التربوية شجعت بطريقة ضمنية التطرف الدينى بتدعيم مؤسساته ، وإعطائه الصلاحية والاعتراف السياسى ، بل والسعى وراء تعاطفه وأصواته وفى نفس الوقت كان تشجيع الطرف الآخر فى تعميق العقلنة والمعرفة التكنولوجية والاحتكام للأسس العلمية ، وهكذا نلاحظ أن اتجاهات الفكر التربوى الصهيونى لم تحاول البحث عن التقاء موضوعى لعناصرها المختلفة لأن الالتقاء الموضوعى ستكتشف منه عوراتها ، وإنما حرص على أن يحقق انصاراً إفعالياً . مستغلا للعواطف الدينية المقهورة فى داخل وجدان اليهودى المنطوى وذلك ليحتفظ به دائماً فى إطار معبأ تلقائياً ، ويلقى به فى أى مواجهة ، وهو مخدر بالأساطير والنعرات الاصطنائية ، بينما يعطى للتيار الآخر العقلانى كل الإمكانيات التى تؤهله من اختزال أزمنة التقدم والتطلع التكنولوجى ، وذلك فى ساحة القهر والحرب وسفك الدماء ..

فإن كان يهود المشرق أو يهود الشعوب العربية احتفظوا بهم ليكونوا وقوداً لأطماع الكيان الصهيونى ، فقد استغلت العقلنة الغربية ممثلة فى الفئات النازحة من الغرب لتحقيق أكبر قدر ممكن من الحرائق فى المنطقة بفضل قدراتها العلمية والتكنولوجية عبر ما أطلقوا عليه الحروب الخاطفة .

لقد ارتكزت اتجاهات الفكر التربوى فى تبريراتها على تعميق فلسفة الاضطهاد والقومية اليهودية ومقوماتها ، وربطها بالتعصب الدينى والعدوانية ، كما حاولت أن تنتفع من الغرب البروتستانتى بما يمكن أن

يستغل إيجابيا كمفهوم ديني العمل وقداسة العمل ، فكما هو معروف :
الإدخار والعمل من الأسس التي ارتكز الإصلاح الكلفاني البروتستانتى
التجوى . أما التدبير والاكتناز فشىء نعايش معه اليهودى واستأنسه ، وبقي
التطلع والتركيز على العمل .

ويمكننا فى نهاية هذا المبحث الخاص باتجاهات الفكر التربوى المعاصر
للكيان الصهيونى من خلال أبعاده الأساسية أن نجملها فيما يلى :

التطلع إلى الاندماج باسم الانصهار فى المجال التعليمى ، وذلك من
خلال مؤسسات تسهم عمليا وتطبيقياً فى ممارسة هذا الاندماج « تجربة
الكيوتس » استغلال اللغة العبرية والتركيز عليها وإعطائها الأولوية لتوحيد
هذه الفئات المشتتة والاتجاه بها نحو الإنسان المتجانس .

استغلال التطرف الدينى بدلا من احتوائه وترشيده فى محاولة للإبقاء
دائماً على هذه التعبئة الانفعالية لليهودى التائه ، وإقناعه أخيراً بالاستقرار
والعودة إلى الذات ..

تعميق تهيمش ابن الأرض الشرعى حتى يكون عظة ومثالا يخفف من
معاناة اليهودى الشرقى الذى نفخ فيه بلأمانى ، وافتعل له المستقبل المشرق
لكى يتترك موطنه الأصلى ويهاجر إلى الأراضى المغتصبة ،
ومحاولة إضعاف قناعات ابن الأرض الشرعية بواقع اليهودى عبر التاريخ ،
ولطمس هذه الصورة لديه بصورة الصهيونى الذى يسود ويقهر وينتصر
فى كل المواقع ، وفى كل الساحات .

محاولة إذن ليس فقط لتزييف الواقع ، وإنما تتجاوزها إلى تزييف
التاريخ ، وكذلك لم تغفل الاتجاهات التربوية الصهيونية جانب الارتباط
بالأرض ، فأعطت أولوية للزراعة ، وماله علاقة بها ، وهذا ما تؤكد المؤسسات
المختلفة فى هذا الميدان الممارسة التطبيقية .

وأخيراً تسعى اتجاهات الفكر التربوى المعاصرة للحركة الصهيونية

لتوظيف النخبة الغربية من اليهود المهاجرين إلى الأرض المغتصبة ، وتسخير عقولهم لمزيد من الانتقاء ، والارتقاء لا في ميادين العمران والإنسانية ، وإنما في ميادين التدمير والقهر ، وذلك ما تشهد به المؤسسات المطورة في بحوث الفيزياء النووية والتسليح .

فاتجاهات الفكر التربوي المعاصر للحركة الصهيونية لا تركز في مضامينها الأساسية على تأصيل واستمرارية بقدر ما تركز على مبدأ المضاربة والاستغلال لكل ما يشجع على بقاء هذا الجسد الغريب من خلال تركيبة توليفية لا ينقصها المكر ، ولا يعوزها الدهاء والانتهازية ..

ولكن هل استطاعت هذه الاتجاهات الفكرية الماكرة والمقنعة ببرمجة مرحلية دقيقة أن تتجاوز التحديات التي واجهتها على الممارسة والتطبيق ؟ .

* * *

ثانياً - التحديات المواجهة للاتجاهات التربوية :

من البداية لا بد وأن نضع في حسابنا قصور المعلومات الدقيقة والإحصاءات الصريحة غير الموجهة حين طرحنا للمواجهة على مستوى الواقع والتطبيق ، فمن المعروف أن إسرائيل تخفي كيان صهيوني أكثر مما تظهر ، وتوجه ما لديها من معلومات لتعطي للآخر الصورة التي تريدها هي أن يأخذها عنها لا الصورة الموضوعية ، وكما هي . ومن ثم علينا أن نتعامل مع ما لدينا من معلومات وإحصاءات ، وتصوير للممارسة التربوية ، دون أن نغفل أن الكيان الصهيوني لم يعرف بكل ما لديه نتيجة للشرطية المفتعلة التي يفرضها على الآخر ، ويتوقع في داخلها وينتفخ .

ومع هذا فمن المعروف أن الميدان التربوي في الكيان الصهيوني عرف التعدد في الجامعات وتكوين الأطر كما عرف التخصص والتنوع وكمجرد أمثلة - الجامعة العبرية ، جامعة تل أبيب ، جامعة حيفا ، وجامعة بار إيلات .. الخ ، إلى جانب المعاهد النوعية المتخصصة ، وقد ركز في تطبيقه

لاتجاهاته التطبيقية على محاور محددة .. محور يتطلع إلى الغد ، ومحور يؤصل الماضي ، ومحور التطلع إلى الغد يعطى أولوية للرياضيات والفيزياء النظرية والتجريبية والبيولوجية ، وبقية العلوم الطبيعية بصفة عامة مركّزاً على التخصصات ذات الحيوية ، إما في استغلال الأرض أو الدفاع عن الكليات مع إعطاء أهمية في المحور الثاني للاهوت اليهودي والتلمود ، وتاريخ اليهودية ، وتصدر أيضاً الدراسات الاجتماعية باعتبار أن الجسد الصهيوني من الصعب قبول تناسقه وإنسجامه الإجتماعي ، فهو دائماً في حاجة للملاحظة ومراقب .

كذلك يلاحظ الى جانب المحورين : محور التطلع إلى الأمام ، وحماية الأرضية والجذور ، هناك اللغة وأنويتها في خلق أرضية للتجانس ثم الانسجام ، والانصهار ، بفضل الالتقاء في أرضية المحور الثاني ، وهو تجذير الماضي ، كذلك لم يفغل الكيان الصهيوني في مواجهته للتحديات أن يركز على مبدأ نشط . كثيراً ما يفغل وهو خير احتواء لظاهرة هي إعطاؤها القدر الكافي من الإشباع والوصول بها تلقائياً بعد الإشباع إلى التعادل والتجانس ، فبدلاً من أن يكبح جماح التطرف والمغالاة في الالتزام بأسطورة الماضي ، عمّقها وأسهم في إشباعها .. على عكس ما تفعل نحن .. وأيضاً أعطى للتطلع كل إمكانات اختزال الأزمنة واجتياز الحواجز بالنسبة لعلوم المستقبل ، وعرف كيف يستغل الحزام الخارجي للكيان الصهيوني للتحصين والوقاية دون أن يطرح منقولة : من ليس معي ليس بالضرورة على .. وهكذا تدخل مع أقدر الأوساط العلمية في حضارة الغرب وتركها ضمناً تتداخل معه ، وهو يعلم أنه لن يقدم لها شيئاً يعادل ما تقدمه له ، واستطاع ، وفي إطار تجاوز التحديات أن يستغل جانب الانغلاق الذي جسده الجيتو : (Getto) . فكان بخيلاً بحقائقه ، وفضولياً إلى أبعد الحدود للتعرف على حقائق الآخرين ، على عكس تصورنا نحن ..

هذا بالإضافة إلى أن الاتجاهات التربوية في تطبيقها وممارستها حاولت أيضاً أن تتجاوز التحدي الذي فرضه التاريخ ببرمجة دقيقة تتكيف مع العصر

كى تجعل من هذا الصهيونى المقهور فى تاريخه صهيونياً قاهراً ، فركز على إبراز نظرية الاصطفاء ، وعظمة اليهودية كرمز لشعب مختار حتى يذيب شخصية اليهودى التائه ، ويجعل منه يهودى الاغتصاب المستمر فى أجساد الآخرين ، والمغتصب لأراضيهم ، وحتى يعطى هذه الخصائص التى تبرز وتشر رائحة العنصرية المقيته تزيماً بشعارات متعددة ، وألبس جسده عباءات الآخرين ، فكان وجود الصهيونية فى الحركات التقدمية والاشتراكيات الدولية والتغنى بالحرية ، والديمقراطية واستغلال وسائل الاتصال التى يتحلى بها حزامه الخارجى على مستوى الغرب لنشر ما يصنعه ويفتعله على أنه هو الواقع الملموس ، لا ليقنع الآخرين فقط وإنما ليقنع ما تبقى من أشلاء اليهودى التائه ليثبتته فى موقع حمله إليه . وهنا تتساءل هل يمكن لهذه المحاور ، وما حولها أن تقدم لنا حيثيات موضوعية تبرر نجاح هذه الاتجاهات فيما واجهت من تحديات وتجاوزها لها ؟ ..

موضوعياً ، للإجابة على هذا التساؤل لابد من الإحصاء الدقيق والمعلومات الرصينة التى تعطى لنا مؤشرات نزيهة عما استطاعت الاتجاهات التربوية أن تنجزه فى أرضية التجانس والانسجام والانصهار بين هذا الشتات المتنوع ، وإلى أى حد استطاعت اللغة العبرية أن تلعب دوراً فى تحقيق هذا الإنجاز ، وهل استطاعت المؤسسات التعليمية الابتدائية والثانوية والجامعية أن تسهم فى الوصول إلى الأهداف التى تسعى الاتجاهات التربوية لتحقيقها ؟

الاتجاهات التربوية فى الكيان الصهيونى حاولت أن تتجاوز ما أشرنا إليه من تحديات ، واستطاعت نسبياً وعبر الفترة التاريخية الماضية من اغتصابها للأرض أن تخفف نسبياً على الأقل من حدة وشراسة هذه التحديات التى تتجسد فى اليهودى التائه المنهزم المقربب المشتت الجاهل للآخر من بنى فئته غير قادر على الحديث معه ، المنغلق فى حيه إلى ما نلاحظه عن هذا الصهيونى الذى فرض اللغة العبرية دون أن يضع نصف قرن فى لقاءات ومؤتمرات ليتساءل عن مدى صلاحيتها لتكون لغة علم ، أو عدم صلاحيتها ، وينشئ الخطب ، ويصنع الإشكالات ، ويفتعل المشكلات ، وإنما فرضها ولزم بها ، فهى أولاً وقبل كل شئ انتماء ، وليست مجرد وسيلة فقط .

هذا الصهيوني حاول أن يفنل عظمة ليست له ، باحثا عنها في أنربة
اساطير التاريخ ، لا حقائق التاريخ في الوقت الذي يملى على ابن الأرض
ومؤسى العظمة التاريخية الذلة والمسكنة ، ويعمق من تجهيله ليس فقط
بتاريخه ، وإنما بقدرات ذاته ، بل ويفرض على ابن الأرض أن يستمع
إلى تغنيه بعظمة اليهودية ، وأن يتقبلها صاغراً « تعليم الفلسطينيين في الكيان
الصهيوني » وهذا الصهيوني أيضاً لم يجد أى غضاضة في أن يوفق بين
احتفاظه برموزه الأسطورية بعد أن يتصنع منها حقائق تاريخية ، وينطلق
في ميادين التقدم التكنولوجى واعلمى والصناعى ، ويصدر الخبرة والإنتاج
المتطور للغير ، في الوقت الذى يطلب من الآخر أن يحول حقائقه التاريخية
إلى أساطير ، ويمنع عنه أى تطلع ..

فلاشك في أن الجانب التربوى هذا لا يمكن أن يخفى ما في داخله من
تناقضات قد تخفف هذه التعبئة من إبرازها ولكن لا تذيبها بأى حال ، ولهذا
كان على الاتجاهات التربوية المعصرة للكيان الصهيونى أن تضارب على
نموذج تدعى يمكنه أن يزكى ما نعى إليه من تجاوزات للتحديات ، ودون
أن يحسب هذا النموذج لصالح اتجاه ، أو اختيار أيديولوجى بعينه ليلاحظ
أن كل الاتجاهات والأيدولوجيات تفقت على أن تسهم في هذا النموذج
الضمانى أو التأمينى ، ونعنى به « نموذج الكيبوتس » كتطبيق للاتجاهات
التربوية في الكيان الصهيونى .

النسق التربوى - الكيبوتس - باختصار وكما هو معروف يعنى نظاماً
تعليمياً تعاونياً ، وبهذا يسمى أيضاً ، وهو غير منفصل عن نظام التعليم
الإسرائيلى العام ، غير أنه يمثل صورة متميزة عن إطاره .

إن الكيبوتسات في فلسطين المحتلة تأسست كما هو معروف أيضاً على
يد بعض مجموعات من الصهاينة عرفوا بالرواد ، وكانوا متعاطفين مع
الماركسية ، كما أنهم اتخذوا كشعار أن العمل البدنى ، والعودة إلى الأرض
هما قاعدة بناء الوطن ، والنظام التعليمى في هذه المؤسسات الكيبوتسية
يرتكز على الأسس العلمية أكثر مما يترجم التعليم التقليدى في طابعه

السكونى ، كما أنه إلزامى فى كل مراحل الابتدائية والثانوية ، ويلاحظ أن الوليد منذ بداية دخوله إلى الحياة لا يعرف كاتناء إلا الكيبوتس . بعد أسابيع معدودة تتخلى الأم عن دورها الأمومى ليصبح الكيبوتس هو الأم ، والأسرة لا تأخذ المفهوم الضيق ، وإنما ينتمى إلى أسرة الكيبوتس ، وهكذا الأم تتفرغ لعملها كعضوة فى الكيبوتس بنفس الحقوق التى يتمتع بها الرجل ، ونفس الواجبات ، مما يؤهل الرجل والمرأة إلى نوع من التجانس تحت شعار المساواة توطئة للانصهار بالنسبة لجيل الأطفال ، ومن ثم نرى أن عواطف الأمومة والأبوة ، وحتى عواطف الطفل فرغت فى جملتها فى بوتقة عاطفة موحدة هى الكيبوتس ، ومما يسهم فى هذا التوحيد والتجانس وحدة اللغة ، ووحدة النمط اليومى ، ووحدة التعامل القائم على نسق متعادل لا يخلق نفوراً وأشدوداً بالنسبة للجماعة ، ولم تقف حواجز التجانس عند هذا الحد ، عوامل تدعيم الانسجام عند موقع وحدة الاتناء تجاوزتها إلى وحدة استعمال الزمن ، وأوقات الفراغ والتسلية والعمل والأكل والنوم ، كذلك محاولة تجاوز الكبت والقهر لدى العناصر غير القادرة على المبادرة والتطلع ، وذلك بإعطائها أكبر قدر ممكن من العناية والرعاية دون اللجوء إلى الرسوب أو السقوط ، وفرض مؤسسة الكيبوتس على أن يمر الطفل فى مراحل نموه النفسى من الروضة إلى الحضانة فى إطار متناسق مجاله الزمانى والمكانى لصالح المؤسسة ولحسابها ..

فالطفل علاقته الأسرية لا تتجاوز إطار الزيارات المحدودة فى نهاية اليوم ، بينما يتولى الكيبوتس توجيهه والإشراف عليه طيلة اليوم بأكمله ، كما أن الدراسة تنقسم إلى قسمين - نظرى وتطبيقى - وعادة تخصص فترات الصباح للجانب النظرى ويلاحظ بالنسبة للمرحلة الثانوية وهى تستمر ٦ سنوات ، وتبدأ من سن الثانية عشرة تتجسد فى شكل مجموعات محددة ومحدودة يتولاها موجه يشرف على تحقيق تطلعاتها ، وحل مشكلاتها ، وتعطى أهمية للدراسات الإنسانية والاجتماعية إلى جانب العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وتصدر اللغة العبرية إلى جانب الإنجليزية والعربية ..

أين مدارسنا الثانوية من اللغة العبرية للتعرف على من يواجهنا فى

الصراع الحضارى المصيرى .. من يسود ؟ .. المتطفل الدخيل أم ابن الدار ؟ .. وما الواجبات العسكرية إلا حلقات تمهيدية ! ..

وتأخذ الكيبوتسات الدينية على عاتقها مهمة السهر على حفظ التراث التوراتى ، والتلمودى ، وتجذيره فى المشاعر ، باعتباره حلقة أساسية من حلقات الوجود المفتعل لهذا الكيان الغريب فى أرضنا ، ولا تقف نشاطات الكيبوتس وبناءه لمواجهة الغد عند حد التعليم الابتدائى والثانوى ، بل يسهم فى إرسال أعضائه إلى دور التعليم العالى ليتخصصوا فى أعلى الدرجات العلمية فى الجامعات والمعاهد التقنية ، وجدير بالإشارة إلى أن أعضاء الكيبوتس ينخرطون بالزراعة والجيش ، وهى رواسى المواجهة : الأرض ، والدفاع عنها ، وهكذا ومن خلال هذه الخطوط الرئيسية ، وباختصار لتجربة الكيبوتس كرأس الرمح بالنسبة للكيان الصهيونى والاتجاهات التربوية يمكننا أن نصل إلى تصوير التحديات التى واجهها الكيان الصهيونى ، وكيف ان التعليم بمفهومه العام أو التعليم الكيبوتسى وظف لتجاوز التحيات ، فإلى أى حد هذ التوظيف حقق ما اتخذه كهدف ، أو بعبارة أدق هل استطاعت التجربة التربوية فى إسرائيل مرتكزة على ما أشرنا إليه من قبل ان تصل إلى الناية المرجوة ، والتى تفرضها طبيعة المواجهة معنا ، ونعنى بذلك بناء صهيونى متجانس ومؤهل للإندماج والانصهار والثبات فوق الارض التى اغتصبها والدفاع عنها ، مستغلا فى ذلك من ناحية شاعر التعبئة الدينية بالنسبة لفئات اليهود النازحين من المجتمعات العربية والنامية لتسهيل واختزال فترة الإندماج والانصهار ، ومستغلة من ناحية أخرى العقلنة ولقدرات العلمية الانتقالية لتوظيف من خلال فئة اليهود النازحين من دول العرب ، وشرق أوروبا .. لا عن طريق تخلى كل فئة عن جانب من قناعاتها ، وإنما تعميق القناعات لدى الفئتين .. تعميق المشاعر الدينية والتعبئة الكامنة لتحويل الأساطير التى غطاها تراب التاريخ إلى حقائق مجسدة يعترف بها العقل المتطور والتكنولوجيا فى أبهى مراحلها ، ولا يرى فى ذلك تناقضاً أو خروجاً عن نسق التفكير المتعارف عليه . وهنا نصل ببحثنا المركز إلى المحور الثالث الذى فى الواقع سيكون

بمثابة تقنين لتجربة الاتجاهات التربوية المعاصرة في الكيان الصهيونى على ضوء ما مارسته وطبقته ، وهل يمكن لهذا التقنين أن يسهم فى التعرف على مايدور فى بطون الكيان الصهيونى ، وخلفياته : ماله ، وما عليه على ضوء الحدود والإمكانيات .



ثالثاً - اتجاهات الفكر التربوى المعاصر فى الكيان الصهيونى على ضوء ما أنجزت .. ماله وما عليها :

.. دون أن نطيل فى استنتاجنا واستخلاصنا يمكننا على ضوء ما قدمناه كمعالم رئيسية لهذه الاتجاهات أن نشير أولاً إلى ما يمكن أن يحسب لهذه الاتجاهات لنتنقل إلى ما يحسب عليها ..

١ - يحسب لها أنها حاولت أن تجعل من هذا اليهودى التائه المنغلق الذى يعانى من عقد متعددة فى طبيعتها التشتت والقهر والاستكانة والذلة ، بل والغضب ، كما قدم فى تراث الإنسانية يهودياً متطلعا ومغتصبا ، ومستغلا لأخطاء الآخر ليحول شتاته إلى تجانس وانسجام ، ويجعل من أساطيره ، وخرافاته حقائق تاريخية ملزمة يعترف بها ، فى الوقت الذى نحول نحن حقائقنا التاريخية إلى أساطير .. « مثال الموقف التربوى والعقلانى من الإسلام » .

٢ - يحسب له أيضاً أنه طرح التناقضات فى إطار نشط مزكيا لها لتلعب لصالحه فتعايشت الأساطير لتعبىء الوجدان الدينى وتعمق وتأخذ طابع الالتزام مع العقلنة والتقدم العلمى والمعرفة التكنولوجية دون أن تتحول إلى إشكالة تفرغ المشكلات وتملأ ساحة الفكر بالشعارات بين القديم والحديث وبالتالي تضع حقيقة المشكلة بعد التلهى بمشاكل حلول المشاكل ، وهكذا عمق الكيان الصهيونى تربويًا الشعور الدينى وتركه يتجذر مستغلا ماله من فاعلية تلقائية وقدرة نشطة بالنسبة للجماهير كما عمق معطيات التقدم

العلمى والمعرفة التكنولوجية ، وسمح لهما أن يتعايشا فى كل اتجاهاته التربوية دون إلغاء أو مصادرة .

٣ - بحسب له أيضاً إعطاء الأولوية لمن يستحقها على مستوى البشر والإمكانات ، فكانت الأولوية للدنل وبنائه للغد « الكيبوتس » كما كانت الأولوية للأرض وحرثها وزراعتها والارتباط بها والدفاع عنها ، بل أعطت لذلك الصدارة « التجنيد قبل التعليم اعالى لا بعده » واستغلت المؤسسات المتخصصة والمتنوعة ، بل والمعرفة التكنولوجية لاستغلال هذه الأولويات ليبقى هذا الجسد المفتعل فوق أرض ليست له .

٤ - بحسب لهذه الاتجاهات فرض اللغة كوسيلة للتجانس والانصهار فرضاً دون أن تحول بدورها إلى إشكالة كبرى تتوالد منها مشكلات تملأ ساحة الفكر ، وهل اللغة العبرية صالحة أو غير صالحة للعصر ، ويتم الإنزلاق إلى التغنى بالوسيلة على حسب الهدف ، ولكن ما بحسب لهذه الاتجاهات على ضوء إمكاناتها وحدودها لا يمكن أن يحجب الرؤية عن ما بحسب عليها ويعيقها إذ من الخط' الاعتقاد أن التجربة التربوية فى الكيان الإسرائيلى حققت ما ترجوه من نجاح ، لذا يمكننا أن نستخلص عوائق التجربة فيما يلى بهدف استغلال ذلك فى طبيعة المواجهة مع هذا الكيان المفتعل :

١ - لا يمكن بحال أن تؤخذ هذه الأمور التى أحصيناها فيما بحسب لها على أنها نهائية ، بل فى الواقع ما ساعد إبرازها أخطاء المواجهة والإسهام فى إعطائها الجو المناسب لتتنفس ، وهنا نساءل - وبموضوعية - الأيمكن أن يدخل جانب الإدانة العبرية فى السباح لهذه التجارب أن تنمو وتستمر مستغلة لما تم فى الفترة الماضية من مواجهة معنا نمت دون تخطيط ووعى ، بل كثيراً ما كان يغلب عليها طابع الارتجال وعدم الإحاطة بطبيعة التناقضات الموضوعية التى أملت واقعاً لا علاقة له بالواقع ، هذا اليهودى يهودى الشتات والاستكانة اتخذ من مواجهته مع العرب فى غيبة العرب برهانا ، وحيثيات ليؤكد مصداقية خرافاته وأساطيره ، ويعيد الثقة إلى هذا

« العيران » إذا ما استعملنا لغة ابن ميمون الأندلسي ، ومن ثم فالتجربة التربوية مشروطة في نجاحها عبر الكيان الصهيوني بمدى استغلال أخطائنا .

٢ - إن الدارس بعمق لهذه التجربة يلاحظ أنها رغم ما تزعم من تجذير وتأصيل هي مقرونة بإطار الافتعال للكيان برمته ، فالسعى إلى خلق التجانس والانصار والجهد الذي يبذل لجمع الشتات في بوتقة وجدان موحد يرتكز في أساسه على الأسطورة ، ويعتمد في تطبيقه على التقدم العلمي والمعرفة التكنولوجية ، ويحصن نفسه بافتعال الانتصارات الفجائية والهروب إلى الأمام لا يمكن بحال أن يعتبر إنجازاً نهائياً ، وإذابة لقرون من الشتات والتنوع في الانتماء والتكيف ، ومن ثم حينما يتأزم الكيان بفضل وعينا بحقيقته سوف تنكشف العورات وتبرز الخصائص الموضوعية ، وسوف يكتشف الصهيوني أنه جر إلى أرض غير أرضه ، ويعيش مع أهل غير أهله ، وتمارس عليه كجماهير اعتقدت في أسطورة العودة وسائل الاستغلال والسخرة ، ونعني بذلك الشرائح العريضة من يهود المشرق والمغرب ومجتمعاتنا النامية .

٣ - محاولة الاتجاه اليهودي للتقليل من ثقل ابن الأرض واستلابه وتضليله ، وتعريفه ليس فقط من حاضره ، وإنما كذلك من ماضيه هي أطروحة مغلوطة ومغشوشة ، واستمرار ممارستها مرتبط باستمرار أخطائنا ، فعرب فلسطين ممن بقوا بعد الاغتصاب ، وعرب فلسطين ممن أصروا على الارتباط بالأرض بعد النكسة في الستينات هم في الواقع يجسدون جسراً صلباً ، ما علينا إلا أن نخفف من هزه واهتزازه من الخارج ، لهذا لا نرى أن الإنجاز في جملة نهائى ، بل التحديات مغفول عنها بالمسكنات والمغلطات ، وكل يضارب على الغد فماذا أعددنا للغد ؟ ..



وكخلاصة : وانطلاقاً من المحاور الثلاثة لهذا العرض ودون نطفل أو فضول على ما سوف يعرض للتعريف بالجانب العربي وانجاحاته يمكننا أن نسهم من منطلق الشعور بالمسؤولية ، وحتمية المصير ، وبدورنا بما يلي :

١ - أما آن الأوان للاتجاهات التربوية في الوطن العربي أن تعد للغد مصنفة للأولويات وما هو مصيرى بالنسبة للأمة دون أن تتمسح في المثالية « واليوتوبياوية » بمعنى أمتنا وفي واقعها كما هو ، لا كما يجب أن يكون ، ماذا أعدت للغد . تبقى المؤسسات الجامعية ويبقى التعليم في مخاضاته ، ويبقى ، ويبقى ، ولكن لم لا نحرص على تقديم نموذج إلى جانب ما يجرى الآن لا نقول مستهلما من الكيبوتس ، ولكن مستهلما من الإسلام ومبادئه في الوحدة والتضامن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، أى : ليكن . ولو من دولة عربية أن تتبنى تأسيس تعليم يرتبط بتجانس العربي وإندماجه من البداية إلى النهاية بدلا من تمزقه وتفتته فالخصم يجمع ما فتت ليدمج ، ونحن ننزق ما جمع لنفتت ، لهذا ندعو وبمشاعر صادقة أن تسعى دولة عربية في مشرق أمتنا أو في مغربها لتؤسس نموذجا تربويا كتجربة يرمز إلى الطفل العربي الموحد من الروضة حتى الجامعة ، والإسلام كفيل بإعطاء عناصر هذا الاندماج ، من حيث المبادئ والمشاعر والطموحات واللغة العربية تجسد وسيلة الاندماج ، والأرض تشكل المحور ، والغاية من هذا الاندماج هذه المؤسسة للطفل العربي الموحد : ولا نقول للدولة العربية المتحدة ، ليكن بنسبة ٢٥ ٪ من هذه المؤسسة من أبناء الأرض ، و ٢٥ ٪ من أقطار المواجة ، و ٥٠ ٪ من الأقطار العربية والإسلامية الأخرى واختياريا .

٢ - بالنسبة للاتجاه التربوى العربى الإسلامى ، ما ءحوجنا أن نعطى أولوية مطلقة . أولا : التربية في خدمة الأرض وسد الحاجات الضرورية ، وما أكثرها بالنسبة للجماهير ، بمعنى إعطاء أولوية لتطبيق التكنولوجيا في القطاعات الزراعية واستغلالها وتوسيعها لخلق كفاية ذاتية تجعل الإنسان العربى يتجاوز الضرورات ، ومن ثم يفكر ويسعى لتحقيق ما تبقى من الطموحات ، على أن يركز علميا على استئناس كل الوسائل الممكنة مختزلا للزمن للوصول إلى مستوى الردع لحماية الأرض ، ومن بب أولى استعادة ما سلب منها ، وحينما نقول الردع نعنى وبطريقة مباشرة الدخول في « نادى الذرة » وبأى طريقة كانت :

العقل العربى مؤهل ، والمال العربى بخير ، وما ينقصنا وينتقص منا إلا شىء واحد وهو « الصمت العربى » .

٣ - وفي النهاية إن كان المواجه والمصارع استطاع أن يوفق بين الأساطير والخرافات وبين التقدم العلمي والمعرفة التكنولوجية ليكون طوع تصرف مصيره وتدعيمه وحمايته - فلماذا لا نستطيع أن نوفق - لا بين أساطيرنا وخرافاتنا ولكن بين حقائقنا التاريخية ، وتراثنا الخالد ، وبين التقدم العلمي والمعرفة التكنولوجية لنعمق الشعور بالانتماء إلى الأمة ونزكيه ونجذره بقدر ما نؤصل التطلع إلى الغد ، وإلى المستقبل الأفضل .

ويستمر هذا الحوار المتواصل مع مفكرنا الكبير في حلقات أخرى
بمشيئة الله .

* * *

(١٩)

دكتور «رشدى فكار»

● المؤهلات . والعمل . والانتاج .. باختصار :

— من مواليد الكرنك بمحافظة قنا — جنوب مصر العربية .
— بعد أن التحق بسعهد قنا الدينى ، ثم معهد القاهرة الدينى بالأزهر
وتخرج منه وحصوله على البكالوريا الفرنسية أيضاً بالمعادلة ، وأصل دراسته
فى مصر ، ثم تابعها فى أوروبا بالقسم العلمى للدراسات العليا بالسوربون ،
حيث تخرج منه بحصوله على دبلومه فى الدراسات العليا ، كما حصل فى
نفس الوقت على ليسانس الآداب « تخصص فلسفة بالمعادلة » من جامعة
جنيف .

— حصل على دبلومين فى الدراسات العليا من باريس أحدهما فى
الإجتماع ، والآخر فى العلاقات الدولية .

— حصل على درجة دكتوراة من جامعة باريس مع مرتبة الشرف الأولى
سنة ١٩٥٦ .

— توجت حياته الدراسية الجامعية بحصوله بعد الدكتوراة السابقة ،
على مرتبة الأستاذية مع درجة دكتوراة دولة أخرى من جامعة جنيف عام
١٩٦٧ .

● الوظائف الجامعية التى تقلدها .. والعضوية فى الأكاديميات العالمية
والجمعيات والمؤتمرات الدولية ، وإقرار ترشيحه لجائزة نوبل فى الآداب
منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ :

— مكلف بمحاضرات بالسوربون فى القسم العلمى للدراسات العالية
بعد تخرجه منه لمدة عام .

- محاضر في جامعة جنيف بمعهد الألسن وكلية الآداب .
- عمل أستاذاً محاضراً بمعهد العلوم الإجتماعية بجامعة محمد الخامس التابع لمؤسسة اليونسكو تحت إشراف جامعة نيو شاتل ١٩٦٢ — ١٩٦٣ .
- أستاذ زائر بجامعة نيوشاتل وجامعة جنيف منذ سنة ١٩٦٤ .
- أستاذ بجامعة محمد الخامس منذ سنة ١٩٦٨ .
- أستاذ زائر بالعديد من الجامعات الأوروبية والعربية الأخرى .
- شارك في الإشراف على الكثير من الرسائل وأطروحات الدكتوراة المقدمة في الجامعات الأوروبية والعربية .
- ينتسب بالعضوية لأكثر من ٤٢ جمعية دولية ، وأكاديمية ، ومؤتمراً عالمياً مثل :

- عضويته لجمعية استرنبرج الاسكندنافية بالسويد .
- عضويته بالهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية أدلف (A. D. E. L. F.) بباريس .

- انتخب عضواً مشاركاً في الأكاديمية الفرنسية للعلوم بمجامع الخالدين — دائرة ما وراء البحار منذ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٣ .
- أقر ترشيحه لدى الأكاديمية السويدية « لجائزة نوبل في الآداب » منذ ٣ أكتوبر سنة ١٩٧٦ بمساندة هيئات عالمية ، وإسلامية ، وعربية منها :
- أكاديمية العلوم الفرنسية ، وجامعة جنيف ، والهيئة العالمية للكتاب بالفرنسية « أدلف » وتزكية مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، ومنظمة الجامعة العربية للترية والثقافة والعلوم (الكسو) . والمجالس القومية المتخصصة برئاسة الجمهورية بمصر ..
- إلى غير ذلك من الهيئات والمنظمات الفكرية والعلمية العربية الإسلامية والعلمية .

● الانتاج العلمى :

- يتجاوز إنتاجه العلمى حالياً ١٤٠ بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات ، وتعليقات باللغة الفرنسية أساساً ، والعربية والإنجليزية .

لمزيد من التفصيل عن هذا الإنتاج يرجع « الكتالوج الدولي لجامعة جنيف .. وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس » ..

● في الإنتاج العالمي بالفرنسية والانجليزية .. على سبيل المثال :

— السوسولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية ، وأصول الماركسية في مجلدين (عدة طبعات في عدة لغات) عن دار نشر العالمية دولا شونستليه نيوشاتل وباريس سنة ١٩٦٨ .

— المراهنة الصناعية في خمس مجلدات بالاشتراك مع أعضاء في الأكاديمية الفرنسية ، وأساتذة من الجامعات في دول الكتلة الشرقية خصوصاً المجلد الخامس عن (الصناعة وأزمة الحضارة) منشورات « دى نويل » .. « كوليغ دى فرانس » والأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٧٢ .

— علم الاجتماع ، وعلم النفس والاثروبولوجيا الاجتماعية ، معجم موسوعى عالمى ، أربعة أجزاء في مجلدين ، مصطلحات وأعلام ، بالفرنسية والإنجليزية والعربية ، باريس ، دار النشر العالمية جتنير ١٩٨٠ — ١٩٨١ .

● وفي الإنتاج بالفرنسية عن العالم العربى والاسلامى :

— نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعى الإسلامى — الفرج بعد الشدة — عن دار النشر العالمية .. أدريان ميزونيف بباريس ١٩٥٥ .

— تأملات فى الإسلام .. فى عدة طبعات عن دار النشر العالمية ميزونيف لاروز بباريس سنة ١٩٧٣

— انعكاسات السوسولوجية الوضعية وأصول الماركسية فى العالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس سنة ١٩٧٤ .

— أصول العلاقات الثقافية بين فرنسا والعالم العربى .. عدة طبعات عن دار النشر العالمية جتنير بباريس ١٩٧٣ .

— الحياة اليومية فى مصر إبان عصر محمد على .. عن دار النشر العالمية ميزونيف سنة ١٩٧٥ .

● في الإنتاج باللغة العربية :

- دراسات أنثروبولوجية اجتماعية (السحر وما حوله) دار النجاح - بيروت سنة ١٩٧٣
- الشباب وحرية الاختيار .. مكتبة المعارف - الرباط ١٩٧٤
- أوجست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام (منشورات مركز البحث العلمي) بجامعة الرباط .. حوليات علم الاجتماع سنة ١٩٦٨
- وضعية الدراسات السوسيولوجية في المشرق العربي (منشورات مركز البحث العلمي) الجامعي بالرباط سنة ١٩٧١
- الإسلام بين دعائه وأدعيائه - الرباط ، المعارف سنة ١٩٧٦
- الماركسية والدين - الرباط سنة ١٩٧٦ والقاهرة دار التعاون للنشر (الإنتاج العالمي) سنة ١٩٧٩ .
- في البغاء الوحشى - القاهرة - مكتبة وهبة والرباط . المكتبة الجامعية سنة ١٩٧٩
- تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع .. في مجلد موسوعي القاهرة مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠
- نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع .. في مجلد - القاهرة - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٠
- في المنهجية والحوار - مكتبة وهبة سنة ١٩٨٢
- إلى جانب دراسات وأبحاث أخرى باللغات المختلفة .

● ومن أحدث مؤلفات د. رشدى فكار . كما اشرفنا سلفا :

- موسوعة ضخمة في علوم الإنسان تتكون من أربعة أجزاء بالفرنسية والإنجليزية والعربية حاول فيها أن يعيد النظر في مضامين هذه العلوم على مستوى يتجاوز المضامين الغربية ، وهذه الموسوعة - تعتبر منعرجا هاما في التقنين المعرفى « الابتسومولوجى » لفاهيم علوم الإنسان الأساسية ونظرياتها الرئيسية ..



محتويات الكتاب

الصفحة

| | |
|-----|---|
| ٥ | تقديم |
| ١١ | دكتور رشدى فكار .. رحلة حياة |
| ١٨ | المؤلفات .. المنهج والغاية |
| ٢٣ | الدين والايديولوجية الماركسية والعلمانية الغربية |
| ٣١ | ازمة الحضارة الغربية .. القرن العشرون قرن بلا قلب |
| ٣٨ | الاسلام .. ودوره فى الحضارة العالمية |
| ٤٧ | الاسلام .. وتحديات العصر |
| ٥٣ | علماء الغرب ينجذبون الى الاسلام |
| | نهاية العمالقة : سان سيمون ، أوجست كونت ، ماركس ، |
| ٥٦ | سينسر ، سارتر |
| ٦٣ | انسان ربيع القرن العشرين الأخير ، وتطلعاته العلمية المثيرة |
| ٦٣ | - المحاولة العلمية لاقتحام مجهول الموت |
| ٧٠ | - الكومبيوتر .. وأستثناس المستحيل |
| ٧٢ | - انسان الحيرة .. ونظرية الذكاء الكونى |
| ٧٩ | أمتنا .. الى أين ؟ |
| ٨١ | - مسئولية الأزمة |
| ٨٤ | - الحرية واتخاذ القرار |
| ٨٩ | - مفهوم البطولات |
| ٩٢ | - فكر اسلامى موحد .. كيف ؟ |
| ٩٥ | اعادة النسق التربوى |
| ١٠٥ | نظرة على متاعب مصر الاجتماعية .. المشكلات والحلول |
| ١١٢ | حول مشكلات وتطوير القرى والمدن العربية |
| ١٢١ | الأسرة .. نظرة فى النشأة والتطور ، ومسئوليتها أمام عواض التنمية |
| ١٢٣ | ١ - الأسرة .. نظرة فى النشأة والتطور |

- ١٢٦ ٢ - المسؤولية الأسرية أمام عوارض التنمية
١٣١ فلسطين الشهيدة .. والاشكالية المعقدة
١٣٦ وفلسطين الشهيدة .. الواقع التاريخي والمواجهة
١٤٢ العودة الى القدس .. بين الانتقال الأسطوري والواقع التاريخي
١٤٧ اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في الكيان الاسرائيلي
١ - نظرة في اتجاهات الفكر التربوي المعاصر للكيان الصهيوني
١٥١ من خلال ابعاده الأساسية
١٥٥ ٢ - التحديات المواجهة للاتجاهات التربوية
١٦١ ٣ - اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في الكيان الصهيوني
على ضوء ما انجزت .. ما لها وما عليها
١٦٦ دكتور رشدي فكار : المؤهلات ، والعمل ، والانتاج
١٧٠ محتويات الكتاب



اسلاميات

(سلسلة العالم العربى الاسلامى)

للدكتور رشدى فكار (١)

● عن دور النشر العالمية :

- الفرج بعد الشدة عند مفكرى الاسلام ، لاهى بخيوف ، باريس ،
ادريان ميزونيف مجموعة كارنو ، ١٩٥٥
- تأملات حول الاسلام : اسس العقيدة والجانب الاجتماعى ، باريس ،
ميزونيف ولاروز ١٩٧٢ وفى عدة طبعات اخرى .
- اصول العلاقات الثقافية المعاصرة بين فرنسا والعالم العربى ، باريس ،
جتير ، ١٩٧٢ وفى عدة طبعات .
- انعكاسات السوسيوولوجيا الوضعية فى العالم العربى ، باريس ،
جتير ، ١٩٧٤ وفى عدة طبعات .
- الحياة اليومية فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، باريس ، ميزونيف
ولاروز ١٩٧٥

● عن دار الهلال ، القاهرة (بالفرنسية) :

- الفكر التقدمى فى اوروبا واثره فى الشرق ١٩٥٩ .

● عن دار النجاح للنشر ، بيروت (بالعربية) :

- السحر وما حوله مع ملحق عن انسان القرآن ، دراسة انثروولوجية
اجتماعية ١٩٧٣ .

(١) لمزيد من التفصيل عن الانتاج الكمل للدكتور رشدى فكار بالفرنسية ، والعربية
والانجليزية ، يراجع : كتالوج مكتبة جامعة جنيف حرف (ف) ، والقائمة الكاملة لاهم المؤلفات
والدراسات الرئيسية للدكتور رشدى فكار مع نبذة عن سيرته المودعة « بمؤسسة نوبل »
باستكهولم ، السويد ، وكتالوج المكتبة الوطنية بباريس حرف (ف) ...

● عن مكتبة وهبة للنشر والتوزيع ، القاهرة (بالعربية) :

– تأملات اسلامية في قضايا الانسان والمجتمع (في مجلد سنة ١٩٨٠) .
– نظرات اسلامية للانسان والمجتمع من خلال القرن الرابع عشر الهجرى . ١٩٨١

– لمحات عن المنهجية والحوار ... الطبعة الاولى ١٩٨٢ .

– خميس البكرى ، د. رشدى فكار الفكر الاسلامى العالمى فى حوار متواصل حول مشاكل العصر ١٩٨٦ .

● عن دار الشعب للنشر ، القاهرة (بالعربية) :

– امصريون فقط ؟ حوار مطول حول القضايا الايديولوجية المعاصرة ، فى كتاب عن الدكتور رشدى نكار وضعه الكاتب المصرى المعروف على الدالى ١٩٧٦ .

* * *

رقم الايداع ٨٦/٥٥٠٠
الترقيم الدولى ٦ - ٠٩١ - ٣٠٧ - ٩٧٧

ISLAMIATE

(Serie du Monde arabo-musulman)
de D. R. FAKKAR

● Editions Internationales.

- La Délivrance après l'angoisse, La Haye, Nijhoff, Paris, Adrien Maisonneuve, Collec. Garnot, 1955.
- Réflexions sur l'Islam, fondement de croyance et aspect social, Paris, Maisonneuve et Larose, 1972 et plusieurs éditions.
- Aux origines des relations culturelles contemporaines entre la France et le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1972 et plusieurs éditions.
- Reflets de la Sociologie Prémarxiste dans le Monde arabe, Paris, Geuthner, 1974 et plusieurs éditions.
- Aspects de la vie Quotidienne en Egypte, Paris, Maisonneuve et Larose, 1975.

● Edition Al-Hilal, Le Caire (en français).

- La pensée progressiste en Europe et influence en Orient. (1959).

● Edition Dar Al Najah, Beyrouth (en arabe).

- La Magie et ses alentours avec une annexe relative à l'homme du Coran étude d'Anthropologie sociale. (1973).

● Edition Wahbah, Le Caire (en arabe).

- Reflexions musulmanes sur les problèmes de l'Homme et de la Société. I vol. (1980).
- Vues musulmanes sur l'Homme et la Société après 14 siècles, (1981).
- Methodologie et dialogue. (1982).
- Khamis el - Bakry, D. Ruchdi Fakkak en Dialogue Avec les Problèmes de Notre Temps. (1986).

● Edition, Maison du Peuple, Le Caire (en arabe).

- Long dialogue sur les problèmes idéologiques, contemporains à travers la pensée de Dr. Rouchdi Fakkak, ouvrage sur lui, élaboré par l'écrivain égyptien, bien connu, Ali Dali. (1976).

(1) Pour les œuvres complètes de D . R. Fakkak : ouvrages principaux et autres travaux, en français, en anglais, et en arabe voire, Catalogue de la Bibliothèque de l' Université de Genève, Lettre F., la Liste de principaux ouvrages et travaux de R. Fakkak publiés Jusqu'à 1981 et déposée à la fondation Nobel, Stockholm, et Catalogue de la Bibliothèque Nationale de Paris, Lettre F.

Premiere édition

1986 — 1407 H.

TOUT DROIT EST RESERVE

مطابع المختار الإسلامي

KHAMIS EL BAKRY

Dr. ROUCHDI FAKKAR

EN

DIALOGUE

AVEC

LES PROBLÈMES DE NOTRE TEMPS

EDITION, WAHBAH LIBRAIRIE,

14 Rue GAMHORIYAH

LE CAIRE 1986